

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 2

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة الدكتوراه العلوم

التخصص: النقد المعاصر وقضايا تحليل الخطاب

إعــــــــــــــــداد الطالبة: قادري آسيا

عنوان الأطروحة

سرديّة "الملهاة الفلسطينية" وإشكاليّة البحث عن الهوية

مقاربة تأويليّة في روايات إبراهيم نصر الله

المشرف: عبد الغني بارة

أعضاء لجنة المناقشة:

الصفة	الجامعة	الرتبة	اسم ولقب العضو
رئيسا	سطيف 2	أستاذة التعليم العالي	فتيحة كحلوش
مشرفا ومقرّرا	سطيف 2	أستاذ التعليم العالي	عبد الغني بارة
ممتحنا	سعيدة	أستاذة محاضر أ	آمال ماي
ممتحنا	سطيف 2	أستاذ التعليم العالي	محمد عبد البشير مسالتي
ممتحنا	م، ع، أ سطيف	أستاذ التعليم العالي	أسامة عميرات
ممتحنا	سطيف 2	أستاذة محاضر أ	حنان خطاب

السنة الجامعية: 2023 /2022

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي

الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

سورة البقرة: الآية (201)

# إهداء:

-إلى مدرستي الأولى أُمي  
التي كابدت المشقات وأنا في طريقي إلى الحياة...  
وإلى فرحتي، الكبري خليلي  
أنا أعتز بك كثيرا...  
وإلى كل من يقدر جهد الآخرين  
إلى كل هؤلاء حبا وإخلاصا...

## كلمة شكر:

- أتوجه بحميد الشكر إلى الأستاذ الدكتور عبد الغني بارة لما  
أسدى لي من ملاحظات ثمينة، وأفادتي كثيرا في إتمام هذه  
الدراسة، وعلى تشجيعاته ونصائحه، فله مني جزيل الشكر وعميق

العرفان.

# مقدمة

## مقدمة:

ينفتح النص السردي العربي المعاصر بطبيعته الإبداعية على إشكاليات الإنسان ليفصح عن هواجسه المظلمة، وأزماته الموجهة، وتاريخه الممتد في أزمنة بعيدة، والمتجذرة في جغرافيات مختلفة؛ فهو اجسه يهضمها ضمن موضع الممكن، والمحتمل في المتخيّل، أما المعاش اليومي فيعد بحق راهنا إشكاليًا يستفز النص الإبداعي، ليستقطب أزمات أثقلت كاهل العربي، فيعيد النص السردي ترويضها وفق إمكانات إبداعية تشخص موضع التضييق وتعابن فيها وجودا إنسانيا مضطربا، أمّا تاريخه فهو الركن الرشيد الذي يستند إليه النص السردي في تأنيث، وتعزيد عوالمه الممكنة، لتتنظم إشكاليات النص بناء على الأصل المرجعي للحكاية ومن منظور تاريخي، يشير إليه النص باستراتيجيات تزيل المبهم من تاريخ الإكراهات، وتضع إبدالا معرفيا عنه، ليتجاوز العربي محنته التاريخية بفهم موضعه من واقع غيّب فيه العربي الإنسان تاريخيا، وجغرافيا، بفعل الاستعمار الذي نهش الإنسان، والأرض والهويّة، والتاريخ.

وبهذه الرؤية النقدية للنص السردي التي تفصح عن إمكانات النص الإبداعي، وعن قدرته على استيعاب إشكالات الإنسان، وعلاقته بالعالم بطرق سردية ترفع عنه الانسداد التاريخي من تضييق سياسي أو اقتصادي، أو تبعثر اجتماعي، ويتيح له السرد أن يتعرف على إمكانات أخرى للحياة يتجاوز بها كل الإكراهات، فإن النص السردي على هذا النحو من التشكيل الاستثنائي يتحرك نحو الجدلي فينا؛ أي يدعو قارئه إلى القراءة التأويلية الفاعلة والواعية التي تتمسك بهويّة النص الإبداعية وهي تلتقط موضع القلق الإنساني، من ارتباك تاريخي، وتبعثر جغرافي في سيرورة زمنية سردية تم فيها تحريك التجربة التاريخية حول الإنسان، وهويّته.

وضمن هذا المسار من التفعيل بين السرد والحياة يأتي نص "المهاة الفلسطينية" للمبدع إبراهيم نصر الله، بأفق من التشكيل السردي يكشف به عن إشكالية الهوية

الفلسطينية التي توغلت في عمق الأرض، والإنسان، والتاريخ، فهذا النوع من الكتابة يدخل في إطار البحث عن مصير حرّ للإنسان، والأرض، وإنجاز ذاكرة سردية مقاومة. ليأخذ السرد في "الملهاة الفلسطينية" وضمن نصوصه المتعددة شكل المقاومة الثقافية، أو الردّ بالكتابة \_ مثلما اصطلح عليه بيل اشكروفت/ Bill Ashcroft \_ التي تعيد قراءة الماضي والبحث فيه ضمن إشكالات الحاضر للرد على السردية الصهيونية التي ميّعت الحقائق وزيّقت التاريخ، وغيّبت الفلسطيني لأجل الاستحواذ على أرضه.

واستناداً إلى التشكيل الإبداعي، يأتي عنوان الأطروحة بصيغة "سردية الملهاة الفلسطينية وإشكالية البحث عن الهوية مقاربة تأويلية في روايات إبراهيم نصر الله"، وعليه فـ "الملهاة الفلسطينية" مشروع إبداعي ملحمي يسعى إلى حماية الهوية الفلسطينية من التلاشي، أو النسيان، وإلى الردّ على السردية الصهيونية التي سعت إلى تغييب الفلسطيني وإقلاعه من أرضه، فقد أعلن المبدع "إبراهيم نصر الله" أن مشروعه الملحمي "الملهاة الفلسطينية" كان ردّاً على مقولة \_ دافيد بن غوريون / David Ben Gurion أول رئيس وزراء لإسرائيل 1886، 1973 \_ التي قال فيها "سيموت كبارهم وينسى صغارهم"، فكان النص الملهماتي يحمل في ثناياه شهادات من عايش مجازر النكبة، والاقتلاع، والمجازر والشتات...، وشهد على الرعب الصهيوني بتفاصيل كفلت للنص بأن يروي حكاية فلسطين من مساحات تاريخية شاسعة المدى، ومن زوايا سردية مختلفة تشهد على التجذر التاريخي والجغرافي للإنسان الفلسطيني على أرضه، إلى عمق الراهن الفلسطيني المتأزم بوجود الصهاينة، فالنص الملهماتي حقق انتماءه الإبداعي، إلى هوية سردية فلسطينية مضادة للسردية الصهيونية؛ وذلك بتعريفها للوجود التاريخي الصهيوني المضلل.

استناداً إلى هذا التشكيل الإبداعي فنص "الملهاة الفلسطينية" بتعدد نصوصه، واختلاف رواياته توجهه بنيته الافتراضية إلى القضية الفلسطينية، وهي من أكثر القضايا الإنسانية رعباً في التاريخ، إذ حمل، وتحمل ثقلها التاريخي الملقى على عاتقه بالتعبير عن

أزمة الهوية الفلسطينية، وبصوغ عوالم الوجود المعقد للشعب الفلسطيني داخل فلسطين، وخارجها مبرهنا بذلك عن قدرة النص السردي في تفسير، وتأويل، وتفكيك علائق الإنسان الفلسطيني بوجود معقد، وبإشكالياته الواقعية، والتاريخية.

من أجل قراءة هذا المسار السردى لنص الملهاة، يقترب البحث من النص ويطرح سؤاله الذي تمحور حول الهوية الفلسطينية، كيف صاغ نص الملهاة قصة فلسطين؟، أو كيف أضحت الهوية الفلسطينية إشكالية نصية؟، ما علاقة الذاكرة بالسرد؟، وكيف تحول تاريخ النكبة إلى ذاكرة جماعية، وبالتالي إلى هوية فلسطينية؟، وكيف انتظمت الهوية الفلسطينية في هوية سردية مقاومة؟، وهل استطاع الفلسطيني إيجاد بديل عن الوطن في ممره الأخير؟

وتحريا لهذه الأسئلة كان على البحث أن يستند إلى القراءة التأويلية، التي فرضتها حاجة النص إلى الانفتاح على جمهور من القراء في تحديد أفق من الإنصات للوجع الفلسطيني، ومعايشة إشكالية هوية النص السردية، ضمن تحديد شرطها التاريخي المعاش وأصلها المرجعي بين مساحات شاسعة من التاريخ الفلسطيني المتجزر في الأرض، وبين واقع فلسطيني مظلم تحدت معه علاقة جدلية تفاعلية تربط النص بقارئه، وتوسعا لإشكالية الهوية الفلسطينية ضمن نص "الملهاة الفلسطينية"، ووفقا لطبيعته المتخيلة تعبر القراءة عن كينونتها عبر تأويل رؤية النص السردية، التي أكثر ما استندت في فهمها للهوية الفلسطينية إلى التاريخ، الذي انتظمت فيه هوية فلسطينية تركز إلى الفعل التاريخي، في تحديد أسسها المتجزر في جغرافيتها المفقودة بأبعاد إنسانية أبطلت بها كل مفعول صهيوني أراد طمسها أو محوها، أو تكذيب وجودها التاريخي، والجغرافي، لتكشف بذلك عن الجرم الصهيوني في حق الفلسطينيين بسردية مضادة للرواية الصهيونية المخترقة، والمزيفة تاريخيا.

وبناء على مسار التشكيل السردى لإشكالية الهوية الفلسطينية عبر فعل التأويل، تتحد أهداف البحث وفقا لأسئلة النص المحورية، ومن جملتها:

\_ يراهن البحث على تأويل الفعل التاريخي في السرد، لتأسيس هوية سردية قوامها المتخيل؛ حيث تفعل الاستراتيجيات النصية مفهوم الهوية الفلسطينية بناء على حقائق تاريخية، مثل: فاجعة النكبة 1948، والمقاومة، والشتات الفلسطيني.

\_ يفتح التأويل على رؤية النص الفكرية، ليتمكن من توسيع آفاق فهم حكاية فلسطين التاريخية، بتتبع نماء الهوية السردية، وتطورها وفقا لمراحل قراءة إشكالية النص التي خضعت لعلاقة جدلية بين النص والقارئ.

\_ الهوية الفلسطينية تتسرّب إلى السرد بفعل تأزمها التاريخي، والجغرافي، لتتشكل هوية سردية ضمن نص "الملهاة الفلسطينية" أثناء تحريك التجربة الإنسانية المريرة التي خاضها ويخوضها الشعب الفلسطيني.

\_ ترتبط الهوية الفلسطينية بشرطها المعاش، وهو شرط تاريخي لا يحيد عن فاجعة النكبة والمقاومة السردية، والشتات الفلسطيني، وحلم العودة إلى الوطن، وهي مقولات سردية تكفلت بتحديد أزمة الهوية الفلسطينية.

وللوصول إلى هذه الأهداف كان على البحث أن ينتهج خطة قرائية، هيكلية مساره في تأويل الهوية الفلسطينية، ضمن نص "الملهاة الفلسطينية" تشكيلا لهوية سردية مقاومة للوجود الصهيوني، وتحقيقا لهذا المسعى تكونت خطة البحث من مقدمة، ومدخل، وثلاث فصول وخاتمة.

تمحور مسعى البحث ضمن إشكالية النص التي تفرعت عنها أسئلة الفصول؛ إذ توزعت بنماء، وتطور مستمر وفقا لقراءة تأويلية لهوية النص السردية؛ بداية تكفل المدخل بمناقشة مفاهيم البحث \_الهوية، والهوية الفلسطينية، والهوية السردية، وعلاقة السرد بالتأويل\_ وتفحص العلاقات التاريخية التي بدت معها المفاهيم منفلطة عن تعريف يحددها ضمن تعريف اصطلاحي معين سلفا، لأن اقترانها بالشرط التاريخي المعاش جعلها في حالة من تكوين بنائي مستمر في التاريخ.

وبربط مفاهيم البحث بالأصل المرجعي الذي لفضها أزمة، وإشكالا، يُرفع الالتباس عنها ليتعين على الفصل الأول بمباحثه الأربعة قراءة النص بحثا عن الهوية الفلسطينية ضمن مسار تاريخي سردي حدّته فاجعة النكبة تأسيسا لذاكرة الجماعة، وتجاوزا لصدمة 1948 حين اقتلع، وشرّد الشعب الفلسطيني، حتى أضحت الهوية الفلسطينية مهدّدة بالمسح الوجودي، لذا سمي الفصل بـ: "ذاكرة النص، بين التأويل التاريخي، والتمايز السردية". وكان على البحث أن يستقصي عن ذاكرة النص من خلال تأويل عنوانه، الذي أضحي بحضور كلمة "فلسطين" استراتيجية مثقلة بهموم تاريخية موجعة، توجه عملية القراءة نحو هوية فلسطينية مأزومة، لذا فالذاكرة الفلسطينية من طبيعة سردية تسعى إلى فرض هوية فلسطينية مقاومة للوجود الصهيوني، فكان عنوان المبحث الأول: "سؤال الملهمة الفلسطينية"، من ذاكرة العنوان إلى فاعلية النص". أما الذاكرة الفلسطينية المجروحة فكانت بطبيعتها سردية، لذا سعى نص "زمن الخيول البيضاء" إلى فرض أجواء تمثيلية تعود إلى فلسطين الطبيعية؛ أي قبل النكبة تأكيدا على مرجعية وجود فلسطين، وتجذر الإنسان في الأرض، وما عودة النص إلى تاريخ ما قبل النكبة إلا تمهيدا لفاجعة الخروج، لذا سمي المبحث الثاني بـ: "فاجعة النكبة: من سردية التذكر إلى إعادة تشكيل الهوية الفلسطينية". وبحثا عن علاقة السرد بالتاريخ فهما، وتأويلا لهوية سردية تحدد مسار حكاية فلسطين التاريخية، تعين على نص "قناديل ملك الجليل" أن يخوض في السيرة التاريخية لـ "ظاهر عمر الزيداني" بطل من أبطال فلسطين التاريخية، لذا سمي المبحث الثالث بـ: "السرد والتاريخ، نحو تشكيل هوية سردية فلسطينية". وسيرا على مسعى تشكيل هوية فلسطينية جماعية كانت السيرة الذاتية حاضرة في نص "طيور الحذر"، وهو الشاهد السردية على تمثيل فعالية السرد في تحويل المحكي الذاتي إلى هوية جماعية مقاومة للوجود المتعثر، فسمي المبحث الرابع بـ "مسار الذات نحو الجماعة، وانتمائها الفلسطيني".

وبناء على نتائج الفصل الأول في تحقيق هويّة سرديّة تاريخيّة للجماعة الفلسطينية كان على البحث أن يقارب الهويّة من خلال معاينة تسريد فعل المقاومة حين انتظمت فيه هويّة سرديّة مضادة لحكاية الصهاينة، فكان عنوان الفصل الثاني "سؤال الهويّة الفلسطينية من أفق السرد إلى أفق المقاومة". وقد تفرع عن هذا الفصل أربعة مباحث تخلق ضمنها فعل المقاومة من إعادة تجربة إنسانية حية احتواها نص "تحت ضحي الشمس" بطرح يفضي إلى العيش ضمن فضاء من المقاومة السردية المضادة لذلك سمي المبحث الأول بـ: "المقاومة السردية، وإشكاليّة البحث عن الهويّة. ليكمل المبحث الثاني: الوجود الفلسطيني المغيب، والكتابة السردية المضادة. مسيرة تأويل المقاومة السردية؛ فقد كان نص "سيرة عين" نموذجاً لفهم دور الكتابة السردية في تجلي المقاومة، لاقتراجه بالتوثيق التاريخي اقتراناً مكنه من خوض تجربة الانتهاك الصهيوني للإنسان الفلسطيني بتأويل صهيوني يحرف التاريخ ويخضع لنزواته الاستعمارية المدمرة، وما كان على القراءة التأويلية إلا أن تعاین الحكاية من منطلق التضاد، والتصادم في جدلية الغياب الفلسطيني، والحضور الصهيوني، أما نص "أعراس آمنة" فقد كان نموذجاً استثنائياً للمقاومة في كسر الموت بانتشاله من ألفته المحزنة وتطويعه لأعراس وأفراح وفق صمود الفلسطينيين أمام مأزقهم التاريخي، لأجل ذلك سمي المبحث الثالث بـ: فاجعة الموت، وأفق المقاومة السردية. أما مفهوم الحرية ضمن نص "الملهاة الفلسطينية" فإن مفهومه فلسفي؛ حيث سار بعقد هووي أبرمه نص "طيور الحذر" للأخذ بيد الفلسطينيين المشتتين إلى فضاء الحرية في المتخيّل، وبالتالي فالحرية المقترحة من طرف نص "طيور الحذر" هي شكل من أشكال الوجود في السرد، والحياة الممكنة أيضاً. لذا سمي المبحث الرابع بـ: الحرية في مواجهة التّأويل.

ومن جملة نتائج الفصل الثاني تأسس الفصل الثالث على سؤال الشتات الفلسطيني بحثاً عن مسارات تأويل هويّة فلسطينيّة علقت في مأزق وجودي فرضه عليها استعمار صهيوني استيطاني، فكان لابد من تأويل يوصل القارئ إلى فهم حكاية الشتات الفلسطيني،

لأجل ذلك سمي الفصل الثالث بـ: الشتات الفلسطيني، ومسارات تأويل الهوية. ليتفرع عنه أربعة مباحث تكفل المبحث الأول المعنون بـ: الهوية الفلسطينية العابرة لأزمة الشتات. بسؤال الهوية من موقع الشتات، حيث برهن البحث من خلال نص "طفولتي حتى الآن" عن أفق من التحدي والصمود يعيشه الفلسطيني في منفاه القسري بتمسكه بهويته في مكان أكثر ظلمة، وقهرا أي في الشتات خارج فلسطين. وتكملة لبشاعة وشناعة الفعل الصهيوني في الشتات كان على البحث أن يستوطن فلسطين رفقة أطفال "غزة"، و"الخليل"، و"نابلس" للإنصات لرواية الشتات داخل فلسطين، وهذا ما أفضي به نص "أرواح كليمنجارو" في خلق مساحات من فهم، وتأويل واقع من الاكراهات تمارس على الشعب الفلسطيني من طرف الصهاينة. ليعنون المبحث الثاني بـ: فلسطينيو الداخل، وجود غير سويّ. وفي ظل غياب عدالة إنسانية بين الصهاينة، والفلسطينيين، تصبح فرضية تقبل الآخر غير منطقية، لذا فحياة الفلسطينيين بدت أكثر شرفاً، وحرية في ظل المقاومة ومحاولة استرجاع الأرض، عبر سردية "ظلال المفاتيح"، لذلك سميّ المبحث الثالث، بـ: الآخر النقيض، وظلال الذاكرة الفلسطينية. وتكملة لرؤية النص الفكرية للهوية الفلسطينية، فإن حلم العودة كان أساس سردي في تشكيل الهوية السردية تشكيلا بث النص من خلاله تعلق المشتتون الفلسطينيون بوطنهم تمثيلا لهويتهم الفلسطينية القائمة في أرواحهم، وتجاوزا لنكبتهم، من أجل ذلك سمي المبحث الرابع بـ: حلم العودة إلى فلسطين.

ولقد استند البحث في قراءته لإشكالية النص على مراجع تنوعت وفق قاعدته الثلاثية التي قامت على الهوية، والتأويل، والسرد؛ منها ما كانت سندا له في السرد والتأويل، مثل: "سرديات الأمة، تخييل التاريخ، وثقافة الذاكرة، في الرواية المغاربية المعاصرة"، وكتاب "الرواية العربية، وأسئلة ما بعد الاستعمار" لإدريس الخضراوي، وكتاب "الرواية المغاربية المعاصرة دراسة تأويلية"، لعبد الله لحميمة، وبعض كتب بول ريكور، مثل: "من النص إلى الفعل"، و"الذات عينها كآخر"، وخاصة كتاب "الذاكرة

والسرديّ الذي استفاد منه البحث كثيرا، وغيرها أما فيما يخص إشكاليّة الهوية الفلسطينيّة، فإن كتاب "في الممر الأخير سرديّة الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالي" لكتابه رامي أبو شهاب كان سندا للبحث بخاصة في الفصل الثالث، بالإضافة إلى كتاب "الشتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير؟" لشريف كناعنة، وكتاب "الهوية الوطنية الفلسطينية، خصوصية التشكل وإطار الناظم، بديل." لعبد الفتاح القلقيلي وأحمد أبو غوش، أما الكتاب الجماعي، "التجمعات الفلسطينية وتمثالاتها ومستقبل القضية الفلسطينية"، للمركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الاستراتيجية، من الكتب المهمة التي أتيحت للبحث سبلا من الفهم النظري للهوية الفلسطينية، وغيرها من الكتب والمقالات التي استند إليها البحث في مقاربتة لإشكالية النص.

ومن أهم الصعوبات التي واجهت البحث في طريقه إلى النص، تمثلت في سعة المساحة التاريخية المحتواة في السرد؛ إذ غطى نص "الملهاة الفلسطينية" أكثر من 250 سنة من التجربة الإنسانية للشعب الفلسطيني، وهو نص ملحمي احتوى التجربة التاريخية، وعاش المأساة الفلسطينية في تشكيل سردي مستمر في الزمن، لذا، لا يزال النص على قيد ولادة مستمرة بنشاط المبدع "نصر الله إبراهيم" الذي يسعى دوما إلى فهم حكاية فلسطين عبر مشروعه التراجمي الملحمي "الملهاة الفلسطينية"، من أجل ذلك يصعب على البحث احتواء الإشكالية وفقا للزمن الذي تولد فيه ما دام النص الملهماتي قيد التشكيل المستمر في نصوص تظل تكابد الجرح الفلسطيني.

ومن أهم الدراسات التي تعرضت لنص "الملهاة الفلسطينية" بالدراسة والتحليل كتاب الكون الروائي: قراءة في الملحمة الروائية، الملهاة الفلسطينية لإبراهيم نصر الله، لمحمد صابر عبيد، وسوسن البياتي، ولكن للأسف تعذر الحصول عليه.

وقد يكمن اختلاف البحث عن الدراسات السابقة، في تركيزه على معالجة إشكالية النص من خلال التفاعل النصي بين القارئ والنص، والتفاعلات المرافقة لهما، وذلك من خلال التأويل الذي يتيح للقارئ تجربة استيعاب المعنى والتفاعل معه، وتحريكه وفق

استراتيجيات نصية تهدف إلى بناء دلالات الهوية الفلسطينية، كنتاج سردي ينغمس في الذاكرة المجروحة، ويسعى إلى خلق ذاكرة سردية مقاومة.

وعليه، فإن القراءة التأويلية تعد قراءة محتملة في بناء دلالات النص؛ فقد حاولت مقاربة دلالات الهوية على قدر انفتاح النص على التاريخ، والإنسان، والأرض وذلك في سياق الصراع الصهيوني الذي أثر سلباً على الهوية الفلسطينية وأرهقها. وفي كنف النصية والاختلاف تم بناء دلالات الهوية بناء على مسار تاريخي تشكلت فيه الهوية الفلسطينية في ظل فاجعة النكبة، والمقاومة السردية، والشتات، وبالتالي، كانت دلالات الهوية السردية منفصلة من التحديد، أو الاستحواذ القرائي إلى فيض من تاريخ المأساة الفلسطينية الذي استوعبه القارئ بناء على واقع فلسطيني متعثر.

وقبل الختام، أحمد الله تعالى على توفيقه وعونه لي لإخراج هذا البحث، كما أتوجه بالشكر الجزيل للدكتور عبد الغني بارة فقد كان مصدراً لدعمي ومساندتي وتشجيعي: فلك مني عميق الشكر، وجميل الامتنان على كل ما قدمت لنا في طور ليسانس، الماجستير والدكتوراه، وخالص امتناني، وتقديري إلى كل من ساندني في تحقيق هذا البحث.

مدخل

مدخل: قراءة في علائقية مفاهيم البحث

1/الهوية.

2/ الهوية الفلسطينية.

3/ الهوية السردية.

4/ التأويل والسرد.

### 1/الهوية:

إن التحري عن سؤال الهوية، ومحاولة الاقتراب من مفهومها، ضمن العلاقات التي تربطه بالسرد، والتأويل، تعدّ من الأسس المعرفية التي تقوم عليها هذه المقاربة التأويلية؛ والتي من شأنها أن تحقق تجاوبا منهجيا يستحث البحث، والدراسة، على فهم علائقية مفاهيم البحث المتمثلة في: (الهوية، الهوية الفلسطينية بين الحضور الفلسطيني والتأويل الصهيووني الهوية السردية، السرد والتأويل)؛ فإذا كان مفهوم الهوية مفهوماً بينياً عابراً لكل التخصصات العلمية، والفكرية (التاريخ، الانثروبولوجيا، التحليل النفسي، الفلسفة، الدين، السياسة، النقد الأدبي الانطولوجيا،...)، فإنه هنا قد احتواه النص السردى لغة، وتخيلاً، ولفظه سؤالاً إشكالياً، مما يستدعي التأويل، كرؤية منهجية تستبطن فحوى دلالاته، التي تتعالق، وتتشابك بين السرد، والتأويل، وبين الواقع، والمتخيل، وبين التاريخ، والراهن، فما الذي يقر بمشروعية سؤال الهوية؟ وهل يمكن الاستحواذ على مفهوم الهوية، وهو في مواجهة السرد، والتأويل؟

يعد مفهوم الهوية من أكثر المفاهيم التباساً، وإشكالاً، نظراً لتشعب أبعاده، وتداخل التخصصات العلمية التي حاولت أن تحصره في مجالها بوضع تعاريف تقف عند تطابق حدودها، إلا أن طاقته المفهومية تترفع عن الحد من وضعه في قوالب جاهزة، مما يحيل محاولة الوصول إلى تعريف قار، وواضح المعالم لمفهوم معرفي، وحيوي إلى الاختزال وإلغاء لعنصري الاختلاف، والتعدّد؛ فمفهوم الهوية مفهوم يضيق، ويتسع، يضيق حتى يغدو لا يعني سوى الأنا/الذات في مميزاتها، وتطابقها مع ذاتها (الماهية)، ويتسع ليشمل النحن/أي الجماعة البشرية التي تشترك في قواسم تتفرد بها عن غيرها، ويتحدّد وفقها مفهوماً للهوية، قد يشمل مكونات هذه جماعة، أو تلك، بالنظر إلى التاريخ، والأرض، واللغة، والدين، والوعي الجمعي والمكان...، وقد يطغى مكون على باقي مكوناتها، حتى يغدو هو الهوية ذاتها، هكذا يبدأ التعدّد في مفهوم الهوية، و((ليس التعدّد رقماً، بل هو

علاقة تحتكم على تصور قائم على الاختلاف<sup>1</sup>، الذي يفرض على مفهوم الهوية أن يتعين بعيدا عن المقاربة اللغوية والاصطلاحية، بحثا عن التحرر من نمطية التعريفات، وتجنبنا لتكرار ما قيل، وجدوى ذلك أن المفهوم ذاته يولد من رحم الإشكال، ويتكون في خضم الأزمة، مشرعا بذلك عن وجوده المقترن بالبحث، والاستقصاء، وليس بنقله كمعطى مسبق مكتمل المعالم، إنه مفهوم بنائي يعيد بناء ذاته وحدود اصطلاحه، وفقا للإشكال الذي تخلق منه وبه، إذ ((ليس المفاهيم (...)) كينونات باردة جامدة بل هي بؤرة مسكونة بالحيوية، ونبض الإشكال، وحرارته ودفئه (...)) ولا يفقد هذه الحياة إلا بعرضه بأسلوب المعاجم والقواميس، التي تقاربه كجسم لغوي، تقطعه وتقلبه صرفيا واشتقاقيا بحثا عن ايتيمولوجيته، ثم تنقله إلى عرض دلالاته الاصطلاحية كلفظ فلسفي قال فيه الفلاسفة أقوالا، وذهبوا في تحديده مذاهب شتى (...))<sup>2</sup> نفيًا لهذا التقييد من التعريفات، لا يقطن مفهوم الهوية مكانا ثابتا، بل يتخذ مسارا مغايرا يتنامى فيه، ويدعو إلى اقتفاء أثره وفقا لخصوصية الإشكال الواقع ضمن السرد والتأويل، أي القراءة، وفي كنف المأزق يتهيأ مفهوما غير معلن إلا من خلال الإشكال الذي أوجده؛ لأن ((المفهوم داخل نسيجه الأصلي (...)) هو عبارة عن صيرورة، حيث ينمو ويتشكل، وتتكتف فيه ليس فقط دلالات ومعان، بل أيضا حلول لاستفهامات إشكالية ملحوظة، ومن ثمة لا ينبغي فصل المفهوم عن الإشكال))<sup>3</sup> الذي يقر بانفتاح مفهوم الهوية على الاختلاف.

تأسيسا على هذه الرؤية -التي تقر بتعددية المفهوم، وانفتاحه على الاختلاف- يتموقع مفهوم الهوية ضمن إحدائية زمنية، ومكانية، أحدثت حركة فاعلة فيه، فاحتوته على نحو أيقظت السؤال فيه، وعنه، والبحث عن ولادة مفهوم مقترن بوجود مأزق يضيق على الذات والجماعة، ودفعهما إلى تأمل هويتهما القلقة، والمتوترة، والسؤال عنها بإعادة

<sup>1</sup> خالد بالقاسم، مرجح القراءة في البحث عن المعنى، وزارة الثقافة والرياضة، قطر، مارس 2020، ص: 68.

<sup>2</sup> الطيب بوعزة، في مفهوم المفهوم ومحددات المقاربة المفاهيمية، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، قسم

العلوم الإنسانية والفلسفة، موقع بلا حدود: <https://www.mominoun.com> ص: 4.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص: ن.

مراجعة أبعادها ومكوناتها، بذلك ((يرتبط سؤال الهوية، منطقيًا، بشرط معاش لا يلبي السائل، ولا يرضيه، ويؤكد في لحظة عينها، نزوع السائل إلى شرط جديد، يسعفه في تحدي الآخر المختلف والثبات أمامه، والبرهنة على أن هويته الذاتية معافاة، وفاعلة. ولعل تعابير التحدي، والثبات والعافية إعلان عن التمسك بهويّة معيّنة، ووشاية بمأزق حاملها في آن.))<sup>1</sup>، فالتربص بالهويّة من طرف الآخر في محاولة منه لخنقها، وإغائها، ومحوها من الذاكرة، ما دفع بحاملها إلى البحث عنها واحتوائها، وترميمها بالنظر إليها على نحو يخرجها من النمطية الجاهزة المغرقة في جمود وثبات مفهومها، إلى التحول الذي يسعفها، وينتشلها من المأزق الذي أوقعها الآخر فيه.

يعدّ سياق التآزم، هو سياق انبثاق المفهوم، وسياق انتعاشه، كسؤال إشكالي وجودي نافذ في مواجهة الإحراج الذي أحدث فاعلية في مفهوم الهوية، وانتقل به من حدّ الوجود بالقوة إلى حدّ الوجود التاريخي، ما جعل غاية البحث ليست الاستحواذ، أو احتواء المفهوم في شموليته، وتاريخه بل حسبه أن يقاربه في اختلافه، وتميزه الذي تخلق من ارتباطه بتجربة إنسانية شديدة الخصوصية، تجعل منه مفهوما حيويًا متقدرا فذًا، يستمد أصالة وجوده من المعيش اليومي لتلك التجربة، فمفهوم الهوية ليس مفهوما منجزًا، ولا يمكن تحديده وفق التحليل النظري المجرد، بل هو تجربة إنسانية يجب أن تعاش على نحو من مصاحبة الذات الموجوعة من آلامها، والجماعة المفجوعة في تحولاتها التاريخية، والجغرافية، التي تحقق هويتها بوساطة السرد، أو هو مفهوم إجرائي اقتضاه البحث لاقتفاء أثره، والذهاب به حيث تأخذه التجربة- التي لفظته سؤالًا إشكاليًا- نحو بداية متجدد تتقذه من التكرار.

مما لا شك فيه أن الهوية ضرورة إنسانية، أو هي حق إنساني يطلبه الإنسان فردًا كان، أم جماعة تمايزًا عن الآخر، وحفظًا له من كل تماهي في الآخر، والذي قد يلغي

<sup>1</sup> فيصل دراج، في الهوية الثقافية الفلسطينية، مجلة الكارمل، العدد 50، شتاء 1997، مؤسسة "الأيام"، رام الله، فلسطين، موقع المجلة: <https://archive.alsharekh.org>، ص: 24.

تفرده، ويشوش عليه استقراره، بخاصة إذا أخذ مفهوم الهوية على أنه حفظ الكيان في مواجهة الآخر، و((وعي الانتماء (...)) فسؤال الهوية أصبح سؤالاً عاملاً يعني كل إنسان عربي، إذ أنه يمس الجماعة وليس الفرد فحسب، مضمونه: من نحن؟ وما الذي يقوّمنا؟ لأن الهوية في التعريف هي ما يتقوم به الشيء، وهذا يعني السؤال الجوهرى فينا والثاوى، فالهوية هي التي تميزنا عن الآخر تمييزاً مستمراً<sup>1</sup> يحقق فيه الفرد، أو الجماعة حماية لهما من الانسلاخ، أو الذوبان في الآخر، ولكن هل هذا الحق الإنساني، أو حق الحماية متاح لكل فرد، أو جماعة؟ أو هل هو متاح بذات المستوى من الاعتراف بالحق بين الآخر، والأنا؟ أم الأمر خلاف ذلك؟

### 2/ الهوية الفلسطينية بين الحضور الفلسطيني، والتأويل الصهيوني:

ليست الهوية معطى سكونياً مستقراً لا يتغير، وإنما هي قرينة التحول، والتبدل فهي في حالة مستمرة من التكوين في الزمن، وإن احتوت على عناصر، وأسس تتسحب على كل الهويات، ((مثل اللغة والثقافة والدين والوعي الجماعي ومعايير الحياة الاجتماعية المتوارثة... يصلح هذا التعريف لجميع الهويات بشكل عام))<sup>2</sup>، إلا أن الاختلاف يكمن في مستوى الاحتواء، فكل جماعة تتحدّد هويتها بناء على ما احتوت من هذه العناصر وغيرها، كما قد يطغى عنصر على باقي العناصر حتى يغدو هو ذاته هوية هذه الجماعة، أو تلك إذا انتفى تتنفي معه هويتها؛ مثل الهوية الفلسطينية -وهي بؤرة تركيز البحث- التي تملك العنصر الحاسم في إعادة تعريف كل تلك العناصر جميعاً وفق تجربة تاريخية خاصة بالفلسطينيين، دون غيرهم، وهي: ((التجربة الفلسطينية في صراعها مع المشروع

<sup>1</sup> عهد كمال شلغين، الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع (دراسة في الفكر العربي المعاصر)، منشورات الهيئة العام السورية للكتاب، 2014، ص: 28.

<sup>2</sup> فيصل دراج السياسة والثقافة والهوية، ص: 27، نقلاً عن: عبد الفتاح القلقيلي وأحمد أبو غوش، الهوية الوطنية الفلسطينية، خصوصية التشكل وإطار الناظم، بديل، المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، بيت لحم فلسطين، 2012، ص: 19.

الاستعماري الاستيطاني الصهيوني<sup>1</sup>، والتي أكسبت الهوية الفلسطينية عبر مراحل تاريخية تكوينها، وأقر بخصوصيتها، وتفردها المغاير عن كل الهويات، تمثيلاً لذلك، يوضح "فيصل دراج" خصوصية الهوية الفلسطينية، واختلافها عن غيرها، بقوله: ((.. تتوزع اللغة العربية على الفلسطيني وعلى العربي غير الفلسطيني، دون أن يعني أنهما يتقاسمان تجربة واحدة وهوية واحدة، وذلك انطلاقاً من قاعدة بسيطة صاغها سقراط تقول: اعرف نفسك. فالعربي العادي يعرف نفسه ببلده وعلمه وأرضه وعلاقات القرابة التي تشده إلى غيره، خلافاً للفلسطيني الذي توزع على أكثر من بلد وأرض، وانتشر أقرباؤه في جميع أنحاء العالم.))<sup>2</sup>، فالفلسطيني أضحى يعرف بالنكبة، والمقاومة والشتات.... تلكم هي علاقات جدلية تاريخية، مترابطة، ومتحركة انبثقت منها الهوية الفلسطينية وهذا الوجود التاريخي يجعلها في حالة مستمر في الزمن قابلة للإضافة من النكبة، إلى النكسة إلى المقاومة، إلى الشتات، إلى الانتفاضة، إلى حلم العودة.... فالتجربة التاريخية هي التي طغت على الهوية الفلسطينية، وهي لا تعرف إلا من خلالها.

بهذا، ومن أجل فهم مفهوم الهوية الفلسطينية على نحو من التفرد الذي يصادق عليه الشرط التاريخي، يتوجه البحث إلى التجربة المعاشة، أو الظل المتواري خلف خصوصيته التي ثورت المفهوم في قلب التحديتات، وأحييت فيه التجاوز، والاختلاف فترعرع، ونمى ضمن صيرورة كفاح طويلة هيأته أن يغدو مفهوماً إشكالياً؛ أو بمعنى آخر سؤالاً متجدداً مفتوحاً على العديد من أسئلة الهوية، لا ليحددها في جوهرها، ولكن ليبحث الأجيال على مواصلة طرح التساؤلات حولها حتى لا يخرس صوتها، وصوت الفلسطينيين. ففي أي شرط تاريخي نشأ سؤال الهوية الفلسطينية؟

<sup>1</sup> ينظر: المرجع نفسه، ص: ن.

<sup>2</sup> فيصل دراج السياسة والثقافة والهوية، ص: 27، نقلاً عن: عبد الفتاح القليلي وأحمد أبو غوش، الهوية الوطنية الفلسطينية، خصوصية التشكل وإطار الناظم، ص: 19.

انطلاقاً من هذا السؤال، فإن تعقب مفهوم الهوية الفلسطينية يتم في اختلافه؛ أي في سبيل تمايزه، وتفرد الذي انطلق من تفعيل تجربة معاشة تتقرب عن المفهوم في الذاكرة المجروحة، تشهد له بوجوده المشروط بالتصادم مع الآخر النقيض الصهيوني، الذي ينزع إلى فرض هيمنة تحاول أن تنزلق بالهوية الفلسطينية إلى التذويب، إلا أن المفهوم الذي يسكنه الاختلاف يمسك نفسه عن الانصياع، والخضوع، ويتحدى الأقول، والموت، ليتناسخ في تعددية تحفظ له وجوده المرهون بمواجهة الآخر، وإلزامه على الاعتراف بالغيرية كحق مشروع، يدفع به إلى الاستمرارية من موضع التآزم إلى موضع الدفاع ((وهل الهوية شيء آخر غير رد الفعل ضد الآخر، ونزوعاً حالماً لتأكيد الأنا بصورة أقوى وأرحب))<sup>1</sup>، من تلك الصورة الضيقة التي أوقعه الآخر فيها، وأراد له مساراً هامشياً يفقد فيه كل مميزات هويته، فكانت ردّة فعل مضادة تنتفض فيها الأنا الفلسطينية على كل أشكال الإلغاء، دفاعاً عن هويتها في صراع مرير خاضته في مواجهة الآخر الصهيوني، صراعاً يشهد على الأصل المرجعي، أو الشرط التاريخي الذي انبثق منه مفهوم الهوية الفلسطينية، وتشكل ضمنه مفهوماً إشكالياً.

إن النكبة، والمقاومة، والشتات...تعد لحظات تاريخية فارقة في خصوصية تشكيل واستمرارية الهوية الفلسطينية، وهي تراكم تآزمي ضيق على الشعب الفلسطيني، واستنزف واقعه وأرضه، وتاريخه....بفعل وجود غير شرعي للصهاينة على أرض فلسطين، لذا يكون ربط الهوية الفلسطينية بالمعاناة التاريخية: (الصدمة، والفاجعة، والمقاومة، والشتات،.....)، هو مفتاح فهمها<sup>2</sup>، في ظل شرط استعماري (مواجهة المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني) من أجل ذلك ((تتمثل خصوصية الهوية الفلسطينية في أن تبلورها ارتبط بمواجهة نكبة تعرضوا لها من طرف غزو أجنبي

<sup>1</sup> محمد عابد الجابري، مسألة الهوية العربية والإسلام... والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 1995، ص:27.

<sup>2</sup> فيصل دراج، في الهوية الثقافية الفلسطينية، ص: 28.

استهدفهم في وجودهم الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي (الحضاري والإنساني بشكل عام). وعليه، يصح القول إن هذه الهوية تشكلت في خضم صراع مرير خاضه هذا الشعب لإثبات وجوده في هذه المعركة القاسية وغير المتكافئة<sup>1</sup>، والتي أخذت من الشعب الفلسطيني حجما كبيرا غير متناهي من المعاناة والمآسي... لإثبات هويته الفلسطينية، وكل ذلك في سبيل سعيه للدفاع عن حق وجوده على أرضه.

ضمن هذا الارتباط تتحدّد علاقة جدلية بين الهوية الفلسطينية والنكبة، إذ تُروى حكاية الهوية الفلسطينية من عمق التاريخ إلى حاضر متأزم يأبى أن يتواصل مع تاريخه إلا في ظل إعادة بعثه، واسترجاعه حتى تتسيّد الهوية الفلسطينية على أرضها؛ فإذا كانت بداية الهوية الفلسطينية قد ترعرعت منذ زمن طويل في ظل دولة إسلامية متعاقبة، إلا أنّ عام 1948 مثّل بداية مختلفة<sup>2</sup>، حيث أحدث صدمة أوقعت الهوية الفلسطينية في نفق تأزمي؛ حين ((تعرضت الهوية الفلسطينية لحمولات إبادة جماعية في العصر الحديث، لم يشهد لها القرن العشرون مثيلا، فقد تعرض الفلسطينيون لمذابح بشعة ارتكبتها الإسرائيليون، لم تكن محصورة في مذابح دير ياسين وقبية وتحالين والدوايمة والطنطورية وكفر قاسم وصبرا وشاتيلا والخليل وجنين ورفح، بل سبقتها مئات المذابح، إضافة إلى تدمير آلاف المنازل واقتلاع الأشجار وقتل الأطفال والشيوخ والنساء، واقتلاع وتهجير مليون إنسان فلسطيني عام 1948، ورميهم إلى المنفى))<sup>3</sup>، ذلك هو السياق التاريخي الذي أحدث تحولا انقلابيا في مسيرة الهوية الفلسطينية، لذا؛ ف((ما كان قائما في فلسطين قبل النكبة احتوى على شعب ينتمي إلى حضارة تسعى لدولة مستقلة أسوة

<sup>1</sup> عبد الفتاح القلقيلي وأحمد أبو غوش، الهوية الوطنية الفلسطينية، خصوصية التشكل وإطار الناظم، ص: 20.

<sup>2</sup> ينظر: شفيق ناظم الغبرا، تحديات الهوية الفلسطينية في عالم متغيّر، ضمن كتاب: (التجمعات الفلسطينية وتمثالاتها ومستقبل القضية الفلسطينية)، المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الاستراتيجية، مسارات، رام الله فلسطين، ط1، 2013، ص: 18.

<sup>3</sup> عز الدين المناصرة، الهويات والتعددية اللغوية (قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن)، الصايل للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2013، ص: 13.

ببقية العرب في زمن ((سيطرة الاستعمار))، وما وقع في النكبة عام 48 اقلع الحلم، وشرّد الشعب الذي أراد<sup>1</sup>، ومن ثمة تأخذنا مصاحبة هذا الفعل التاريخي، وعلاقته بالهوية الفلسطينية بعيدا عما اعتدنا أن نعرف من فظاعة الأحداث، والاضطهاد في الحروب، بفعل الإبادة، والتطهير العرقي الذي مُرس على الشعب الفلسطيني من قبل الصهاينة.

أحدث هذا الحدث التاريخي شرخا عميقا في المجتمع الفلسطيني، حيث أيقظ الشعور بالهوية لدى الفلسطيني في مواجهة التحدي الصهيوني الذي أراد وأدّها، فأضحى تثوير أسئلة على شاكلة: من هو الفلسطيني؟ ومن هي فلسطين؟ وما معنى أن تكون فلسطينيا؟... تَوَرَّق الفلسطيني، وتوقظ مضجعه، وتشغل فكره... بهذا الارتباك تحولت الهوية الفلسطينية من الإمكانية المجردة، إلى الوجود التاريخي، ((فسؤال الهوية يردّ إلى شرط التاريخ، بمعنى مزدوج يردّ إليه في تاريخية الشرط الذي أيقظ السؤال، من حيث هو أثر لمواجهة مع آخر في سياق معين، ويحيل عليه في تاريخية المضامين التي تنشئ الهوية الفاعلة، ومن دون وعي التاريخ تتحول الهوية إلى شكل ساكن))<sup>2</sup>، ليغدو الوعي التاريخي بتجذر الهوية الفلسطينية حجة قوية في مواجهة الآخر الصهيوني، وإسعافا يستندرك تشرذم الهوية.

أخذت الهوية الفلسطينية وضعها أمام النكبة، والشتات، والافتلاع، والتهجير على درب المقاومة في مواجهة الآخر الصهيوني، لتشكل علاقة استلزام تنتظم داخلها هوية فلسطينية ((نضالية بتأكيد الوجود و بالتالي الحقوق، أي بما يتجاوز ضرورات تمييز الذات عن الآخر كما هو الحال لدى الشعوب الأخرى))<sup>3</sup>، ولأنها هوية كفاحية تحريرية اشتدّ حضورها ليقاوم العبث المسعور الذي لحق بالشعب الفلسطيني على أرضه

<sup>1</sup> شفيق ناظم الغبرا، تحديات الهوية الفلسطينية في عالم متغير، ص:18.

<sup>2</sup> فيصل دراج، في الهوية الثقافية الفلسطينية، ص: 25.

<sup>3</sup> القلبلي عبد الفتاح، وأبو غوش، الهوية الوطنية الفلسطينية، خصوصية التشكل والإطار الناظم، ص:14.

التاريخية، من ذبح، وتتكيل واغتصاب، وتهجير، ونهب، وتدمير...؛ فبعد إعلان قيام دولة إسرائيل 1948، شرعت تمارس العنف في كافة صورته، وأنواعه، ضد الفلسطيني صاحب الحق، والأرض، وعملت على إنكار الهوية الفلسطينية، بل أنكرت حتى وجود الشعب الفلسطيني على أرضه، وصوّرت للعالم منذ نهاية القرن التاسع عشر، بكلمات إسرائيل زانغويل - أرض بلا شعب ويجب أن تعطى للشعب الذي ليس له أرض<sup>1</sup>، فما كان على الشعب الفلسطيني سوى التمسك بالمقاومة كحل وحيد للمأساة الفلسطينية، هكذا ((تتم قراءة تكوّن الهوية الفلسطينية عبر قراءة الوجود الفلسطيني المهدّد الذي عصفت به النكبة وأجواؤها العنيفة(من اغتصاب الأرض وتغيير اسمها، وطرد الناس وتشظية بنياتهم الاجتماعية، وكسر وحدة الثقافة)، حيث يتم متابعة معاناة اللجوء وعنفيته في الجغرافيات الفلسطينية المتذررة التي ظهرت بعد النكبة.))<sup>2</sup>، لتتأسس بعد ذلك سردية أخرى، لا تقل خطراً عن سردية النكبة، والمقاومة في فهم الهوية الفلسطينية، وهي سردية الشتات الفلسطيني، من هنا يمكن أن يبرز البحث سؤالاً مهماً: إذا كانت الهوية الفلسطينية قد اقترنت بالشتات، فما الذي يمكن أن تميز به عن غيرها من تجارب الشتات الأخرى؟ أو إذا كان الشتات قد أدخل الهوية الفلسطينية في مراحل خطيرة تهدّد الوجود الفلسطيني بتشظيه، وتشرده في غير مكان من هذا العالم، فكيف يمكن أن نتعرف على هوية قلقة بين الحضور الفلسطيني والتأويل الصهيوني؟

بداية، واتكاء على ما سبق، يمكن التأكيد على أن ((الهوية الفلسطينية تعيش أزمة (وجود)) لا ((فقدان))، لأن تجربتها التاريخية لم تستنفد كافة إمكاناتها المنطقية.))<sup>3</sup>، ولأن

---

<sup>1</sup> حسام الخطيب، "عربك" وبعض إضاءة لإشكالية الهوية الفلسطينية، مجلة الآداب الأجنبية، ع: 58، شتاء وربيع 1986، اتحاد الكتاب العرب، ص: 8.

<sup>2</sup> عبد الرحيم الشيخ، الهوية الثقافية الفلسطينية (المثال) و(التمثيل) و(التمثال)، ضمن كتاب (التجمعات الفلسطينية وتمثالاتها ومستقبل القضية الفلسطينية)، المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الاستراتيجية، ط1، ماي 2013، مسارات، رام الله، فلسطين، ص: 77.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص: 78.

المقاومة الفلسطينية لازالت صامدة، وواقفة في مواجهة المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني، وخير مثال على ذلك، هو طبيعة الشتات الفلسطيني الذي فرض نفسه باختلافه عن باقي تجارب الشتات في العالم، كونه يرتهن إلى مبدأ النفي الكلي من الوجود؛ أي أن هدف الصهيونية كان، ولأزال هو تدمير بنية الوجود على الأرض، والقضاء على أية محاولة للعودة<sup>1</sup>، باقتلاع، وتهجير، وطرده الشعب الفلسطيني من أرضه، وما نكبة عام 1948 سوى ((محطة في عملية (تهجير) طويلة جدا، بدأت في أواخر القرن الماضي، ومازالت جارية حتى يومنا هذا))<sup>2</sup>، غايتها هي إفراغ الأرض من سكانها الأصليين، وإحلال محلهم اليهود، من هنا نتج ما يسمى بالشتات الفلسطيني، أو معضلة الشعب الفلسطيني، وهو وجود الفلسطينيين في حالة طارئة؛ إذ توزع الشعب الفلسطيني في غير مكان؛ بين عرب إسرائيل الذين لازالوا يكافحون من أجل الحفاظ على هويتهم العربية، و"غزة" وما تعانيه من عزلة خانقة فرضها الصهيوني عليها، وسكان الضفة الغربية في صدام، ونضال يومي مع الاحتلال، هذا بالنسبة للذين بقوا في الداخل، أما الذين هجروا، ونفوا خارج فلسطين فوضعيتهم تختلف من بلد إلى بلد، ومن ملجأ إلى ملجأ، بين تمزق وتهميش... مما جعل الأمر في غاية التعقيد على الفلسطينيين؛ ((الفلسطيني لا حق له في وطنه الأم كونه ينتمي إلى الشتات، ولا حق له في أوطان الشتات، كونه ينتمي إلى فلسطين)).<sup>3</sup> بهذا التشرذم لا توجد وضعية فلسطينية واحدة، وشاملة بين الشعب الواحد، ما نتج عن ذلك هوية الشتات الفلسطيني، لتتغلغل بذلك حادثة النكبة 1948 في أرواح الفلسطينيين، ويومياتهم، ضمن فاجعة الشتات، والاقتل... هذا ما جعل العلة التاريخية/النكبة لها وجود مستمر في حاضر الفلسطينيين، مثلما كان في ماضيه.

<sup>1</sup> ينظر: رامي أبو شهاب، في الممر الأخير (سردية الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالي)، دار فارس للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2017، ص:11.

<sup>2</sup> شريف كناعنة، الشتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير؟، مطبعة أبو غوش، البيرة، فلسطين، 2000، ص:111.

<sup>3</sup> رامي أبو شهاب، في الممر الأخير (سردية الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالي)، ص:13.

إن وجود الصهاينة على أرض فلسطين، كان وجودا كولونياليا منذ البداية، فقد مهدوا لوجودهم بطريقة مريبة، وممنهجة، متكئون على الدعم الذي لقوه من القوى الامبريالية المتمثلة في بريطانيا، وفرنسا..، وفي عدوانية شديدة الفتك بالفلسطيني، حشدوا كل الوسائل لتغيب صوت الفلسطينيين احتلالا، وتشريدا، واقتلاعا، وتهجيرا، وهذا التغيب كان شرطا ضروريا لإنشاء المشروع الصهيوني/دولة إسرائيل على أرض فلسطين، ولكي يبرروا للعالم الصامت المتخاذل وجودهم على أرض فلسطين، جندوا سرديّة صهيونية امبريالية، مكتوبة من وجهة نظرهم، ومليئة بالتزوير، والكذب، وتشويه الحقائق، صدّقها كل من له مصلحة في منطقة فلسطين؛ إذ ((ينطلق السرد الصهيوني من افتراض سبق للنص الاستشراقي أن صاغه بأشكال مختلفة، من ضمن المشروع التوسعي الامبريالي، من لا مارتين - الذي وصف في كتابه "رحلة إلى الشرق" فلسطين على أنها ليست بلادا، ورأى أرضها مكانا عظيما لمشروع كولونيالي تقوم به فرنسا- إلى روايات جورج إليوت وجوزاف كونراد، مرورا بنصوص ادموند ويلسون ونيبور... وصولا إلى مقولة إسرائيل زانغويل في نهاية القرن التاسع عشر: "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". هذا المبنى الذي سوّغ الغزو، وجعله ممكنا، هو محصلة النفي الدائم للطبيعة الإنسانية لسكان الأرض الأصليين))<sup>1</sup>، هكذا بُني السرد الصهيوني على تأويل حضور الفلسطينيين في أرضهم حضورا مغيبا؛ إذ امتثلت سرديّة استعمارية، مهدت لوجود الصهاينة على أرض فلسطين، تمهيدا تأسست ضمنه حكاية غياب فلسطين منذ أزيد من قرنين.

أمام هذا التغيب الصهيوني استدرك الفلسطينيون زمن الإخراس، والانمحاء، بإنجاز سرديّة مضادة مقاومة لفعل التأويل الاستعماري الصهيوني- أو غياب فلسطين- سرديّة بديلة تقف على أرض المقاومة، وتروي حكاية النكبة من وجهة نظر الضحية؛ وتعليل ذلك ((أن سرديّة المحتل أو المستعمر غالبا ما تكون ملفقة من الميثولوجيا والتاريخ، بعكس

<sup>1</sup> الياس خوري، سؤال النكبة: الصراع بين الحاضر والتأويل، إدوارد سعيد و(مسألة فلسطين)، مجلة الكارمل، ع:

78، جانفي 2004، ص: 49،50.

سردية الضحية التي هي من لحم ودم ومن صميم التاريخ غير المشوب بأي خرافة.<sup>1</sup> فيتجاوز الفلسطيني بذلك السردية الصهيونية المنبثقة من إرادة تحريف الواقع لسمعنا صوت المقموعين، والمظلومين من عمق المأساة....، ويعيد بذلك مسألة الصراع الفلسطيني الصهيوني إلى محاكمة تاريخية سردية عادلة، تتصت لصوته الذي أخرسه الصهيوني، وشوّهه، بذلك يتمركز الصراع ((بين الحضور والتأويل؛ بكلام آخر يجب أن نفهم الصراع بين الفلسطينيين والصهيونية في وصفه صراعا بين الحضور والتأويل، التأويل الصهيوني يقوم بتغييب الحضور الفلسطيني في المبنى السردى، قبل أن يجهز عليه عسكريا في الحرب، السؤال هو كيف يستطيع الحضور اكتساب حكايته وسردها، من أجل أن ينجح في مقاومة التأويل.<sup>2</sup> من أجل ذلك يتجلى الحضور الفلسطيني القلق على هويته، عبر سردية فلسطينية مضادة مقاومة لفعل التأويل الصهيوني المزيّف، تسعى إلى تصحيحه بإعادة وضعه ضمن إطار السرد، والمتخيّل؛ لأن للسرد مآرب أخرى، قد يلتفت حول الواقع والتاريخ بحثا عن ما يجب أن يكون، و ما يجب أن يروى، إذ يتيح للقارئ التعرف على أزمنة تاريخية فارقة في الخصوصية، تروي ما قد أسقطه التاريخ الرسمي، وتحرّر الواقع من الزيف والالتباسات، هذا الموقع الدفاعي التاريخي لسردية الفلسطينية المقترن بالمقاومة المضادة لكل أشكال العنف، والتتكيل الصهيوني التي مورست لأجل محو فكرة فلسطين من التاريخ، وعلى أرضها، ما استحث البحث إلى الامتداد في طرح سؤال الهوية، ولكن هذه المرة من ناحية السرد، فما هو دور السرد في تجلي الهوية؟، وما علاقة الهوية بالسرد؟ وكيف امتثلت الهوية سرديا؟.

3/الهوية السردية:

<sup>1</sup>خيرى منصور، حروب السرديات، 17، مارس، 2017، موقع القدس العربي، <https://www.alquds.co.uk>

ت إ: 2021/08/7، سا: 11.

<sup>2</sup>البياس خوري، سؤال النكبة: الصراع بين الحاضر والتأويل، إدوارد سعيد و(مسألة فلسطين)، ص: 48.

من منطلق أن ((السردي...هو تجربة زمنية مدركة من خلال فعل التمثيل))<sup>1</sup>، فإن علاقة السردي<sup>2</sup> بالهوية تُفسر ضمن معضلة الزمن، أو التباسات الزمن بعبارة بول ريكو Paul Ricoeur، الذي احتواه (الزمن) السردي وساطة، وتفاعلا، واتصالا؛ إذ لا يمكن صياغة الزمن من خلال تمثيل ظاهراتي مباشر، بل لابد له من وساطة تخرجه من التجريد الذي استغلق فيه وترفع عنه أي معرفة مباشرة؛ ((فالزمن لا يمكن أن يكون إلا محكيا، ولا وجود لزمن خارج تجربة إنسانية تعبر عن نفسها من خلال فعل ورد الفعل، أي يجب أن تكون منظمة في الممارسة الإنسانية لا خارجها. لذلك فالوجود الوحيد الممكن هو الوجود المشخص، أما التجريد فهو يشير إلى حالات افتراضية يتطلبها الإجراء المنهجي، إلا أنها لا تشكل حالة يقاس من خلالها الوجود الإنساني باعتباره بؤرة للتنوعات الثقافية))<sup>3</sup>، لهذا تسلح السردي بوظيفة تمثيل التجربة الإنسانية، حتى يرتقي بالزمن نحو صياغة تصويرية تمنح له وجها مشخصا ملموسا، يتشكل ضمنها زمنا محددا، ليغدو السردي، وبتوسطه بين التجربة الإنسانية، والزمن، زمنا إنسانيا.

باحتماء السردي على الزمن، تكون التجربة الإنسانية -وهي تجربة زمنية- في مستوى من إعادة استيعاب سردي خيالي، أو تاريخي؛ فهي لا تكشف عن نفسها إلا من خلال تصوير سردي يستوعبها في بعديها التاريخي، والمتخيل...، فيعيد السردي تحبيكها، بفعل استعادة الماضي بإعادة صياغته وفق صياغة سردية (الحبكة) تحتوي على أحداث

---

<sup>1</sup> عبد الله البريمي، فلسفة التأليف بين الأدب والتاريخ هرمينوسيا الزمن والمحكي عند بول ريكور، ضمن كتاب (فلسفة السردي المنطلقات والمشاريع)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014، ص:84.

<sup>2</sup> ((السردي هنا يتجاوز دلالاته التقنية التي تحصره في أشكال السردي التخيلي المعهودة كالرواية والقصة والملحمة، ليعبر عن مفهوم انطولوجي أوسع مما ينطوي عليه من فعالية تحكم كل ما يحدث في الزمان، ويتعاقب فيه وينتظم داخله وفق صيغ معينة. والسردي -بهذا المعنى- ليس هو قرين الوجود فحسب، بل هو الشرط الضروري لهذا الوجود، وذلك من حيث هو تعبير عن شكل الوجود في العالم، وطريقة التوضع في الزمان)) القول لنادر كاظم، الهوية والسردي (دراسات في النظرية والنقد الثقافي)، دار الفراشة لنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 2016، ص: 7.

<sup>3</sup> سعيد بنكراد، مات ريكور عاشت التأويلية، موقع الرأي: <https://alrai.com/article/106901>، ت ن: 10، 6، 2005. ت إ: 7، 8، 2021، سا: 5:00.

متنافرة في ماضيها التاريخي ومنسجمة، ومنسقة في حاضرها النصي ضمن مسار زمني مترابط، يحقق دلالة ما ((وبما أن التجربة البشرية -حسب بول ريكور- تجربة قائمة في الزمن وبالزمن، فإنها لا تتميز ولا تتمفصل ولا تتضح إلا بالسرد أي حين تصاغ في حبكة معينة، ولولا هذه لكانت هذه التجربة فاقدة للشكل بكفاء وخرساء؛ لأن ما تحدثه الحبكة هو أنها تسعفنا على توضيح تلك التجربة الحيّة، وعلى تشخيص تجربتنا الزمنية المضطربة، من خلال السرد التخيلي والتاريخي)).<sup>1</sup> وفق هذه الأطروحة، فإن السرد ما هو إلا زما محكيا عن تجربة إنسانية حيّة.

وإذا تم للتجربة الإنسانية أن تتشكل، وتحيا سرديًا، فإنها تخرج من دائرة التحقق المجرد بفضل تحبيكها، الذي يدخلها إلى دائرة التحقق المجسد الملموس؛ لـ((أن الطابع المشترك للتجربة الإنسانية المميز والمتفصل والموضح من لدن فعل الحكي في جميع أشكاله، إنما هو الطابع الزمني فكل ما نحكيه يحدث في الزمن، ويستغرق زما ويجري زمنيا. وما يحدث في الزمن يمكن أن يحكى، ويمكن لأي سيرورة زمنية ألا يعترف لها بهذه الصفة إلا بقدر ما هي قابلة للحكي بطريقة أو بأخرى))<sup>2</sup>، ولأن الحبكة لها أن تتحت الزمن -بخبراته الإنسانية- وفق مسارات مختلفة، وأوجه متعدّدة، تؤدي إلى حدوث فعل تحبيك، والذي يتولى تأليف القصة بعيدا عن التتابع الكورونولوجي<sup>3</sup> للأحداث التي تكون متنافرة، ومتباينة في الزمن، يقودها السرد نحو تنسيق مترابط ومتلاحم؛ ((وذلك من خلال تفسير الوقائع الموضوعية في نسق كورونولوجي بوصفها مكونات ضمن نوع من أنواع معينة من بنيات الحبكة، وهو ما يفرض على هذه الوقائع وضعها غير مستقر، بل متقلبا بتقلب نوع الحبكة التي تعرض فيها الأحداث. فالتاريخ قد يظهر بصورة تراجيدية أو بطولية أو كوميدية أو هجائية. وهذا يعني أن ما يعد تراجيديا في حبكة ما قد ينقلب بطوليا

<sup>1</sup> نادر كاظم، الهوية والسرد (دراسات في النظرية والنقد الثقافي)، ص: 128.

<sup>2</sup> بول ريكور، من النصّ إلى الفعل (أبحاث التأويل)، ترجمة: محمد برادة وحسن بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 2003، ص: 12.

<sup>3</sup> نادر كاظم، الهوية والسرد (دراسات في النظرية والنقد الثقافي)، ص: 130.

أو كوميديا في حبكة أخرى. لنأخذ تاريخ 1948، هذا التاريخ يعرض في السردية الإسرائيلية في حبكة بطولية كتاريخ لتأسيس الدولة والانتصار. فيما هو في السردية العربية معروض في حبكة تراجيدية مأساوية كتاريخ لضياع الأرض والهزيمة أو النكبة<sup>1</sup>، هكذا تتباين الحكبات في سرديات الأمم بمظاهر متعدّدة ومتعارضة، من سرديات كولونيالية إلى سرديات مضادّة، والتي يتجلى فيها سرد الذاكرة، والمقاومة، والاقْتلاع، والشّتات..، تفرض هذه السرديات وجودا تاريخيا متخيلا، تعتمد فيه الجماعة في تجلي وجودها على الوساطة السردية التي تقوم على التاريخ، والخيال معا، محوِّلة قصص الحياة إلى مرويات تاريخية وخيالية<sup>2</sup> محقّقة بذلك هوية سردية؛ ((أي ذلك النوع من الهوية الذي يكتسبه الناس من خلال وساطة الوظيفة السردية))<sup>3</sup>، تؤدي إلى تمثيل الجماعات، وهي تبحث عن سرد تاريخها، لحماية هويتها من النسيان، والنكران، ولتحقق تماسكها، واستمرارها، بهذا تتجذر كفاءة السرد في القبض على الزمن، وطرحه، بفعل تحبيك التاريخ الذي يؤدي إلى تكوين هويّة سرديّة أفرادا، وجماعات، وهي تبقى ما بقي سردها التاريخي، والمتخيّل قائما.

تعدّ الهويّة نتاج السرد، وهي مرهونة بوجوده؛ أي كلما كان السرد فاعلا في الزمن كانت الهويّة علامة على حضور الجماعة حضورا داعما لوجودها، وتماسكها، وأكثر تحكما في مصائرهما، حتى أضحي الاستغراق في السرد، والحكايات تاريخهما الفعلي<sup>4</sup>، وهي غاية السرد التي يتكفل بها لإيصال الجماعة إليها؛ ((وبحسب بول ريكور فإن السرد يكون الهويّة، ويعيد صياغتها بالطريقة ذاتها التي يقوم فيها "التحبيك" بتشكيل التاريخ

<sup>1</sup>المرجع نفسه، ص: ن.

<sup>2</sup> ينظر: بول ريكور، الهوية السردية، ضمن كتاب: (الوجود والزمان والسرد فلسفة بول ريكور)، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1999، ص: 252.

<sup>3</sup>المرجع نفسه، ص: 251.

<sup>4</sup> بول ريكور، الزمان والسرد، (الزمان المروي) الجزء: 3، ترجمة: سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط: 1، 2006، ص: 372.

وإعادة صياغته. ومن هذا المنظور فالهوية سردية؛ لأن السرد يجمع عناصر الهوية المتنافرة والمتباينة في وحدة منسجمة وذات حبكة مترابطة أيضا. وهي سردية لأن كل هذه العناصر المؤلفة للهوية اجتمعت هكذا لا بحكم الضرورة -لا المنطقية ولا الطبيعية- وإنما بفعل المصادفة والاتفاق الضمني بين الجماعات. فهذه العناصر كانت مختلفة وربما متعارضة أو غير موجودة أساسا وإنما جرى اختلاقتها بحكم حاجة الناس إلى "التخيل" أنفسهم كـ "أمة" لها حكايتها وسردها التاريخي والثقافي الخاص<sup>1</sup>). من هذه الرؤية تحسم علاقة الهوية بالسرد في علاقة تكاملية تفاعلية، تنتظم فيها الهوية سردا، وينتظم فيها السرد تأويلا، لرؤية الحياة، والإنسان، والعالم.

باقتران الهوية بالسرد، يزداد سؤال الهوية حدّة بخاصة عندما يتعلق الأمر بالتأويل، إذ يحمل التأويل أهمية كبرى تكون مصدرا، وسندا لفهم سؤال الهوية في السرد؛ إنه الإمكان الذي يمتطيه البحث لفهم النصوص باعتبارها تمثيلا للحياة، لذا يمكن للبحث أن يوسّع في أسئلته بحثا في علائقية المفاهيم، ويلح على سؤال بالغ في الأهمية، وهو: ما علاقة التأويل بالسرد؟

### 4/التأويل والسرد:

يجد البحث بدايته في تتبع العلاقات التي تجمع بين مفاهيمه (الهوية، والسرد، والتأويل) -مثلما سبق وأن ذكر أعلاه- إذ من شأن التحقق من علائقية المفاهيم أن يرفع الالتباسات التي قد تكون عالقة بها، ويبين سبيل القراءة بعيدا عن الارتباكات، التي قد تؤدي إلى التشويش في فهمها؛ فإذا كانت الهوية هي إشكالية النص الروائي "الملهاة الفلسطينية"<sup>\*</sup> الذي يتقصد البحث إلى قراءته في ضوء التأويل، فإن السرد هو الأرضية التي

<sup>1</sup> نادر كاظم، الهوية والسرد (دراسات في النظرية والنقد الثقافي)، ص: 131.

\* هي مجموعة من الروايات للكاتب الفلسطيني إبراهيم نصر الله، أطلق عليها اسم "الملهاة الفلسطينية" إلا أن لكل رواية عنوانها الفرعي، وهي حسب تسلسل تاريخ إصدارها: "مجرد 2 فقط" صدرت 1992 كرواية مستقلة، وتم ضمها إلى "الملهاة الفلسطينية" في عام 2014، "طيور الحذر" صدرت عام 1996، "طفل المحاة" صدرت عام 2000، "زيتون الشوارع" صدرت عام 2001، "أعراس آمنة" صدرت عام 2004، "تحت ضحى" الشمس صدرت

احتوت هذه الإشكالية في أبعادها التاريخية، والواقعية، والتخييلية... وكان لها عالما ممكنا، يؤسس، ويبحث لها عن إجابات عبر اللغة، والتمثيل، لـ((أن أي عمل ليس مجرد جواب يرد به على سؤال سابق، بل هو بدوره منبع أسئلة جديدة أيضا))<sup>1</sup>، وعليه يكون التأويل هو الرؤية المنهجية التي تؤدي إلى الإنصات إلى النص، واستنتاج فحوى دلالاته ليقع الحوار تواصلًا، وتفاعلاً، لأن التأويل هو ((دفع للسؤال إلى عمق النص للبحث عن إجاباته الممكنة))<sup>2</sup>، من أجل ذلك، على البحث أن يعمق سؤال التأويل ليس من زاوية نشأته، وتطوره بل من زاوية ممارسته، وفعالياته القرائية داخل النص.

هكذا يطرح سؤال التأويل على ذاته؛ بمقاربتة، والبحث في فعالياته الهرمينوطيقية، فكيف تحول إلى منبع إجراءات في قراءة النصوص؟، وماهي الآفاق التي يفتحها التأويل للنص الأدبي؟، وماذا ينتظر النص الأدبي من التأويل؟

يحيل الاستقصاء عن علاقة التأويل بالسرد، وممكناته القرائية -التي تتمحور أساساً حول النص، والقارئ، والفهم-، إلى البحث في علاقة القارئ بالنص، لتفحصها بتجلي التأويل -كإجراء مفتوح على القراءة الإبداعية للنص-، وهي علاقة جدلية قوامها السؤال، والجواب؛ فإذا كان النص ((يأتي كإجابة عن سؤال وجودي أو معرفي معين يمثل سياق إنتاجه))<sup>3</sup>، فإن القارئ هو الذي يحقق كينونة النص باستيعابه لمنطقه قراءة وتأييلاً، في علاقة تفاعلية تبادلية تواصلية غايتها تحقيق فهم ما للنص، باعتبار الفهم نتيجة لانصهار أفق القارئ، بأفق النص.

---

عام 2004، "زمن الخيول البيضاء" صدرت عام 2007، "قناديل ملك الجليل" صدرت عام 2011، "أرواح الكريمنجارو" صدرت عام 2015، (ظلال المفاتيح، وسيرة عين، ودبابة تحت شجرة الميلاد) أو ما تسمى بثلاثية الأجراس، صدرت عام 2019، "طفولتي حتى الآن" صدرت 2022. أما رواية شمس اليوم الثامن صدرت 2023.

<sup>1</sup> بول ريكور، الزمان والسرد، (الزمان المروي) ج 3، ص: 258.

<sup>2</sup> عبد الله بريمي، السيرورة التأويلية في هرمينوسيا هانس جورج غادامير وبول ريكور، ص139.

<sup>3</sup> عبد الله لحميمة، الرواية المغاربية المعاصرة، (دراسة تأويلية)، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سورية، 1014.ص: 83/82.

تتكشف حقيقة النص الأدبي من خلال بنية لغوية متخيلة، تستوعب الواقع، أو المعيش اليومي بأبعاده السياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والدينيّة... أي التجربة الإنسانيّة بشكلها العميق، والعام ((بمعنى أنه -النص- يقيم معنى ويؤسس مرجعية، أي يحيل على العالم الخارجي بما فيه من أشياء وأشخاص ووضعيّات وما إلى ذلك)).<sup>1</sup> إنه يعقد عقدا -بينه وبين الواقع- تضمحل من خلاله كل المسافات التي تربطه بإشكالات الواقع المعيش، حتى يغدو هو ذاته واقعا متخيلا، يتفرد بخصوصيّة طرحه، ويكون امتدادا للمختلف؛ حيث أن المبدع يشتغل على اللّغة، والمتخيّل، لا على الأشياء، والوقائع، و بفعل إدراكه لواقعه الإشكالي المتحوّل، يشكّل العالم الواقعي له مصدرا قلقا لإنجاز سؤال النّص؛ لذا يعد تناول قضيّة ما هو الدافع إلى ثورة السؤال في ذاكرة المبدع<sup>2</sup>، والمنجز هو "عالم النّص"؛ ولأنّه عالم مختلف عن مصدر التشكيل "الواقع" فإنّه يدخل معه بالضرورة في علاقة تصادم قويّة، لكي يعيد صنعه، وتحويره إمّا بأن يؤكده، وإمّا بأن ينكره، فالعلاقة بين النّص/كعالم متخيّل، والواقع/كعالم حقيقيّ ستكون غير مفهومة ما لم يقلق النصّ علاقتنا بالواقع<sup>3</sup>، ويستحث فيه وجودا مختلفا يمتد إلى عمق إشكالاته وأزمات المعيش اليومي، في خضم هذه العلاقة الجدليّة لا يقوم النّص الأدبي بذاته، ولذاته، وإنّما من خلال مرجعية واقعية يتشكل ضمنها، و بها سؤالا نصيّا إشكاليّا يدعو إلى اقتفاء أثره من قبل قارئ، يحمله إلى عالم الممكن، والمحتمل.

انطلاقا من تثوير سؤال الواقع الذي يمارسه السرد، واستيعابه لمآزقه، وتأزمه، بواسطة لغة سردية تتفرد في إحداث توتر بين المعطى النصي الداخلي، والعالم الخارجي؛ فإنّ المعطى النصي هو بنيّة نصيّة، لسانیّة، جامدة، راکدة، معلقة بسكونها، لا ترضى

<sup>1</sup> محمد خرماش، النص الأدبي وإشكالية القراءة والتأويل، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، العدد 2010، رابط المقال:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/24361>

<sup>2</sup> ينظر: صدوق نور الدين، البداية في النّص الروائي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية سورية، ط1، 1994. ص9.

<sup>3</sup> ينظر: بول ريكور، من النّص إلى الفعل، ص13.

بغير قارئ نموذجي يفجر خصوبتها، وينتقل بها من حالة الوجود بالقوة، إلى وضعية التحقق التاريخي، المتمثلة في القراءة؛ فـ((عن طريق القراءة يعود الأدب للحياة، أي لميدان الوجود الفعلي و التآثري))<sup>1</sup>، وهو ميدان تغدو فيه ممارسة السرد تأويلا للإنسان، والوجود معا؛ فتسريد الحياة بوساطة اللغة فعل تأويلي بامتياز؛ ((بمعنى أن استعمال اللغة في حد ذاته تأويل لأنها تعبر عن حقيقة خارجية يتم إدراكها قبل التعبير عنها))<sup>2</sup>، وبالتعبير عن العالم الخارجي لغة، يتحقق السرد تأويلا للعالم الخارجي/الواقع، ضمن العالم الداخلي للنص الذي يستوعبه استيعابا لا تطابق فيه مع الواقع بل يتفرد في طرحه نحو عالم متخيّل من جهة، وتقريراً لمرجعياته من جهة ثانية، وكل ذلك من أجل فهم الحياة فهما أفضل، ويغدو التأويل هنا((وساطة بين الإنسان وفعله الذي يعاش بكيفية إبداعية))<sup>3</sup>.

هكذا يتخلق السرد ضمن سيرورة تأويلية تجمع بين العالم الواقعي بإشكالاته، وأزماته واللغة الإبداعية بإشاراتها، وإيحاءاتها، والمنتج هو عالم النص، أو"البنية الافتراضية" التي تتطلب قارئاً يكشف معناها، ويخرجها إلى الوجود؛ فـ((لقارئ هو الذي يتم إنجاز النص ويعطيه تحققه الفعلي.))<sup>4</sup>، وهذا الدور الذي أوكل للقارئ ما هو إلا إعادة ترهين النص ضمن علاقة جدلية تفاعلية قوامها النص، والقارئ تحقيقاً لدلالة ما.

انطلاقاً من هذا الفهم النقدي لحقيقة النص بأنه ليس معطى جاهزاً بل هو بناء يكتشفه القارئ في علاقة تفاعلية، فإن السؤال الذي يمكن أن يحظى بأهمية هنا هو: كيف يتم للقارئ بناء علاقته بالنص؟ أو كيف تحدث هذه العلاقة الجدلية؟ وإذا كان القارئ له دور التفعيل فما هو دور النص في بناء المعنى، وهو غاية كل قراءة؟

<sup>1</sup> بول ريكور، الزمان والسرد،(الزمان المروي) الجزء: 3، ص: 148.

<sup>2</sup> ينظر: محمد خرماش، فعل القراءة وإشكالية التلقي، مجلة علامات ع: 10، 1998. رابط المقال <http://saidbengrad.free.fr/al/n10/5.htm>

<sup>3</sup> حاتم الورفلي، بول ريكور الهوية والسرد، ص: 137.

<sup>4</sup> محمد خرماش، النص الأدبي وإشكالية القراءة والتأويل، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، ع: 10، 2010 رابط

المقال: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/24361>

تعد القراءة فعل تأويلي، وممارسة إنسانية<sup>1</sup> (( فرضتها تشعبات الوجود الإنساني))<sup>1</sup>، لغاية إحداث فهم الذات الإنسانية، وعلاقتها بالعالم، من أجل ذلك تتأسس القراءة على وجود طرفين (النص والقارئ) وتتحقق ضمن علاقة جدلية تواصلية تفاعلية ديناميّة، تنمو بين النص، والقارئ في حوارية متنامية ((تسمى استجابة جمالية؛ لأنها تثير قوى التخيل والإدراك لدى القارئ مع أنها تتبع من النص))<sup>2</sup>، الذي لا يحقق دلالاته إلا بمشاركة قارئ يولد معانيه في علاقته بالعالم<sup>3</sup>، انطلاقاً من استراتيجيات نصية *stratégies textuelles* يقترحها النص على القارئ، وتتمثل وظيفتها في مساندة وتوجيه القارئ في عملية التحقق الممكنة، أي في فهم النص وتأويله، بناء على ما تتيحه من فرص التعرف على إمكانات النص الدلالية التي تتخلق ضمن السجل النصي *le répertoire d texte* ، وهو الأفق المرجعي الذي يحيل عليه النص أثناء القراءة، أو هو ((المنطقة التي يلتقي فيها النص، والقارئ من أجل الشروع في التواصل))<sup>4</sup>.

إن التسليم بأن للنص الأدبي مرجعية، لا يعني أن النص هو انعكاس للواقع، أو ((وثيقة تسجل شيئاً له وجود فعلي، بل بوصفه إعادة صياغة واقع مصوغ بالفعل، مما يؤدي إلى ابتكار شيء لم يكن موجوداً من قبل))<sup>5</sup>؛ ذلك بإعادة امتصاص الواقع لغة، وتخيلًا، يُبلّغ بها النص قارئه عن رد فعل، وموقفه من الواقع الخارجي، أو بالأحرى يوفر النص للقارئ شروطاً ضرورية تسمح له ببناء رد الفعل هذا باعتباره المعنى الذي يقصده

<sup>1</sup> سعيد بنكراد، استراتيجيات التأويل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، ط1، 2011، ص: 6.

<sup>2</sup> فولفجانج إيسر، فعل القراءة نظرية في الاستجابة الجمالية، تر: عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص: 3.

<sup>3</sup> هيو سلفرمان، نصيات بين الهرمنيوطيقا، تر: حسن ناظم وعلى حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2002، ص: 123.

<sup>4</sup> روبرت هولب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، تر: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2000، ص: 17.

<sup>5</sup> فولفجانج إيسر، فعل القراءة نظرية في الاستجابة الجمالية، ص: 4.

النص<sup>1</sup>، وترجع عملية التفاعل هذه إلى ((كون النصّ الأدبي يحتوي مرجعيات خاصة به، ويسهم المتلقي في بناء هذه المرجعية عبر تمثله للمعنى، إن هذه المرجعيات ليست ذات منحى تاريخي أو واقعي، إنّما هي مرجعيات يخلقها النصّ))<sup>2</sup>، ويتكفل القارئ بتأويلها وفق مصاحبة النص، ومعاشرته على نحو من الإنصات لتوجيه استراتيجياته النصية في بناء المعنى؛ ((فلكي يتمكن النص من توجيه القارئ أثناء بنائه لرد فعل هذا النص على واقعه الخاص، فعليه أولاً أن يمنحه "الوضعية السياقية" التي تسمح له باستيعاب الواقع الخارجي الذي يتموقف النصّ منه، ويتحقق له ذلك بوساطة "السجل النصي". وعليه بعد ذلك أن يخطط "لاستراتيجية" معينة توجه القارئ أثناء بنائه للمعنى النصيّ باعتباره فهماً لموقف النصّ من محيطه الخارجي))<sup>3</sup>، وبناء على ذلك فإن للقارئ دوراً حاسماً في انجاز المعنى بمعونة النص.

إن القراءة التأويلية التي يتم تفعيلها من قبل القارئ أثناء لقائه بالنصّ لها -مثلاً- يقول امبرتو ايكو - ((التفعيل الدلالي لكل ما يود النص، من حيث كونه استراتيجية أن يقوله عبر تعاضد قارئه النموذجي))<sup>4</sup> ليساهم في تشييد المعنى، وإن كان تشييده لا يتم إلا بتفعيله للنص في ضوء بنية نصية تحفيزية، إلا أن العلاقة التفاعلية التي تنتمي بينهما (النص، والقارئ) في ظل حوار متبادل (القارئ بموسوعته، والنص وما يفتح من مرجعيات، وإمكانات دلالية)، هي التي تحدث توتراً يولد المعنى عبر سيرورة القراءة، والتأويل؛ لأن المعنى ((ناتج عن التفاعل الحاصل بين العلاقات النصية وفعل الفهم عند

<sup>1</sup> ينظر: عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، (دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص: 192.

<sup>2</sup> عبد الناصر حسن محمد، نظرية التلقي بين ياكوس وايزر، دار النهضة العربية، مصر، 2002، ص: 41، 42.

<sup>3</sup> عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، (دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة)، ص: 193.

<sup>4</sup> امبرتو ايكو، القارئ في الحكاية (التعاضد التأويلي للنصوص الحكائية) ترجمة: أنطوان أبو زيد، ط1، 1996، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب، ص: 37.

القارئ؛ ولذلك فإن المعنى لم يعد موضوعا يستوجب التعريف به، وإنما أثرا يعاش<sup>1</sup>؛ أي على سبيل أن المعنى تجربة قرائية معاشة، على نحو من المصاحبة، والمساءلة، والاستنطاق، وليس على سبيل تحديده، والتقييد به<sup>2</sup> بيقين موضوعي.

انطلاقا من هذا الفهم النقدي لحقيقة انفلات المعنى، فإن للمعنى وجودا مؤجلا، يولد عنه تعدد القراءات، والدلالات، وهذا ((دليل على أن النص لا يحتوي على معنى واحد، وتعدّد المعاني يرجع بالضرورة إلى ظاهرة مستويات القراءة التي تختلف من قارئ إلى آخر، فكل قارئ يفسر النص حسب موسوعته وحسب خطاطات متواجدة في النص ترسم له الطريق وفق مستويات مختلفة))<sup>3</sup>، يتحقق بها النص انفتاحا على عوالم ممكنة، وامتدادا إلى قراءة تأويلية يكشفها القارئ، ويعضدها النص، لتتعدّد (القراءة) به نصوصا، ويتعدّد (النص) بها قراءة، من أجل ذلك ((يمكن للنص، ككائن ما، أن يقارب من زوايا مختلفة، كمكعب، أو جسم ما في الفضاء، يقدم النص "تضريسا" ما، ولا توجد تيماتاه المختلفة في نفس الارتفاع))<sup>4</sup>، هذه خصوصية النص الأدبي في تعدّده، واختلاف منظوراته، تفرض على قارئه أن يتنبأ، بمدخل قرائية متعدّد وغير محسومة؛ لأن النص الأدبي مثلما يقول -رولاند بارت-: ((لا بداية له، إنه عكوس؛ قابل للانقلاب، يمكن الولوج إليه من شتى المداخل دون الادعاء على وجه اليقين، أن هذا المدخل أو ذاك هو الرئيس))<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1997، ص: 151.

<sup>2</sup> المصطفى عمراني، مناهج الدراسات السردية وإشكالية التلقي (روايات غسان كنفاني نموذجا)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011، ص: 24.

<sup>3</sup> الأخضر بن السايح، من المعنى إلى الرؤيا في الخطاب السرد المعاصر، مجلة مقاليد، مخبر النقد ومصطلحاته، ع: 3، ديسمبر 2012، مطبعة جامعة قاصدي مرباح، ص: 214.

<sup>4</sup> ينظر: بول ريكور، من النص إلى الفعل، ص: 139/155.

<sup>5</sup> رولان بارت، مقدمة S/Z، تر: محمد البكري، مجلة سيميائيات، مخبر السيميائيات وتحليل الخطاب، ع: 2 السنة: الثانية، جامعة وهران، الجزائر، 2006، ص: 125.

بهذا يصل البحث إلى نتيجة مؤداها: مادام للنص وجود متعدّد، ومتجدّد مع كل قراءة، فإنّ دلالاته -وهي نتيجة للقراءة- وجود احتماليّ، لا اختزال، ولا جزم فيها، لذا يظل النص في دائرة الاحتمال، والمتوقع، و((أن تقرر احتمال وقوع أمر هو أن تعجز عن الجزم بوقوعه، وأن تعجز الجزم بوقوعه هو أن تدعن للجهل بكنهه.))<sup>1</sup>، وعليه لا يستطيع القارئ أن يجزم بدلالة ما إلا من حيث قبول النص لقراءته قبولاً ممكناً ومؤقتاً، ليأخذ بذلك النص موقعه الدائم داخل دائرة البحث عن مكتشفه، أو قارئه الذي هو وجود متعدّد، ومتغيّر أيضاً، ويرجع ذلك في تفسيره إلى مسألة انغلاق النص، وانفتاحه؛ ((فكل أثر فنيّ حتى وإن كان مكتملاً ومنغلقاً من خلال اكتمال بنيته المضبوطة بدقة، هو أثر "مفتوح" على الأقل من خلال كونه يؤوّل بطرق مختلفة، دون أن تتأثر خصوصيته التي لا يمكن أن تختزل))<sup>2</sup>، وهذا يعني أن انفتاح النص يتاح للقارئ أن يؤوله وفق أفق قرائي أرحب وأوسع بما تحيل إليه معطياته النصيّة، وفي ذات الوقت فإن النص المفتوح محصن ببنيته، وسجلاته، واستراتيجياته من قبول أي تأويل؛ وذلك بفرض ((استراتيجية نصيّة مشروطة بوسائط التعاون النصي، المتمثلة في اختيارات الموسوعة الثقافية وفرضيات الخطاطات والسيناريوهات، وغيرها من العمليات الدلالية والتداولية التي تحدّد وترسم الأفق النظري للمسار التأويلي للقارئ النموذجي))<sup>3</sup>، أثناء اشتغال القارئ على تحيّن دلالات النص.

بناء على ما سبق، فإن القراءة التأويلية فعل إبداعي، مشروط بمدى معيشة، ومشاركة القارئ للنص في بناء المعنى الذي يبقى قيد التأجيل، وحسب كل قراءة أن تحقق

<sup>1</sup> نجيب الحصادي، آفاق محتملة، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط1، دت، ص: 6.

<sup>2</sup> أمبرطو إيكو، الأثر المفتوح، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية/ سورية، ط2، 2001.

ص: 16.

<sup>3</sup> محمد بوعزة، هرمينوطيقية المحكي (النسق والكاوس في الرواية العربية)، الانتشار العربي، لبنان، ط1، 2007. ص: 71.

منه دلالة ما احتمالية ممكنة يقبلها النص إلى حين يأتي قارئ آخر يدفع بالنص إلى تحقيقات أخرى، وقراءات أخرى، ودلالات أخرى..؛ وتعليل ذلك أن ((حقيقة المعنى التي يتعقبها الفهم ليست بالشيء المتجلي الذي ينتظر الآخر/المؤول أن يقبض عليه أو يزيده إيضاحا وتجليّة، وإنما هي، (...)) توجد بين بداية مجهولة ولحظة متحوّلة في زمن غير قابلة للتحديد ومن ثم يصعب ضبط هذه الحقيقة فهما وتأويلا..))<sup>1</sup>، أمام هذه الحقيقة التأويلية للمعنى، فالقارئ مطالب بالإنصات لما يقوله النص، والاستئناس به، ومصاحبته دون أن يفرض عليه شيء من عنده، أو يمتلكه؛ ((إذ حقيق على القارئ أن يكون غريبا لا يمتلك شيء فلا يستعقل النص، كلا ولا يستملكه، عليه أن يستجيب لمخامرة النص ومسامرته، وأحيانا عنف اللعب، ألا وهي استجابة ترعى أنس الانتماء المتبادل بينهما، وتتعدّد المؤانسة بينهما..))<sup>2</sup>، لغاية تحقيق فهم الوساطة التي تخلّق من أجلها النصّ الأدبي، والتي يسميها بول ريكو "المرجعية، والاتصالية، وفهم الذات".

يتسيّد النص بفعل امتلاكه للمعنى، وعدم البوح عن مكوناته إلا في حضرة من خصّه بالمعايشة، والمصاحبة، فإنه يكشف له عن مكونات دلالية، ومخزون معرفي يمكنه من التعرف على ((..معنى مختلف تماما عن المعنى الذي يعرفه التحليل البنيوي فيما يستعيّره من اللسانيات. فهو (النص) الوساطة بين الإنسان والعالم، وبين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان ونفسه، والوساطة بين الإنسان والعالم هي ما ندعوه المرجعية، والوساطة بين الناس هي ما ندعوه الاتصالية والوساطة بين الإنسان ونفسه هي ما ندعوه بالفهم الذاتي. والعمل الأدبي يتضمن هذه العناصر الثلاثة: المرجعية والاتصالية والفهم الذاتي))<sup>3</sup>، وهي عناصر تتوج النص الأدبي بصفته "حاملا للمعرفة" قد يحققها القارئ

<sup>1</sup> عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة، (نحو مشروع عقل تأويلي)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008. ص: 267.

<sup>2</sup> تموتى كلارك، المعتمد الأدبي في التفكيك، (هيدجر بلانشو دريدا)، تر: حسان نايل، المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، 2011، ص: 14.

<sup>3</sup> بول ريكور، الحياة بحثا عن السرد، ضمن كتاب الوجود والزمان والسرد، ص: 47/48.

أثناء ممارسة التأويل؛ لأنّ النصّ الأدبي ((لا يهدف، في نظر غادامر، إلى تحقيق المتعة الجمالية فحسب، بل يظهر، وبدرجة أساسية، باعتباره "حاملا للمعرفة" بالمعنى العميق لهذه العبارة، وينجم عن هذا التصور أن عملية الفهم لن تكون مجرد متعة جمالية خالصة، بل ستقوم على نوع من المشاركة في المعرفة التي يحملها النص)).<sup>1</sup>، وهي معرفة قد تقود القارئ إلى دحض معارفه السابقة، أو تصحيحها، أو تجاوزها إلى معرفة يستعيد فيها القارئ ذاته فهما، ويعيد امتلاك العالم تأويلا، ويتواصل مع الآخر حوارا وتفاعلا، ولكن هذه المرة عبر سيرورة فعل القراءة.

بالاعتراف بمرجعية النصّ الأدبي، ووظيفته الاتصالية بين الذات، والغير، يتحدث "بول ريكور" عن مهمة التأويل المزدوجة نحو قراءة النصّ الأدبي، بأنها تتمثل في ((البحث داخل النصّ نفسه، من جهة، عن الدينامية الداخلية الكامنة وراء تبنين العمل الأدبي، ومن جهة ثانية، البحث عن قدرة هذا العمل على أن يقذف نفسه خارج ذاته ويولد عالما يكون فعلا هو "شيء" النصّ "اللامحدود". إن الدينامية الداخلية والانفذاب الخارجي يكونان ما أسميه عمل النص. من مهمة الهرمينيوطيقا أن تعيد تشييد هذا العمل المزدوج للنص))<sup>2</sup>؛ فلا يفهم حديثه إلا تأكيدا على أن البنية النصية هي أساس كل تأويل، حتى وإن تجاوز مقولة البنيوية في انغلاق النص باحتفائه بدور القارئ في تشييد النص، ومهمة التأويل قائمة أساسا على علاقة جدلية بين قارئ وبنية نصية تحيل على عالم خارجي حيوي، وتدفع بالقارئ إلى فهم الذات والعالم، ليعيد ريكور تأكيده على ما يجب تأويله في النصّ، بصيغة مختصرة، بقوله: ((ما يجب تأويله في النصّ هو العالم المقترح الذي يمكن أن أسكنه وفيه يمكنني أن أشرع إمكاناتي الخاصة))<sup>3</sup>، من أجل ذلك يكون النصّ الأدبي

<sup>1</sup> عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة (دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة) الدار العربية للعلوم، لبنان، ط1، 2007، ص:37.

<sup>2</sup> بول ريكور، من النص إلى الفعل، ص: 25.

<sup>3</sup> كيفن فانهوزر، أسلاف فلسفة ريكور في ((الزمان والسرد))، ضمن كتاب: الوجود والزمان والسرد، ص: 82.

فضاء مفتوحا على إمكانية الفهم، أو إنه الوسيط الذي يمكن الذات من فهم ذاتها، والعالم، وهو غاية كل ممارسة تأويلية.

من أجل توضيح أن للنص الأدبي فضاء مفتوحا لفهم الذات، والعالم، فإن "بول ريكور" يضع فرضية، وهي: أن الذات لا يتحقق لها فهم ذاتها، وفهم العالم، إلا بواسطة الرموز والعلامات تمكنها من امتلاك فهما تدريجيا لذاتها، وللعالم؛ ((ونقصد بالفهم التدريجي الفهم الذي يتم عبر مراحل متواصلة من خلال عملية تركيب مستمرة.))<sup>1</sup>، بذلك يستبعد ويفند "بول ريكور" المسلمة القائلة: بأن الذات تعرف ذاتها، ومحيطها معرفة مباشرة، يقول: ((لا نفهم أنفسنا إلا بخفايا علامات البشرية الموثقة في الآثار الثقافية، ماذا كنا سنعرف عن الحب والكراهية، عن الأحاسيس الأخلاقية، وبعمامة عن كل ما نسميه ذاتا، لو لم ينقل ذلك إلى كلام ولم يبين بالأدب؟))<sup>2</sup>، إن للنص الأدبي القدرة بما يملكه من إمكانات لغوية، ورمزية، وعلاماتية...، من أن يتيح للقارئ استعادة ذاته، ومحيطه فهما وتأويلا؛ — ((أن النص هو الوسيط الذي نفهم عبره أنفسنا))<sup>3</sup>، ونتعرف على ذات أخرى مغايرة، تكون نتيجة عملية الفهم، والتأويل<sup>4</sup>.

وهي نتيجة تحقق للقارئ وجودا فعليًا يمكنه من توسيع آفاقه نحو معرفة تدعو إلى إعادة صوغ أسئلة خارج إطار التكرار الجاهز، والمستهلك، يشق بها طريقه نحو ذاته، والعالم أمام النص؛ ف— ((النص الأدبي لا ينكشف للمفسر على صورة موضوع يتأمله، بل ينكشف له منذ البداية على شكل انفتاح أو توتر (Tension) يثير في نفسه الاهتمام

<sup>1</sup> مليكة دحمانيّة، هرمنيوطيقا النص الأدبي في الفكر الغربي المعاصر، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2008، ص: 122.

<sup>2</sup> بول ريكور من النص إلى الفعل، ص: 89.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص: ن.

<sup>4</sup> ينظر: عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص: 52.

والتساؤل))<sup>1</sup>، يراجع بهما ذاته ويستعيدها ذات أخرى أثناء قراءته، ولا يكتمل تأويله، وفهمه للنص إلا بتأويل ذاته، والعالم والنتيجة أنّ فهم الذات شرط قرائي لفهم النص، وهذا يعني أن فهم النص ليس غاية في ذاته بل وساطة رمزية تفتح للقارئ فرص متعدّدة لمعرفة جديدة أساسها مرجعيات وإمكانات نصيّة تحيل، وتحفز على فهم الحياة فهما أفضلًا، وهي معرفة -مثلما نلاحظ- لا تكتمل، لولا ممارسة فعل القراءة الذي يفعله القارئ والنص نحو فهم مغاير للذات والعالم.

ولعل هذا ما جعل "بول ريكور" يقر بأن حدث الفهم ((لا يعكس كيفية وجودنا في العالم، بقدر ما يكشف لنا عن إمكانيات أخرى لوجودنا في العالم لم نكن نعرفها أو نعيها قبل الشروع في عملية الفهم والتأويل))<sup>2</sup>، فمن من منطلق قيمة حدث فهم النص الأدبي، ووصولاً إلى نتيجته فهم الذات، والعالم أمامه، تتجلى غاية المقاربة التأويليّة، في كونها ليست استحواداً ولا امتلاكاً للنص، بل غايتها هي مصاحبة النص في اختلافه، والإصغاء له بوصفه الآخر الذي يحدث التواصل بين الذات وذاتها، وبين الذات وعالمها، وبين الذات وذوات أخرى مغايرة عنها، فالقراءة التأويليّة محتملة، وفي احتمالها ما يقر بأنّ ((النص غير مغلق على نفسه، بل منفتح على شيء آخر))<sup>3</sup>، لم يكن للذات القارئة أن تدركه، وتعيه إلا بتفعيلها لفعل القراءة، وممارسته على نحو من العيش في كنف النصيّة والاختلاف.

وإذا كانت القضية الفلسطينية تجربة إنسانية عميقة الأثر تاريخياً، وواقعا، وإنسانياً، كنص كبير يراد تأويله، فالسرود هو الأقدر في القبض على الزمن، وطرحه بتحبيكه، وبتمثيله عبر اللغة متخيلاً، وتاريخاً، فكيف تحققت الهوية الفلسطينية سردياً؟

<sup>1</sup> مليكة دحمانية، هرمنيوطيقا النص الأدبي في الفكر الغربي المعاصر، ص: 93.

<sup>2</sup> عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص: 50.

<sup>3</sup> بول ريكور، من النص إلى الفعل، ص: 117.



# الفصل الأول

الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي.

تمهيد:

1/ المبحث الأول: سؤال "الملهاة الفلسطينية": من ذاكرة العنوان إلى فاعلية النص.

2/ المبحث الثاني: فاجعة النكبة: من سردية الذاكرة إلى إعادة تشكيل الهوية

الفلسطينية.

3/ المبحث الثالث: السرد، والتاريخ، نحو تشكيل هوية سردية فلسطين.

4/ المبحث الرابع: مسار الذات نحو الجماعة، وامتأؤها للهوية الفلسطينية.

تمهيد:

لكل نص من نصوص "الملهاة الفلسطينية" حكاية تُروى، وذاكرة تقاوم الغياب التاريخي، ولكل ((تجربة زمنية قصصية عالمها الخاص، وكل عالم من هذه العوالم فريد في ذاته ومفرد ولا يقرن بسواه))<sup>1</sup>، وهذه الفرادة، والخصوصية في نصوص "الملهاة الفلسطينية" تدفع بالبحث بأن يستند إلى القراءة التأويلية، أو القراءة التي تدمج وعي القارئ بوعي النص<sup>2</sup>، وكل نص من نصوص "الملهاة" يختلف، ويتعدد في طرح إشكاليات تتفتح على أسئلة تؤسس للهوية الفلسطينية سردا ومتخيلا، وهو بذلك لا يحيد عن مسار النص الرئيس "الملهاة الفلسطينية" في حمله لعبء القضية الفلسطينية، القضية التي أوشكت أن تسقط من ذاكرة العربي.

من موقع التحري، والاستقصاء عن هوية فلسطينية ضمن فضاء المحتمل، والممكن يستفرد هذا الفصل "ذاكرة النص، بين التأويل التاريخي، والتمايز السردية"، بالبحث عن ذاكرة الإنسان الفلسطيني متجذرة في التاريخ، إنها ذاكرة اخترنت في الأرض، وصمدت في وجه من أراد لها المحو، والاختزال، لتتحول فاجعة 1948 إلى جزء من الهوية الفلسطينية بعدما أصبحت جزءا من الذاكرة الجماعية الفلسطينية التي فجعت في مصيرها، وأرضها..، إنها الذاكرة التي ترفض أن تكون صدى تاريخيا لما حدث فحسب، وإنما تقترن بحاضر لا يفسر إلا بالعودة إلى النكبة، وتقترن بمستقبل الشعب الفلسطيني اقترانا يُثوّر، ويُفجر دلالات من خصوصية المقاومة والصمود الفلسطيني، وهي دلالات لا تفهم إلا بوساطة سردية تستدعي قارئاً للتكفل بها في إطار من بناء تاريخي، اندمج بمتخيّل استجاب لقوة النص السردية في مواجهة النظام الصهيوني الاستعماري.

<sup>1</sup> بول ريكور، الزمان والسرد، الزمان المروي، ج3، ص: 189.

<sup>2</sup> ينظر: وليم راي، المعنى الأدبي من الظاهرانية إلى التفكيكية، تر: يوثيل يوسف عزيز، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، العراق، ط1، دت، ص: 17.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

من أجل ذلك، تغدو القراءة التأويلية رؤية منهجية تعمل على تجاوز الأفق اللغوي للنصوص، والنظر -وباستمرار- إلى أفق بناء من دلالات تستوفي شروط الحرية، وكرامة الإنسان، واعتراف بذاكرة صلبة تقضي على هشاشة العالم المحيط، والمتخاذل أمام القضية الفلسطينية، وتتجاوز الاختزال الصهيوني عبر متخيل مضاد للسرديّة الصهيونيّة، وهي (القراءة التأويلية) لا تدعي القبض، أو الإمساك بالحقيقة بقدر مقاربتها للمعنى، لتحقق دلالة ما؛ لأن ((الحقيقة ليست نائية، وهي ليست ثابتة بقدر ما هي بناء متواصل، وسيرورة لا تكتمل ولا تنتهي، وهي ليست يقينا جازما بقدر ما هي انفتاح على العالم))<sup>1</sup>، الذي يقترحه النص على قارئه.

إن البحث لا يدعي أمام نص "الملهاة الفلسطينية" \_المشحون بالذاكرة الجماعية\_ القدرة على الإمساك بكل الأفكار التي يثيرها عبر إشكالاته المرهونة بالراهن الفلسطيني، ولكن حسبه من ذلك أن يقارب أسئلته من خلال أربع مباحث، وهي:

1/ المبحث الأول: سؤال "الملهاة الفلسطينية": من فاعلية العنوان، إلى ذاكرة النص.

2/ المبحث الثاني: فاجعة النكبة: من سرديّة الذاكرة، إلى إعادة تشكيل الهوية

الفلسطينية.

3/ المبحث الثالث: السرد، والتاريخ نحو تشكيل هوية سرديّة فلسطينية.

4/ المبحث الرابع: مسار الذات نحو الجماعة، وانتماؤها لهوية فلسطينية.

<sup>1</sup> مليكة دحامية، هرمنوطيقا النص الأدبي، في الفكر الغربي المعاصر، ص: 7.

### المبحث الأول:

سؤال "الملهاة الفلسطينية"، من فاعليّة العنوان إلى ذاكرة النص.

إن في قراءة عنوان النص الروائي، ما يمنح للبحث إمكانية مصاحبته، والدخول معه في حوارية تكون سبيلا يطأ بها القارئ فضاء النص، وفي وطأته تلك يسكن إليه كشافاً، وتمثلاً لمكوناته، ومضمراته النصيّة، بهذا يعد العنوان مدخلاً محورياً يؤسس لما يسمى بالعتبة النصيّة، التي تؤسس لفاتحة قراءة النص وتأويله، فهي تضيء العتمة التي قد تصادف القارئ وهو في طريقه إلى فهمه، فترفع عنه سوء الفهم بوضعه ضمن إطار معايشة النص، والإنصات إلى وقع معناه بالتفاعل معه، وتهيئته ليولد، ويتعدّد دلالات قرائيّة.

يتموضع العنوان في مكان استراتيجي، يعيّن، ويوحى إلى ولادة نظام كتابي ثقافي يعد جزءاً منه، وجزءاً من نسقه الإبداعي، ليستفرد العنوان بأهميّة كبيرة حظي بها لدى الدارسين في مقارباتهم للنصوص، فهو إشارة لبداية دخول القارئ إلى النص، والتواصل معه، إنّه الرهان الأكبر للنص حتى يحيا قراءة، وتأويلاً، فإما الاستمرار، والانجذاب إليه، أو الاعتراض والانصراف عنه؛ فقبول النص لدى قرائه مرهون بالعنوان، وبمدى تجذره في إشكاليات النص وتساؤلاته، التي قد يفصح عنها عنوانه، أو يوحي إليها من خلاله، كما قد يحيطها برمزيّة يكتنفها فيه، مراوفاً قارئه، فلا تنكشف له إلّا بعد قراءة النص، والتعمق في أطروحاته، ليؤسس العنوان بهذا قاعدة حضور، أو غياب النص بين قبوله ورفضه ثقافياً، وقرائياً، وترجع أهميّة العنوان إلى ((توسع مفهوم النص. ولم يتوسع مفهوم النص إلّا بعد أن تم الوعي والتعرف على مختلف جزئياته وتفصيله، وقد أدى هذا إلى تبلور مفهوم التفاعل النصي، وتحقق الإمساك بمجمل العلاقات التي تصل النصوص فيما بينها والتي صارت تحتل حيزاً مهماً في التفكير النقدي المعاصر، فكان التطور في فهم النص والتفاعل النصي مناسبة أعمق لتحقيق النظر إليه بصفته فضاء، ومن ثم جاء الالتفات إلى

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردى

عتباته<sup>1</sup>)، التي تعد منجزا نصيًّا، وشاهدا محوريًّا على شرط تاريخيَّة النص، ووجوده ضمن فضاء القراءة والتأويل.

يتحدّد العنوان بوصفه مدخلا قرائيا دالا على وجود خصوصيَّة يستفرد بها العنوان دون غيره من العتبات النصيَّة التي تحيط بالنص، وتحقق هويته، وكيونته؛ إذ يصاحب النص، ويحيط به، ويحمل ذاكرته في آن واحد إلى المتلقي، فيجعل منه قارئاً منفعلاً، أو قارئاً فاعلاً ومتفاعلاً إنه ذلك الميثاق العلني الذي يدعو المتلقي للحضور إلى إحياء النص بقراءته، وتأويله، ودفعه إلى مشاركته في بناء النص بوساطة علاقات جدلية متجذرة بين النص، وعنوانه وما يشير إليه من كثافة تركيبية توميء، وتشير إلى ذلك الزخم من العلامات والدلالات التي قد يحتويها النص في عوالمه الممكنة، والتي تم تلخيصها في ((بنية مختزلة، شديدة الاقتصاد اللغوي، فإنّ ما تمّ تكثيفه وتركيزه سيتمّ توسيعه وتمطيّطه وتفصيله في النص الكبير، وقد تمّ الأمر بشكل عكسي عند الإنتاج، حيث تأتي صياغة العنوان بعد اكتمال صناعة النص، وهذا هو الغالب على بناء العناوين))<sup>2</sup>؛ إذ هي صورة مصغرة، ومكثّفة عن النص الذي تسميه، وفي تسميتها ما يفود إلى تجلّي، وظهور النص، وفي تجلّيه يكون قد حقق شرطه الوجودي والتاريخي، وهو القراءة التي تتعشه، وتحييه.

هكذا تغدو مقاربة عنوان النص لازمة قرائية، ومهمّة مستعجلة لا يمكن أن يتخطاها القارئ، أو يتجاوزها إلى غيرها، دون التوغل في توجيهاته، والكشف عن معطياته الدلالية التي تمنح للقارئ آفاقا معرفية تمكنه من فتح مسار تأويل النص، وقراءته قراءة تتأسس على اكتشاف العلاقة الجدلية التي اقترن بها العنوان بالنص تسميَّة، وتعريفًا، والنص بالعنوان اختزالًا، وتكثيفًا.

<sup>1</sup> سعيد يقطين، مقدمة كتاب عتبات، عبد الحق بلعابد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2008، ص: 14.

<sup>2</sup> محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، (التشكيل ومسالك التأويل)، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، 2012م، بيروت، ص: 73.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

فالعنوان هو السبيل إلى رؤية النص رؤية تمهد لتأويله، والغوص في أعماقه إذ يوضع القارئ أمام إشكالية النص تحديداً، وامتداداً؛ تحديداً لأفق مختزل في بنية تركيبية مكثفة ومختصرة تشوش وتغريه، على الامتداد في بنية شبكية دلالية أكبر (النص)، وتدفع به إلى توسيع أسئلته، وافتراضاته حول النص؛ إذ ينزع القارئ نحو تحري الجدول القائم بين العنوان والنص، واستظهار لعلاقة لا تولد إلا بفعل القراءة، ولا تتأسس إلا على بنية حبلية بمؤشرات الفهم والتأويل، تعين وتوجه عملية إنتاج دلالات النص، ومنه فإن العنوان هو المعين الذي لا ينضب في مسار قراءة، وفهم النص، وتأويله.

بهذه الأهمية الكبيرة التي يحظى بها العنوان ضمن موقعه الاستراتيجي، فإن قراءته مهمة إبداعية، تستحث البحث في وضع أسئلة تمكنه من فهم العلاقة الممكنة التي يؤسسها عنوان "الملهاة الفلسطينية" بنصه، وهي أسئلة صادرة أساساً عن أهمية العنوان، ودوره في توجيه عملية القراءة، والتأويل، فبأي معنى يمكن أن يفهم عنوان "الملهاة الفلسطينية" الجامع لعدة عناوين فرعية؟ وكيف يساهم في تجلي الدلالات النصية؟

يتيح وجود عنوان "الملهاة الفلسطينية" وفق استراتيجية مراوغة القارئ، بوجود إبداعي تثيره لغة استثنائية تستعين بالأضداد قصد الوضوح، لكنه ليس الوضوح الذي تبين به الأشياء وتصبح مألوفة، بل الذي يثير حدة التوتر في المؤلف، حتى يغدو غريباً يرهب بوقوعه في منطقة المابين، وهي منطقة لا تفصح عن دلالة الشيء إلا في ظل ما ينافيه ((لا بما هو تميز ساكن بل بما هو مغايرة وفعالة، وإحالة الشيء نفسه إلى محل آخر))<sup>1</sup> وهو حالة الاختلاف التي يدعو إليها في تكامل دون دلالة يقينية تحدده، إذ باتخاذ منطقة المابين سكناً له يكون ((السؤال هو أول خطوة تسكعية يقوم بها العقل القارئ في نزته نحو آفاق جديدة))<sup>2</sup>، تدفع به إلى محاولة الرجوع بالعنوان إلى الأصل الذي غاب

<sup>1</sup> جاك دريدا، صيدلية أفلاطون، ترجمة: كاظم جهاد، دار الجنوب للنشر، تونس، دط، دت، ص: 10.

<sup>2</sup> نجيب الحصادي، آفاق محتملة، ص: 110.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

عن النظر قصد الاستئناس به في استنطاقه، واستنطاق امتداداته النصية، فما هي الدلالات التي يقترحها ويفتحها عنوان "الملهاة الفلسطينية"؟

يحتل عنوان "الملهاة الفلسطينية" منطقة المابين، بتوظيفه لكلمة "الملهاة" (الكوميديا) وهي لا تستوي إلا بحضور نقيضها "المأساة" (التراجيديا) الذي غاب عن المستوي التركيبي، وما غيابه إلا دليل على حضوره في تواصل مع الأضداد، وهي تستدعي بعضها البعض في حالة من الحراك الجدلي الذي يفضي إلى انتعاش دلالات غير مألوفة، توميء، وتشير إلى الاختلافات القائمة بين ما يظهره المستوى التركيبي، وما يخفيه من دلالات بعيدة؛ ولعل ما يعلل هذا الفرق هو ما فرضه حضور كلمة "الملهاة" (الكوميديا) في مركب اسمي المحدد "بال" التعريف، الذي أفاد تعيين، وتخصيص الملهاة بفلسطين دون غيرها، وهي الحاضرة تاريخيا بنكبتها وشتاتها ومقاومتها..، أي كل ما هو مأساوي (تراجيدي)، وكلمة "فلسطين" جاءت في المستوى التركيبي صفة لمبتدأ "الملهاة" خبره محذوف تقديره هو يمكن للقارئ أن يضعه بعد اكتمال قراءة مدونة "الملهاة الفلسطينية"، بهذه المفارقة يتهبأ العنوان إلى وجوده المختلف الذي لا ينكشف إلا بالحفر في جدلية ألفاظه، فلماذا وسم "إبراهيم نصر الله" نصه بـ "الملهاة" في حين كان بإمكانيات اللغة أن تمنح له فرصا أكثر حيوية، للإعلان عن "المأساة"؟

إن الشرط الأساسي لفهم جدلية هذا العنوان هو التخلي عن ألفة ألفاظه، والدخول معه في تأسيس دلالات جديدة تفرزها علاقات غير مألوفة بين الأضداد، والاتجاه بها نحو تحيين غربتها بالتخلي عن ماضيها القاموسي؛ ((فالخروج عن المؤلف هو الخروج عن معتاد مجتر ومكرور، عما لا ينفك عن الوجود إلى الخارج عن العادة، إلى غير ما نحن عليه. إنه الخروج عن الحضور والتطابق والهوية نحو ما هو مخالف، نحو الغريب الذي لا هوية تحدده، ونحو الرحالة وعابر السبيل الذي يعيش في الهامش على حدود الفضاء، إلى حد أنه ربما يكون من المتعذر أن نتحدث عن الفضاء الغريب، لأن الغرابة لا فضاء

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

لها))<sup>1</sup>، حينها يخترق سؤال العنوان أسوار المعتاد، والتخلي عما اتفق عليه من ألفاظ، في بنائه لعلاقاته بالنص.

تتعلق كلمة "الملهاة" المغرقة في الضحك والكوميديا، مع كلمة "المأساة" المثقلة بالدموع والأحزان في سياق الحديث عن فلسطين؛ حيث تتداخلان لتبلغا درجة التكامل في تمهاده دون اتحاد، أو تصالح فلا هي تلك، ولا هي ذلك؛ ((إذ أن القضية الفلسطينية بالذات، بقدر ما تتطوي على تراجيبات، لا حدّ لها فإنها تحتوي على أشكال لا حصر لها من السخرية والكوميديا والكوميديا السوداء))<sup>2</sup>، فباقتران كلمة "الملهاة" بكلمة "فلسطين" في العنوان يكون الإفصاح الذي يستعصى على القارئ بأن يجزم بدلالة يقينية تمهد له سبيلا يدخل به إلى النص؛ لأن العنوان يدخل قارئه إلى دائرة المكاشفة لا بما هي وضوح، وإفصاح، بل بما هي ملاحظة، وتأجيل للمعني، به يحصن العنوان نفسه ضد أي إساءة تأويل يمكن أن تأتي بمعناه، أو تلغي وهجه الذي لا ينضب، حتى يُبقى علاقته بالقارئ قائمة على شغف البدايات، الذي يعلن فيه عن موقفه بتأكيديه على أن هويته فلسطينية.

يتخطى العنوان "الملهاة الفلسطينية" المؤلف، بارتباطه سرديا بالقضية الفلسطينية لـ)).. أنها قضية لا تجد من يتبناها دعماً مثلما نجد قضايا النضال المختلفة الأخرى في العالم))<sup>3</sup>، إنها قضية الإلتواءات الكبرى التي تحيل ((إلى قضية إنسانية قديمة/ جديد تمثل تجربة صعبة وتحدياً مؤلماً لكل مبدع يحاول التماس أو التقاطع معها))<sup>4</sup>، في التعمق في إشكالاتها، ومحاولة الاقتراب منها سرديا، لأجل إيجاد عوالم تصغي السمع لصوت

<sup>1</sup> عبد السلام بنعبد العالي، الأدب وميتافيزيقا، دراسات في أعمال عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال للنشر، ط1، 2009، الدار البيضاء المغرب، ص:14.

<sup>2</sup> محمد عبد القادر، الوشائج الخفية في "الملهاة الفلسطينية"، الدستور، مجلة الكترونية، ت ن:11، أبريل، 2003، ت إ: 7، 12، 2019، سا: <https://www.addustour.com/articles/66801.11:15>

<sup>3</sup> إدوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، دار الآداب، لبنان، ط1، 2007، ص: 11

<sup>4</sup> ياسين سليمان، سؤال الدراما، من أنطولوجيا الفعل إلى استنبيقا التلقي، دار شهرزاد للنشر والتوزيع، ط1، 2017، عمان الأردن، ص: 53.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

المقموعين والمظلومين، ورفعاً للتحدي في إنجاز سردية مضادة لكل أشكال العنف، والقهر، والسلب التي تقف في وجه الفلسطينيين، ((فإذا طبقنا ظلال كلمة الملهاة ومشتقاتها على القضية الفلسطينية ستجد ما معناه أن الزعامات العربية منذ بداية المشكلة قد (لهو) بالقضية أي غفلوا وسلوها، وأحياناً نسوا ما بها عندما استغلوها غطاءً وطنياً أو قومياً و(تشاغلوا) وانتغلوا عنها بعد أن أدت المهمة المطلوبة للوصول إلى قمم العروش، وفي النهاية قدموها (لهوة أو لهية) أي عطية لعصابات الاحتلال القادمة من أقصى بقاع الأرض)).<sup>1</sup> وتمثيلاً لهذه السخرية من شدة المعاناة، يأوي العنوان بقارئه إلى استحضر كلمة "ملهاة"، بدلاً من كلمة "مأساة"، المغلقة ومثقلة بالهزيمة الحتمية لأبطالها، إذ تقفل كل احتمال للنصر، لذا فكلية "المأساة" كلمة قامة<sup>2</sup>.

بهذا يستفرد العنوان بدلالات تقرأها كلمة "فلسطين" وتبعث بها إلى النحو الذي يقر بتلاحم الأضداد، ضد كل أشكال التكرار، والاختزال لكلمتي "ملهاة"، و"المأساة"، إلا من حيث تمثيلاً لواقع مؤلم يريد أن ينتفض ضد كل أشكال القهر، والنسيان، في سيرورة تاريخية استرجاعية احتواها السرد تخيلاً، وفي كنف التأويل قراءة، وفهماً، من أجل أن يخفف بها القارئ من وطأة إغراء العنوان، وتشويشه، وذلك بفتح مغاليقه، والدخول معه في حوار إيجابي، يتكافؤ فيه القارئ مع النص.

بهذا يجب إدراج العنوان ضمن منظومة تاريخية تنتقل بالقارئ من محل بعد إلى محل قرب من النص، فيه وبه يضع العنوان قارئه وجهاً لوجه أمام حرب البقاء "السردية" المتجذرة والمتعاقبة ضمن اللغة، والتاريخ، والواقع، والمتخيل، والتي تكفل للقضية الفلسطينية دوام التنفس والتحقق سردياً، وتاريخياً، وهذا نوع من التعاقد الضمني، والصريح بين العنوان، والنص ما يجعل القارئ في حالة من الإنصات المستمر لاشتراطات الذات، والتاريخ، في البحث عن هوية لن تكتمل إلا بفهم هموم وطن مجروح،

<sup>1</sup> محمد عبد القادر، الوشائج الخفية في "الملهاة الفلسطينية"، مجلة الدستور.

<sup>2</sup> ينظر: المرجع نفسه.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

ومسلوب، يشير إلى ذات الانكسار، وتاريخية المقاومة في آن واحد، هكذا تتجلى علاقة جدلية قائمة على التأثير المتبادل بين العنوان، والنص في برهنتها على أن فهم العنوان الذي وسم به النص في إطار من الخصوصية التي تؤكد على أن ((اختيار عنوان دون غيره له دلالاته ورهاناته، لذا يكون شبيها برحلة تتحمل من دون تراجع أهوال ما تصادفه ويكون لها فيه ذلك المتاه السري والرائع في ذات الوقت))<sup>1</sup> ما يجعل من الإنصات سبيلا لتحيين دلالات النص، وتمثيلا لمضمراته تأويلا، وفهما.

من منطلق هذه الفهم الذي أحدث امتداد تاريخيا عن كلمة فلسطين، وما انبعث منها من إشعاع دلالي يضيء به سبيل فهم النص، فإن العنوان أضحى ذاكرة للنص التي تمارس سلطة الحضور القرائي بتأويلها على نحو ما يبيحه من إمكانيات تؤسس للدخول إلى النص مصاحبة واستثناسا بوقع معناه (النص) عن فلسطين، وبفلسطين، وإلى قوله التاريخي السردى الشاهد على تاريخية الإنسان الفلسطيني، ومعاناته في مكابدة ثبات تجذره على أرضه التاريخية، لذا فإن ((السرد يتحمل ديننا الأخلاقي للموتى، وبالتالي فمن المهم جدا أن نعرف الأجيال ما حدث حتى لا يضيع حق الضحايا الذين ذهبوا بفعل تقلبات التاريخ ومفاجأته، ومن ناحية أخرى فإن السرد التاريخي يضطلع بالتحذير من عواقب الانخراط في سلوكات عدائية يتوارثها السلف عن الخلف))<sup>2</sup>، من أجل ذلك يؤسس العنوان بكلمة فلسطين أصلا مرجعيا، يشير به إلى ثقل موقعه التاريخي عبر متخيل سردي يستفز به القارئ، ويطلبه بفتح النص على نحو من المشاركة في بناء دلالات تغرف من الواقع الفلسطيني وتاريخه الذي يقول قولاً عبر متخيل، يصحح به الرؤى عن مسار القضية الفلسطينية.

<sup>1</sup>بختي بن عودة، قراءة غير بريئة في "التبيين" من بلاغة العنوان إلى تواضع التأسيس، مجلة التبيين، منشورات جمعية الجاحظية، الجزائر، العدد: 9، 1995، ص:10.

<sup>2</sup> بول ريكو، الذاكرة والسرد، حوارات، تر: سمير مندي، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، 2016، عمان، الأردن، ص: 14.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

يمهد عنوان "الملهاة الفلسطينية" للقارئ الدخول إلى النص باقتراحات، وتوجيهات تتأسس على بنية لغوية مكثفة، ومفتوحة على سياقات خارجية أساسها السرد التاريخي، والسرد المتخيل يراهن بهما على حضور نص "الملهاة الفلسطينية" حضوراً ينبئ عن الوصول المفتوح على سؤال، لماذا فلسطين؟... و((هي مساءلة تتوخى إحداث الدهشة التي تغمر الكينونة لحظة كشفها لتعارضات العالم ومفارقاته التي لا نهاية لها، والمساءلة تنزع غطاء التزييف عن هذا العالم الذي يدعي التلاؤم والانسجام، وينخرط في تأكيد الدوغمائية المبشرة بالحقيقة الوحيدة النافية للتعدّد والاختلاف))<sup>1</sup>، فللعنوان "الملهاة الفلسطينية" نسبة تأثير عالية في جذب القراء إلى الإنصات إلى القول الذي لم يقل بعد عن فلسطين، فقد أضحت "ملهاة"، وهي "المأساة" التاريخية الكبرى للإنسانية جميعاً؛ بذلك فعنوان "الملهاة الفلسطينية" علامة حادّة على الدهشة التي أحدثها، بأن فلسطين لم تكتمل حكايتها بعد.

إن اقتران العنوان بكلمة فلسطين قد أفقده ألفتة، فأنكشف وجهاً غريباً يبحث عن بدايات جديدة تعيد له هويته الفلسطينية، أو فلسطينيته المجرّحة؛ فمن أراد أن يتجدّد فما عليه سوى أن يغترب، أن يبدل مقامه<sup>2</sup> من ألفة ساكنة إلى غريب يحيط نفسه بالتوتر الذي يثير الدهشة ((لا بالمعنى النفسي الحديث لهذه الكلمة، بل بالمعنى الذي يحتمل العذاب والتعذب والصبر والمعاناة، حيث ننفعل انفعال الدهشة، نجدنا نقف وقفة مع أنفسنا، نزرع إليها من الموجود الذي أدهشنا أن نجده أمامنا، وأن يكون على هذه الحال بعينها لا على حال أخرى، هذا التفكير من الموجود وهذا الفزع منه هو في نفس الوقت فزع إليه ووقوع في أسره))<sup>3</sup>، وعليه يكون عنوان "الملهاة الفلسطينية" قد أدخل القارئ في منطقة ظلاله،

<sup>1</sup> عبد العزيز بومسهولي، الشعر الوجود والزمان، رؤية فلسفية للشعر، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، دت، ص: 12.

<sup>2</sup> عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابية، دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، ط3، 2006، دار البيضاء، المغرب، ص: 72.

<sup>3</sup> عبد الغفار مكاي، مدرسة الحكمة، مؤسسة هندواوي، المملكة المتحدة، دط، 2017، ص: 85، 86.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

وهي منطقة السير قدما نحو النص بما أنه فضاء الاختلاف، والتعدّد، وفضاء الأسئلة المفتوحة على المعيش اليومي، والتاريخ، أي التي تبحث عن الموجود في الموجود.

تتصاعد وتيرة دهشة القارئ هنا بعد انكشاف غطاء جدلية العنوان "الملهاة الفلسطينية" بنصه ضمن أفق تاريخي، يحتوي فلسطين التاريخية احتواء ينتهي بالقارئ إلى مقام الرجوع إلى البدايات، بدايات النكبة والشتات، بدايات الوجد ومعاناة الوطن...؛ والبداية هنا هي بداية في الاستمرار في قراءة نص "الملهاة"، قراءة مشاركة في بناء الدلالات، وفق ما يتيح العنوان من استراتيجيات، توجه القارئ إلى التوغل في النص ضمن حوار يفتح بالفهم، والتأويل؛ فلم يعد العنوان "الملهاة الفلسطينية" مكتفيا بوظيفة التسمية فحسب بل غدا يثير، ويشير إلى ذلك الحيز الجغرافي "فلسطين" المغرق في الزمن التاريخي، مُشكلا في كتابة سردية غايتها تمثيل المنسي وإخراجه من خانة التهميش، إلى فضاء الاعتراف السردية الذي يراد للقارئ عمّا ألفه، وعرفه عن فلسطين من انهزام، أو انكسار في منجز يقرّ بالمقاومة السردية المضادة لكل أشكال الإلغاء والانمحاء الذي مارسه السردية الصهيونية على الأرض الفلسطينية، وهويتها، وتاريخها وأرادت أن تخرس صوتها، وأن تلغي ذاكرتها، في تزييف، وتهميش للتاريخ، والواقع، هذا ما يثير اندهاش القارئ في مفارقة بين "الملهاة"، و"المأساة"، ليحقق العنوان وظيفة تفريد، وخصوصية شعورنا التاريخي السردية بفلسطين، بأنها وما تعانيه من ألم التفجع لم ينهيه، لا اغتصاب الإنسانية في فلسطين، ولا تزييف الحقيقة من قبل الآخر الصهيوني، بل تريد مواصل مسيرة إيصال صوت تُبلّغ به حكايتها عن هويتها المجرّحة.

تتخذ فلسطين حضورا مغيبا ضمن العناوين الفرعية لنص الملهاة، وفي غيابها دليل على حضورها الذي استوطن العنوان الرئيس، فهي دال يبحث عن مدلوله وما العناوين الفرعية إلا تجربة فاعلة في استحضار فلسطين من وطن الغياب، إلى أرض السرد، أرض الإنصات والاعتراف، والحضور فإذا كان لكل رواية مسمّاها الخاص، مثل: ((طيور الحذر، أعراس آمنة، ظلال المفاتيح، تحت ضحى الشمس، زمن الخيول البيضاء، قناديل

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

ملك الجليل...))، فإن هذا التشكيل المتعدّد من الملهاة الفلسطينية، يؤدي إلى تأجيل المعنى وفق جدلية الحضور، والغياب بهذا يوضع القارئ مرة أخرى في مقام انتظار تحديد مسارات القراءة، وفق اقتراح العناوين الفرعية التي تجدد اللقاء بتجديد آليات التأويل، والتواصل مع القارئ.

إن مقاربة العناوين الفرعية هي استئناف لقراءة العنوان الرئيس "الملهاة الفلسطينية"؛ إذ تتحدّد بدايات مسار القراءة التأويلية انطلاقاً من فلسطين، وبحثاً عنها داخل مبدأ التكامل والامتداد بين العنوان الرئيس، والعناوين الفرعية، بما هي الفضاء المجدّد للقراءة، التي لا تتمفصل عن جوهرها الحيوي "فلسطين" إلا بقدر الاقتراب مجدداً منها فهما، وتأويلاً، وهذا ما قد تكشف عنه الدلالات الثاوية خلف استعارات، وانزياح العناوين الفرعية للنصوص "الملهاة الفلسطينية".

من أجل ذلك، وتمثيلاً لهذه الحيوية القرائية، يتجه البحث في استنطاقه، وقراءته إلى اقتصار اختياره على عنوانين فرعيين، هما: "طيور الحذر" و"ظلال المفاتيح"، وإذا كان اختياره ما يترجم تميزهما عن باقي العناوين، إلا أن فيه رهان على أكثر الصيغ استقراراً وخصوصية في تمثيل لجدلية الحضور، والغياب، ولعل أكثر الحجج في تأكيد هذا الاختيار أن المقام مقام إشارة وتمثيل، وليس مقام تقرير كامل للعناوين.

إن الحديث عن حضور فلسطين بمعنيّة عنوان "طيور الحذر" لن يكون إلا فعلاً موجهاً لعملة قراءة العنوان الفرعي، نحو مسار اكتشاف خصوصيته التي تأتي أن تتحقق قراءة، إلا في ظل فاعلية العنوان الرئيس "الملهاة الفلسطينية"، ليتهاً بذلك وجود العنوان "طيور الحذر" بشرط قرائي، وهو اقتراحه الحميمي "فلسطين" في علاقة عضوية تتجلى فيها قوة التماسك النصي بين العنوان الفرعي، والعنوان الرئيس، وإذا كان السؤال هو الذي يعنق القارئ من التكرار والاختزال فإنه يثير هنا أسئلة -وفق هذه العلاقة- على نحو: ما هي الإمكانيات التأويلية التي يفتحها عنوان "طيور الحذر" للقارئ في تحقيق فاعلية

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

القراءة؟، وكيف يكشف عن هويته الفلسطينية وهو في مسار الاقتراب من النص؟ وما هي الدلالات التي يتيحها للقارئ لتقوية مسار القراءة والتأويل؟

يعد الدخول بعنوان "طيور الحذر" إلى منطقة الحوار، والإنصات إلى وقع معانيه، ممارسة تأويلية تحت على استئناف القراءة، وتفعيل دلالات تكشف عن هويته الثاوية خلف مبناه اللغوي والتي لا تدرك إلا من خلال حركية التأويل المجددة لحياة الفهم، بين إمكانية السؤال الموجع لعملية القراءة، والأجوبة الممكنة التي تفيض حيوية عندما تكون كلمات العنوان حُبلى بالعذاب والعناء الذي تجرعه نص الملهاة، إذ يفتح العنوان على أسس من الحيرة، والدهشة في سؤال يبقى يطارد القارئ فارضا سلطته الحضورية، لماذا اقترنت البراءة بالعنف، والصراع؟

إن الترحال في قلب الجملة "طيور الحذر" ومقاربة صراعاها بين البراءة، والخوف، وبين الجمال، والعناء، ليقوي ويمدّد في توتر فعل القراءة من أفق مباشر إلى أفق غير مباشر تتحقق فيه دلالاتها فهما، وتمثيلا، لعالم النص الذي يمهد له العنوان "طيور الحذر" في مركب إضافي حدده كلمة "الحذر" المعرفة بأل التعريف، والتي تفيد تحديد الحذر، وتخصيصه بالطيور دون غيرها، لتتأزم علاقة القارئ باللغّة، ويحدث الدهشة في علاقات غير مألوفة بين الطيور، والحذر و((هي الحال التي يفتح لنا فيها وجود الموجود ويكشف عن نفسه))<sup>1</sup> في غير ما اعتاد القارئ أن يراه على تلك الصورة، التي يكسر بها أفقه، ويعرج به على ممارسة التأويل على النحو الذي يمهد له، ويضعه في طريق الدخول إلى النص.

من منطلق أن((التأويل هو عملية الفكر الذي يتكون من ذلك المعنى المختبئ في المعنى الظاهر، ويقوم على نشر مستويات المعنى المنضوية في المعنى الحرفي))<sup>2</sup>، لذا

<sup>1</sup> عبد الغفار مكاي، مدرسة الحكمة، ص: 85، 86.

<sup>2</sup> بول ريكور، صراع التأويلات، دراسة هيرمينوطيقية، تر: منذر عياشي، ومراجعة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2005، بيروت، لبنان، ص: 4.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

فإن ممارسته تؤدي إلى كشف حمولة عنوان "طيور الحذر" عبر إحالات دواله إلى عمق رمزية الطيور من براءة، ونقاء، وصفاء، وحرية، قد اختزل كل هذا الجمال في كلمة إذا ذكرت انتفى معها الأمن والأمان، والجمال؛ فالحذر لا يمارس إلا بوجود الهلع، والخوف، إذ طمست بقبحها كل جميل، وأضحت الطيور في موقعها في حالة طارئة مفزوعة مرعوبة قلقة، ومضطربة تستدعي فهما لإحالاتها، ورمزيتها تحت وطأة الاحتراس، والانتباه، واليقظة، من هنا قد يشرع القارئ في طرح السؤال قصد تعميق الفهم، بتجلي حقيقة هذه الطيور الحذرة، فلماذا الحذر، وممن تحذر؟.

إن التحري عن هذا الوجود المضطرب، والقلق الذي نبأت به كلمة "الحذر" قد يؤدي إلى تعميق فهم دلالات، ومكونات العنوان بالكشف عن الإيحاءات الرمزية لكلمة "طيور" التي ترمي بتكثيفها لأن تكون مسارا استعاريا، يدمر المعنى الحرفي، ويتيح لمعنى جديد أن يظهر، محملا بطاقة إيحائية تثري العنوان، وتمنح له عناصر من القوة الاستعارية، وذلك ((الخلق إشارة جديدة تتيح لنا أن نصف العالم (أو نعيد وصفه بمعنى أصح)، أو جزء من العالم كان ممتنعا على الوصف المباشر، أو الحرفي، إن اللغة الشعرية تدفع عالما جديدا إلى الظهور ذلك هو عالم العمل الشعري، هذا العالم الشعري يندمج بالعالم الحياتي، وينصهر بعالم الفعل اليومي ويمثل بالنسبة لي عالما ممكنا، عالما بوسعي أن أعيش فيه، وأعمل، وأعاني، وباختصار يتيح لنا الإبداع الشعري للاستعارة أن نقول شيئا ما جديدا عن عالم خبرتنا المعاشة))<sup>1</sup>، وعليه يكون عنوان "طيور الحذر" على هذه الشاكلة شاهدا على ولادة عالم جديد، عالم استعصى عن الوصف، والكشف، إلا بطاقة استعارية اختزلته، وكثفته، ومكنته من الخروج من ظلمة الانكسارات، والإلغاء، إلى فضاء الحرية، والاعتراف ف—((رمزية الطيران في جميع مستويات الثقافة، وعلى الرغم من الفروق الكبيرة في السياقات الثقافية والدينية، إنما تعبر بصورة دائمة عن تجاوز الشرط البشري،

<sup>1</sup> عادل مصطفى، فهم الفهم، مدخل إلى الهيمنوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2008، ص: 458.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

وعن التعالي والحرية))<sup>1</sup>، لكن بأي معنى نفهم هذه الحرية، وقد كبلها الحذر؟، وأي طيور هذه التي لا يُحدث صوتها صدى؟

إن هذه الأسئلة تجر القارئ نحو فهم عنوان "طيور الحذر" في إطار من الخصوصية التي تخصب فعل القراءة، بناء على ما فرضته علاقته بفلسطين التاريخية -متمثلاً سبق أن تبين ذلك أعلاه- من جهة، وبلاغته الرمزية من جهة ثانية، ((وهنا يصبح الرمز ما سماه ريكور الاستعارة الحيّة، ومهمة التوقف عند الرمز ليس فقط كشف المعنى الباطن له بل محاولة اكتشاف العالم الذي يحيلنا إليه، بعد أن نكون قد كشفنا عن كل القوى الخفية التي كانت تستتر وراءه))<sup>2</sup>، وهي قوى تتجلى عندما يرتد فيها الرمز إلى فضاءات التأويل المفتوح على إمكانات دلالية، تمكن القارئ من مواصلة القراءة في تعميق الفهم، بتجلي، واستظهار العالم الذي يحيل عليه العنوان بكثافته الرمزية، التي تؤسس لذلك التعالق بين عنوان "طيور الحذر"، وكلمة "فلسطين" تعالقا يساهم في خلق نوع من التوتر الجدلي، الذي يرتفع بمستوى الفهم من مصاحبة العنوان في بنائه اللغوي، إلى محاولة امتلاك الدلالات المخبوءة وراء لغتها التي تحتاج بدورها إلى فهم، وتأويل.

يستفرد عنوان "طيور الحذر" برمزية تنبئ عن نوع من الاضطراب الذي يحول بين فلسطين، وحريتها، أو بينها، وبين واقع آمن، يحملها على الاحتراس، والحذر من القابض على حريتها، والسالب لها، فالعالم الذي تحيل عليه رمزية "طيور الحذر"، هو عالم قد انتهكت فيه البراءة، والحرية، وكل ما هو جميل...حتى أضحت المأساة عنوانا للحكاية، حكاية فلسطين السلبية، التي ولدت من قلب العناء، والصراع في حيرة، وقلق لا تفسير لحالها سوى أن البراءة قد قُتلت، فأضحى عالم فلسطين عالماً موزعاً بين التشطي، والتمزق، والشتات، عالم الضحية التي لا صوت لها سوى المقاومة أمام جلادها، الذي

<sup>1</sup> ميرسيا إلياد، الأساطير والأحلام والأسرار، تر: حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، سورية، (دط)، (دت)، ص 174 . 130

<sup>2</sup> بول ريكور، الذات عينها كآخر، تر: جوج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2005، بيروت، لبنان، ص: 43.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

أراد كبت صوتها باستئصال وجودها من أرضها، وتشويه تاريخها بمحو ذاكرتها، بهذا فإن عنوان "طيور الحذر" وما اقترن ((به من احتمالات دلالية تفتح للقارئ أفق انتظار، إما للمساءلة أو لإعادة فهم منطق الحكاية بما يكثف لحظاتها ويحدّد محكياتها))<sup>1</sup>، وفق سرد تاريخها الذي لا يخرج عن النكبة، والمقاومة، والذاكرة والهوية، والشتات، والضحية، والتاريخ... وهي مفردات، وإن كانت ذات سياق تاريخي إلا أن السرد المتخيل يتخللها لاستظهار المختبئ خلف ما قيل لاكتشاف ما لم يقله التاريخ الرسمي وما لم يكتمل من حكاية فلسطين بعد.

انطلاقاً من هذا الفهم فإن عنوان "طيور الحذر" يتحرك ضمن فضاء فلسطين، فضاء الاكراهات، والمآزق، مثقلاً بدلالات تاريخية متخيلة عن فلسطين؛ إذ يغدو معها عنواننا مسكوناً بالعناء، والصراع، والعبء الثقيل، وتغدو هي معه في منطقة الخطر، والحذر من الآخر الذي يقف بينها، وبين حريتها، لتختزل فلسطين، ومعاناتها في عمق عنوان "طيور الحذر"، ويتجلى توتر متخيل يحوز به العنوان على هوية فلسطينية، تنذر القارئ بأنه على وشك الاقتران بنص الملهاة المسكون بالتمزق، والتشطي، لحمله الثقيل "للقضية الفلسطينية"، لذا على العنوان أن يسعف القارئ بأن ((يكون مثيراً، ومختصراً، ومركزاً يحمل مجموعة معلومات في شكل مورفولوجي صغير، غير مكتمل، يدفع القارئ إلى طلب الزيادة مجموعة معلومات))<sup>2</sup> تمكنه من ملاحقة أسئلة العنوان في شكلها النصي\* الذي يدعو إلى اقتفاء أثرها بحثاً عن المحتمل والممكن من إجابات في حكاية فلسطين،

<sup>1</sup> عبد الفتاح الحجري، عتبات النص البنية والدلالة، منشورات الرابطة، ط1، 1996، الدار البيضاء، المغرب، ص:17.

<sup>2</sup> شعيب حليفي، النصّ الموازي للرواية (استراتيجية العنوان)، مجلة الكرمل، ع46، نيقوسيا، 1992، ص:96.  
\* لقد تعمد البحث بالاكتفاء بجملته العنوان، دون الدخول إلى النص مع أنه عنصر مهم في فهم العنوان، وسبباً أساسياً في قراءته، تعمد ذلك البحث لأن نص "طيور الحذر" يمنحنا فهماً جديداً للحرية، فهما فلسفياً استقرد به المبحث الرابع، من الفصل الثاني، إن شاء الله.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

وهي تعبر عن مآزقها التاريخي الوجودي، واكراهات الواقع، وتعلن عن صوتها المكبوت.

إن الإعلان عن وجود فلسطين التاريخية وجودا سرديا لمرهون بإعادة امتلاك فلسطين قراءة، وتأويلا عبر متخيّل يكشف به عن ذات مغايرة هي ذات السرد الفلسطيني، لذا فـ ((.يجب أن نكرر قصص الحروب والانتصارات ولكن -وبالمثل- لا بد أن نحتفظ بذكرى الآلام والجروح حتى لا ننسى، وحتى لا يتكرر رعب الأمس))<sup>1</sup>، وعليه تكون رؤية فلسطين في نص مقروء هي رؤية تنقلها من طور الكمون، إلى طور الحضور السردى الفاعل في ذاتية القارئ، ومتفاعلا بالقراءة، والتأويل؛ إذ تتجلى قراءتها في حركة ترحال من دلالة إلى أخرى، بفعل ما يتيح الحراك السردى من فهم، وتأويل للحياة الفلسطينية؛ وأن نفهم فلسطين، هو أن نفهم وجودها السردى بطريقة مغايرة، وأن نؤول هو أن نوضح شكل الكينونة في العالم المعروضة أمام النص<sup>2</sup>، ولعل في تمثيل عنوان "ظلال المفاتيح" محاولة للقبض على دلالة فلسطين دلالة مغايرة، ترتد فيها كل دلالة تاريخية جازمة، أو يقينية إلى المراجعة.

يمضي عنوان "ظلال المفاتيح" -على هذا النحو- في فضاء فلسطيني تاريخي، وفي تحيين دلالات حضور فلسطين حضورا تأويليا، إذ يتأسس في تركيبته اللغوية على بعث أسئلة من عمق رمزية "ظلال المفاتيح"، لماذا ظلال؟ ولماذا المفاتيح؟، أو ما هو الوجود الدلالي الذي تفتحه هذه العتبة في مسارها الفلسطيني، أو هذه البداية؟، بخاصة إذا كانت كل البدايات هي فتح للنص، واستئناف لوجوده، أو هي احتفاء بمقوله، فالبداية ((ليس مجرد جملة تم التلطف بها، أو مجرد نص سبقت كتابته، بل هو شيء لم يقل أبدا))<sup>3</sup>، ولم

<sup>1</sup> بول ريكور، الذاكرة والسرد، حوارات، ص: 15.

<sup>2</sup> ينظر: بول ريكور، من النص إلى الفعل، ص: 88.

<sup>3</sup> ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يافوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2، 1987، ص: 26.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

يوجد إلا ليحمل الموجود للقول والظهور<sup>1</sup>، عبر قراءة تحفر في بنيته اللغوية بحثا عن سبيل تفكك به الأبعاد الرمزية لعنوان "ظلال المفاتيح".

إن ممارسة فعل الإنصات لرمزية عنوان "ظلال المفاتيح" ليحمل القارئ إلى تجلي فلسفة سيرة المفاتيح في تاريخية مفاجئة، تروي قصة الوطن، والنكبة، والاقتلاع، والشتات... حتى تتسع الدلالة لتشمل حق العودة إلى أرض فلسطين، في بنية شديدة الاقتصار اللغوي، تومئ وتشير إلى تلك البنية الرمزية التي تفتش عن المهمش الذي لا يُنسى، منتصرة معنويا، ورمزيا لحق المفتاح الفلسطيني، في مقابل دبابة الآخر الصهيوني، التي لا تخرج عن غايتها التدميرية إنه تقابل يبرهن على قوة عمق الصمود، ومقاومة المحو، في تأكيده على قيم لا تتلاشى مع الزمن، فالمفتاح هو رمز الحقيقة التي تخيف الآخر الغاصب، وتؤرقه بتذكيره بعجزه أمام شيء يسري في الذاكرة ولا ينمحي (مفتاح بيت الفلسطيني)\*.

<sup>1</sup> ينظر: مارتن هيدغر: أصل العمل الفني، ترجمة: أبو العيد دودو، الجزائر: منشورات الاختلاف، ط1، 2001، ص 97.

\* ((بحسب مؤرخين حمل الشعب الفلسطيني مفتاح العودة لأول مرة في الذكرى الـ50 للنكبة عام 1998 في إحدى المسيرات الجماهيرية الكبيرة التي جابت شوارع مدينة غزة، وكانت بمثابة الصاعقة للعدو الصهيوني وفق التقديرات وقتها؛ حيث برز مفتاح العودة كرمز ثابت وحق للاجئين الفلسطينيين في العودة إلى دياره، وكان طرف القصة بدأ بعدما شنت العصابات الصهيونية هجماتها تجاه أبناء الشعب الفلسطيني في عام 1948 حيث خشيت العائلات الفلسطينية من تكرار مشاهد الدمار والخراب والقتل بأبنائهم ونسائهم فأخذوا مفتاح البيت وتركوا كل ما في المنزل من أمتعة، لأنهم متأكدين من العودة إليه في يوم ما، وبعد توقف العدوان عادت بعض الأسر إلى منازلها ليقتتوا بعضاً من حاجياتهم، ومعهم ولد رمز العودة "المفتاح" الذي يورث من الأجداد إلى الآباء إلى الأبناء. وتطور شكل المفتاح من "الضبة الخشبية" وهذا محفوظ لدى الكثير من العائلات الفلسطينية المهجرة، ليصل حديثاً للصنع من الحديد، وأخذ المفتاح أشكالاً أخرى، وتحول إلى عنصر أساسي في قصص وأشعار اللجوء، وفي الفن التشكيلي، وبات ينافس الكوفية في الدلالة على الهوية الفلسطينية، وصمم البعض أكبر مفتاح إظهاراً لمدى الاهتمام به، وما زال الكثير من اللاجئين من سكان مخيمات الضفة وغيرها يحتفظون بمفاتيح بيوتهم التي أحضروها معهم عام النكبة.)) أيقونة مواجهة... لماذا يؤرق مفتاح العودة لفلسطيني الصهينة؟! الأربعاء - 16 مايو 2018 - 4:17 م العدسة -

يتكفل عنوان "ظلال المفاتيح" بأن ((يضيء الطريق الذي ستسلكه القراءة))<sup>1</sup> نحو فتح النص على إشكالات واقعية، وتاريخية تعنى بالإنسان الفلسطيني المعذب بإبعاده عن أرضه، والمشتت في وجوده، والباحث عن صوته، وهويته؛ إذ ثمة أفراد وتمايز في رمزية المفتاح المثقل بكثافته التاريخية التي تعلن عن علاقة جدلية بين حق عودة الفلسطيني إلى وطنه الذي سلب وسرق منه أيام الاقتلاع، ومفتاح بيته، فيها أضحى كل واحد يفضي إلى الآخر في علامة مطلقة تؤرخ إلى ذلك الحق المسلوب، ودليل على وجود الفلسطيني التاريخي على أرضه، وشعار يرفع في وجه كل من همّ بأن ينكر عليه حقه في أرضه، ووطنه، ((فالمفتاح يرتبط ارتباطاً مباشراً بالإنسان الفلسطيني دون غيره من الشعوب قاطبة وبات رمزا لوطن كامل. والظلال تشير، في دلالتها، إلى شيء موجود لا نراه ولا نلمسه، لكنه في الواقع هو ظل لشيء موجود، مرئي وملموس.))<sup>2</sup> بالصوت الذي يحدثه، أو بصداه رمزيا، وتأويليا.

يُستدرج القارئ إلى عمق الاحتواء الدلالي للعنوان "ظلال المفاتيح" عبر تشكيلته الرمزية التي ثورت المفاهيم في قلب التاريخ، فأضحت صرخة تسمع بالوصول الممكن والمحتمل إلى فلسطين من منطلق النكبة، والشتات، والمقاومة، إلى الحق الشرعي بالعودة عبر ظلال، لا تفصح عن نفسها إلا بكثافة رمزية تنبئ أن ((الرمز لا يكون أسيراً. ولا يمكن استلابه أو ابتلاعه أو تحويله أو القضاء عليه. يبقى الرمز في الذهن والوجدان

---

معتز أشرف مجلة الرأي الإلكترونية <https://thelenspost.com> تاريخ الاطلاع 22 سبتمبر 2021، سا: 9 صباها.

<sup>1</sup> عبد الفتاح كيليطو: الغائب (داسة في مقامة للحريري)، دار توبقال، المغرب الدار البيضاء، ط2، 1997، ص 27.

<sup>2</sup> رياض كامل، الذاكرة الفلسطينية في المواجهة بين مفتاح ودبابة، موقع الحوار المتمدن، العدد: 6437، ت ن: 2019، 12، 14، سا ن: 22:24، <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=658909>، ت

إ: 3، 5، 2021، سا إ: 11:55

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

والخيال. ويظل الرمز حاملاً للدلالة ومؤشراً عليها<sup>1</sup>. وعليه، يكون هو الظلال التي لا تُمحي من الذاكرة، إذ تسكن إليه تجسيدا، وتشخيصا للهم الفلسطيني، ويفصح هو عنها بجدلية تتعمق في تاريخية التجربة الإنسانية الفلسطينية، التي تروي الألم الفلسطيني.

وفق جدلية الرمز، والذاكرة يتيح للقارئ التعرف على مسارات تأويلية لا تكف عن إيجاد وفتح علاقات يعمق بها فهم رمزية المفتاح، وظلاله، بما أن رمز المفتاح قرين الذاكرة، ونقيض النسيان، والاستلاب، لذا فإن عنوان "ظلال المفاتيح" ((يشغل كجملة مضادة في النص، لأن كل ما في النص بعث وإحياء وتذكر))<sup>2</sup>؛ لفاجعة الأرض، والإنسان، والتاريخ الفلسطيني...، في إيداع سردي شديد الأفراد، والخصوصية، فرضهما كيان سردي متخيّل من خفايا الوجدع الإنساني، وفي عمق فاجعة الفلسطيني في وطنه، وأرضه، وبيته، وعائلته...، يستدعي نص "الملهة الفلسطينية" التأويل كضرورة إنسانية، أو كممارسة قرائية تستنبط، وتجاوز، وتكشف وتستنتق، وتتصت لمسيرة عناء الشعب الفلسطيني، في استحضاره لذاكرة سردية تحيّن التاريخ والواقع، والإنسان في بحثه عن شرطه الوجودي، وهو: الهوية الفلسطينية التي اجتاحت النص وفرضت فيه عوالمها الواقعة، والممكنة، والمحتملة عبر اللغة، والمتخيل، وما القراءة التأويلية إلا مغامرة دلالية تستأنس بالتاريخ، والمتخيّل، وإنصات للذات المضطهدة عبر تاريخها المتجذر في أرضها، وسبيل النص للكشف عن هويته؛ من أجل ذلك يكون ((التأويل سيروية في التكوين وفرضية للقراءة وإجراء تحليليا. حيث لا يمكن الحديث عن تأويل جاهز، وإنما يعود إلى فرضيات للتأويل وليس هناك تأويل مطلق، بل يتعلق الأمر بمسارات تأويلية))<sup>3</sup>

<sup>1</sup> حسن حنفي، رموز فلسطينية باقية، ت ن: 31، 8، 2006، موقع المفتاح

<sup>2</sup> <http://www.miftah.org/arabic/Display.cfm?DocId=5903>، ت إ: 7، 12، 2022، سا: 30: 23.

<sup>3</sup> يوسف تغزاوي، مفهوم القراءة وأثرها في إنتاج الخطاب الأدبي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2016، ص: 114 .

<sup>3</sup> يوسف تغزاوي، مفهوم القراءة وأثرها في إنتاج الخطاب الأدبي، ص: 105.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

---

تولد ضمنها علاقات تفاعلية بين القارئ، والنص، أساسها حركيّة سؤال: أي عبء يلقي على كاهل نص الملهاة، وقد اتخذ من القضية الفلسطينية عالما سرديا متخيلا له؟

### المبحث الثاني:

فاجعة النكبة، من سرديّة الذاكرة إلى إعادة تشكيل الهوية الفلسطينية.

يعد نص "المهاة الفلسطينية" نصا في الذاكرة، أو نصبا تذكاريًا يُفعل الماضي انطلاقًا من الحاضر بحثًا عن ما لم يكتمل بعد من إمكانات الماضي -على حدّ قول بول ريكور<sup>1</sup>- فلذاكرة الفلسطينية وجود سرديّ متخيّل، وواقعيّ أيضًا؛ إذ تتعلق الذاكرة بالسرد تعلقًا تتجلى فيه تجربة إنسانية عميقة الأثر فيما يرويّه نص "المهاة الفلسطينية"، وتستنك إليه الذاكرة تمثيلًا لفاجعة النكبة، وتؤيلا للماضي..، وإذا كانت غاية السرد هنا هي الحفر في طبقات التاريخ باسترداد الماضي بحثًا عن فاجعة النكبة، فإن عالم الضحية يضج بأسئلة، كيف حدثت؟ ولماذا حدثت؟ وعلى أي أرض حدثت؟، وفي أي زمن حدثت؟ إن أقصى ما يريد أن يصل إليه نص "المهاة الفلسطينية" -وهو في مسلك الاسترداد والتسريد، والاسترجاع- ليس إنجازا لسردية بكائية تثير الوقوف على الأطلال، وإنما إنجاز سرديّة مضادّة لكل أشكال التغييب الذي مورس على فلسطين، وإنقاذ الذاكرة الفلسطينية من التلفيق الاستعماري.

ولعل السبيل السردى المضاد الذي تتكشف فيه فاجعة النكبة، -بما هي كسر للإنسان الفلسطيني، وتزييف للتاريخ، وانمحاء لذاكرة الأمة، واستيلاء على الأرض من قبل الآخر الصهيوني-، هو في ترميمها للهوية الفلسطينية سردا، وجبرها للإنسان، والأرض تاريخا؛ إذ ((أن صورة النكبة هي الوجه الآخر لصورة تبلور الهوية الفلسطينية، فالنكبة كما نترأ في السرد، وفي الإبداع الفلسطيني عامة، هي الوجه الآخر لولادة فلسطين أخرى لا فلسطين العثمانية، أو الانتدابية، بل فلسطين بوصفها هوية وطنية مقاومة))<sup>2</sup>، أُسندت للسرد لقول فاجعة النكبة بوصفه حاملا للزمن الإنساني، وفاعلا في التاريخ، ومتفاعلا

<sup>1</sup> ريتشارد كيرني، بين التراث واليوتوبيا: مشكلة التأويل النقدي للأسطورة، ضمن كتاب: الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور، ترجمة وتقديم: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص: 92.

<sup>2</sup> فخري صالح، النكبة والرواية، وتبلور الهوية الوطنية الفلسطينية، مجلة الجديد، العدد: 60، عنوان العدد: الرواية والتاريخ، استلهم التاريخ في كتابة الأدب، كانون الثاني، 2020، ص: 48.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

بالذاكرة، باختصار إنّ فاجعة النكبة هي الصدمة التاريخية الفاعلة في اللحظة السردية لنص "الملهاة الفلسطينية"، فالنص بقدر ما كان تمثيلا لفاجعة النكبة، كان تأويلا لذاكرة فلسطينية، ولتاريخها، وتجاوزا لتزييف السردية الصهيونية..

تتخذ النكبة صورا متعدّدة لتتمظهر من داخل الإبداع، عبر تنشيط ذاكرة حيوية تشدّ على المقاومة التي ظلت محتجبة بفعل، وبقوة الآخر الصهيوني، إذ تعدّ ((الفاجعة هي فاعل الكتابة: أي أنها تكتب نفسها بلغتها ووسائلها وإشاراتها وترميزها))<sup>1</sup>، تقال بأوجه سردية مختلفة، تفتح التأويل على أسئلة الفهم، والمشاركة، وتقرب القارئ من عالم الفاجعة -بما أنه الوجد السردي لنص "الملهاة الفلسطينية"-؛ فالنكبة، وهي الذاكرة التاريخية المفجوعة للفلسطيني، والعربي، والصدمة التاريخية الفارقة في خصوصية وجود الفلسطينيين؛ إذ بعثرتهم، وشنتهم بفعل عمليات التطهير العرقي، والتهجير القسري الذي قام به الآخر الصهيوني متكررا للوجود التاريخي للفلسطيني، إلا أن النكبة هي الفعل التاريخي الذي جمعهم على هوية فلسطينية عنوانها وسبيلها، وأساسها المقاومة، وما الكتابة السردية إلا إحدى وسائل النموذج المقاوم<sup>2</sup>، أمام هذه الوضعية السردية لفاجعة النكبة، على البحث أن ينشغل ليس فقط بسردية حدث النكبة، وإنما كيف تحول الحدث الفاجع إلى جزء من الذاكرة الجمعية؟، أو كيف تحوّلت النكبة إلى جزء من الهوية الفلسطينية بعد أن شلتّ الفلسطيني، وسحبته من التاريخ؟

إن السرد هو أداة الفاجعة، ووساطتها في بعثها، وإنجاز فهمها، وتمثيلها ((فلم يعد الفكر ينظر للسرد كقول للعالم فحسب، بل هو استراتيجية رئيسية في بناء العالم، وأداة من أدوات بناء الفهم، والمعقولية فيه، فالسرد يسهم في ترتيب العالم على مستوى الذهن،

<sup>1</sup> لويس بلانشو، كتابة الفاجعة، ترجمة: عز الدين الشنتوف، دار توبقال للنشر، ط1، 2018، دار البيضاء المغرب، ص: 17.

<sup>2</sup> ينظر: رامي أبو شهاب، النكبة في الرواية "زمن الخيول البيضاء" لإبراهيم نصر الله: المتخيّل والوعي التاريخي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد: 151، السنة: 38، جامعة الكويت، ص: 251.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

والإرادة، ويوسع مسرح الممارسة والدلالة، فالسرد قول للعالم وصناعة له، فهو يسبق الممارسة، ويفتح لها آفاقا في الفضاء الاجتماعي<sup>1</sup>، تمكن القارئ من الخوض في عالم مختلف أساسه المشاركة في بناء معنى احتمالي، وممكن، يوصله إلى الإنصات للقول الذي لم يعتد عليه بعد، إلّا من حيث هو ذاكرة سردية تُتَوَرُّ الحدث قبل أن ينفصل عن الماضي تاريخا، ليتصل بالحاضر تأويلا، يقوّي ويمدّد في استظهاره للواقع الفلسطيني المجروح سردا، ولعل ((الحجة الأساسية، هي أن الحياة نفسها ما هي إلا بحث عن السرد؛ لأنها تجاهد من أجل اكتشاف صيغة للتغلب على تجربة الرعب والفوضى))<sup>2</sup>، لما يتيح السرد من فرص لحياة أخرى.

انطلاقا من هذا الدور الذي يقتدي به السرد في مقاومة أشكال التغييب، والانحاء التاريخي للجماعات، والأفراد، فإنه ((وعلى الرغم من كل التغيرات التي يمكن أن تحدث في أحد المجتمعات، (...)) يظل يمارس دور الحفاظ على الجذور الخفية للجماعة))<sup>3</sup>، وضمان لسيرورة هويتها عبر تاريخ يتوغل بعمق في مساراته، وانبعائه من حقيقة وجود الموجود "فلسطين التاريخية" هنا، والتي تأبى أن تتلاشى أمام مصادرة الآخر، وتلفيقه للذاكرة، واستلابه للأرض، وتغييبه للتاريخ، وعليه تكون "الملهاة الفلسطينية" نصا في الذاكرة يسرد تاريخا حقيقيا، لأمة فلسطينية حقيقية، ومن النص ما يدعم هذا التوجه القرائي، يقول المبدع الفلسطيني، نصر الله إبراهيم في مستهل روايته "زمن الخيول البيضاء": ((أنجز العمل على جمع الشهادات الشفوية الطويلة، التي أفادت منها (زمن الخيول البيضاء) بشكل خاص، بين عامي 1985، 1986، حيث قدّم فيها عدد من الشهود، الذين اقتلعوا من وطنهم، وعاشوا في المنافي، شهاداتهم الحية عن تفاصيل حياتهم التي

<sup>1</sup> مالك الريماوي، أبجدية الحكاية الفلسطينية: حدثي جذّي فقال...سياسات المقاومة في "أمكنة السرد" و"سرديات المكان" مجلة رؤى تربوية، ملف العدد: التاريخ من النكبة إلى المقاومة، العدد: 27، ص: 37.

<sup>2</sup> بول ريكور، الذاكرة والسرد، حوارات، ص: 30.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص: 44.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

عاشوها في فلسطين، ومن المحزن أن هؤلاء الشهود قد رحلوا جميعا عن عالمنا قبل أن تتحقق أمنيّتهم الكبرى بالعودة إلى وطنهم<sup>1</sup>، وعلى مسار ذكر مرجعية الكتابة استهل بعض رواياته بتأكيد أن الشخصيات حقيقية، والأحداث حقيقية أيضا، فيما بناء قصة فلسطين كان قيد الخيال\*، وعلى قيد تشكيل حبكة سردية من أحداث متناثرة من عمق الزمن، والتاريخ تم تسريد "الملهاة الفلسطينية" ((هذه العملية يسميها هايدن وايت باستراتيجية التحريك، أي الرغبة الدفينة لدى الإنسان في عرض تاريخه وهويّته في حبكة سردية متماسكة ونقيّة بحيث يعطي لوجوده معنى ولتاريخه قيمة. وهو ما يجعل الهويات والأمم عبارة عن إطار متخيّل أو حدود متخيّلة تتشكّل بواسطة أدوات السرد والتخييل<sup>2</sup>)). اللذان يُفعلان الأحداث التاريخية، تفعيلا تغدو معه الحياة تروى، والقصاص تعاش على نحو متخيّل -على حدّ قول بول ريكور-.

إن التسليم بالمرجعية التاريخية، والواقعية لنص "الملهاة الفلسطينية"، قد يحيل القارئ إلى معايشة النص، ومصاحبته وفق سؤال نصيّ يبحث في سردية الهوية الفلسطينية عبر تفعيل ذاكرة فلسطينية حيّة تقترن بالخطيئة الكبرى في تجاوز للفاجعة النكبة، وإنصات للصوت الفلسطيني، وعليه تكون "الملهاة الفلسطينية" ((سردية تاريخية بصورة محسوسة

<sup>1</sup> نصر الله إبراهيم، زمن الخيول البيضاء، الملهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط6، 2012، ص:5.

\* في مستهل رواية "سيرة عين" ذكر المبدع نصر الله إبراهيم، مصدر كتابته، بقوله: ((استندت هذه الرواية إلى شخصيات حقيقية ووقائع حقيقية، لكنها بنيت بالخيال)).<sup>4</sup> سيرة عين، ثلاثية الأجراس، الدار العربية للعلوم ناشرون، فيما ذكر في مستهل رواية "قناديل ملك الجليل" مصدر كتابته لهذه الرواية، وهي سيرة ظاهر العمر، لتفصيل أكثر راجع، قناديل ملك الجليل، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط2، 2012، ص: 7، 8، 9.

أما روايتي "أرواح الكيمنجارا"، و"طيور الحذر" فهما تجربتين حقيقيتين في حياة المبدع، أما رواية "طفولتي حتى الآن" سيرة ذاتية مباشرة.

<sup>2</sup> عبد الله لبريمي، الزمن والسرد في فلسفة بول ريكور، مجلة الكلمة، ع:81، يناير، 2014، الموقع: <http://www.alkalimah.net> : ت ن: 27، 6، 2020، سا إ: 45: 14، ص:12.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

تصوغها تواريخ حقيقية<sup>1</sup>) تمس الفلسطينيين في عمق ذاكرتهم، ونكبتهم، ومعيشتهم اليومية... أي في عمق وجودهم، وهذا حجة قويّة في التمسك الفلسطيني بذاكرته، وهويّته، وأرضه، فـ((لو نظرت في بيت أي فلسطيني من أبناء الجيل الثالث بعد عام 1948 لوجدت شيئاً مثل مفتاح منزل أو رسائل أو مسند أو صكوك ملكية أو صور أو قصاصات صحف، حفظت لتبقى على (الـــــــــــــــــ) ذاكرة..))<sup>2</sup>، ولعل الإجابة عن سؤال: لماذا يعود المرء إلى الأحداث المحزنة؟، ولماذا لا يتقادم الحدث، وينمحي من الذاكرة، ويطويه النسيان؟، ما الذي يعمق الصلة بين النكبة والذاكرة، وبين الذاكرة والهويّة، وبين الفاجعة والهويّة؟.

تعد النكبة ذات خصوصيّة تاريخيّة إجراميّة في حق الفلسطينيين؛ إذ شلت المجتمع الفلسطيني، و قذفت به إلى أرض ليست له، وتحول معها من مجتمع ذا وجود تاريخي، وجغرافي طبيعي، إلى وجود طارئ في ممر الشتات، والتمزق، والتشرد... فالانفجار كان يستهدف انحاء الإنسان الفلسطيني، من تاريخه، وأرضه، وطمس هويّته، بسرديّة صهيونيّة فتكت بالشعب قبل استعمال الحديد والنار، وتم لها إخراس الصوت الفلسطيني بفاجعة، أو بصدمة النكبة غيّبته عن أرضه، وقطعت عنه مجرى تاريخه الطبيعي، وأدخلته بذلك في زمن الخرس المدمر؛ لأن الفاجعة تعدّت قدرة الإنسان الفلسطيني على فهمها، أو استيعابها، أو التعبير عنها، فقد كانت مدمرة للإنسان، وما امتدادها في الحاضر الفلسطيني إلا دليل على قوة خرابها، حتى أضحت النكبة ذاكرته التي يثبت بها للعالم هويته على أرضه، فـ((لا شيء يدل على الشعب الفلسطيني على هذه الأرض وحقه في الأرض إلا نفسه وذاكرته الجماعية، فكما تقوّتت هذه الذاكرة ازدادت قوة الإقناع بأن هذه البقعة من الأرض كانت وطناً للشعب الفلسطيني الذي ولد محلياً وترعرع محلياً جيلاً بعد

---

<sup>1</sup> إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 2014، ص: 146.

<sup>2</sup> إدوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص: 161.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

جيل<sup>1</sup>، فالنكبة حدثت ومازالت تحدث، بما أنها الذاكرة السردية الفاعلة في الهوية الفلسطينية، وحتى في الواقع اليومي الفلسطيني، عبر سلسلة من الأحداث التاريخية التي لا تكتمل صورتها إلا بذكر فاجعة 1948.

وفي كنف العناء والمأساة، وبين ثنايا نص "المهاة الفلسطينية" تتمو سردية مضادة للسردية الصهيونية التي زعزعت الوجود الفلسطيني في أرضه، وتاريخه، وما تسريد النكبة، والبوح بجرح لم يندمل، إلا دليل على مراجعة تاريخ رسمه الآخر وفق أهوائه وتزييفه، واستكمال لصوغ ذاكرة سردية تاريخية يواجه بها الآخر في اختراقه للإنسان، والأرض، والتاريخ، والهوية وضمن هذا الإطار من المقاومة، تتحول فاجعة النكبة إلى هوية فلسطينية تشير إلى حقه في الأرض، وترمم الضرر، بعد أن كانت مصدرا للكسر، والعجز، أضحت مع السردية المضادة مصدرا للقوة، وحجة في وجه الآخر تؤرقه، وتذكره بخطيئته الكبرى.

تتموضع فاجعة النكبة ضمن سردية مضادة تعضد الوجود الفلسطيني، و تمضي به نحو الاعتراف بهويته، و ترغم الآخر على الإنصات للطرف الذي غيبتة بسردية قوامها التزييف والاختراق؛ فإذا كانت فاجعة النكبة هي اللحظة العنيفة التي فتكت بالشعب الفلسطيني، وقطعت عنه مجرى حياته الطبيعية بتغيرات درامية انمحي معها كل ماضي سعيد، بحاضر عنيف، إلا أنها فرضت بتجلياتها المختلفة ذاكرة جمعية قوية، توغلت في نفسية كل فلسطيني وهي ((ووحدها، كانت قادرة على إنقاذهم من الاغتراب، ومن الافتراق عن الذات))<sup>2</sup>، حتى أضحت ذاكرة تسري في عمق التاريخ، وتبحث بنهم شديد عن المصير المرعب للفلسطينيين، تحملا واحتمالا، قصد سرده، وتأويله برؤية لا هم لها سوى الاعتراف بالوجود التاريخي للشعب الفلسطيني، لتكون ((الذاكرة أداة جمعية بالغة القوة

<sup>1</sup> لونغ يالينغ، ذاكرة النكبة وتأثيراتها في تبلور الهوية الفلسطينية، مجلة المستقبل العربي، السنة: 44، ع: 507. ماي 2021، ص: 23.

<sup>2</sup> أحمد سعدي، الذاكرة والهوية، مجلة الكرمل، العدد: 74، 75، 1 يناير 2003، ص: 14.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

لحفظ الهوية (...). إنها واحدة من الحصون الرئيسية ضد الانمحاء التاريخي، إنها أداة للمقاومة<sup>1</sup>، الفاعلة والمتفاعلة في تسريد الهوية الفلسطينية عبر القول السردى الذي يقر بأن هوية الإنسان الفلسطيني، هوية متجذرة في التاريخ، والأرض، باستحضار نص الملهاة لصورة فلسطين من التاريخ، والتي غيبها الآخر بقوله: "أرض بلا شعب"، فأى صورة اتخذتها الذاكرة وهي تشكل النكبة سرديا؟ وكيف سلكت النكبة، أو الفاجعة الماضي، لتجد وجودها حاضرا سرديا، والآن؟

يورط نص "الملهاة الفلسطينية" قارئه في الواقع، ويغرقه بالقول السردى الذي أعلن فيه عن ميثاقه العلني، بأن الأصل المرجعي للأحداث، وللشخصيات هو شهادة من كانوا جزء من النكبة، وطرفا من أطرافها المتبقيين من رفات الموتى، وأشلائهم، فلم تنته فاجعتهم إلا وهي عالقة بالذاكرة تمزقا، وشتاتا، وسردا...—((أن فعل التذكر يضمن استمرارية الخبرات والتجارب الماضية ودوامها في الحاضر والمستقبل، ومن ثمة تأسيس "الهوية" وضمان سيورتها، وهو ينطلق من كون أن الفعل التذكري ليس عملية فردية فحسب، بل حدث جمعي يمكن أن يمارس داخل الأسرة أو المجتمع أو الجماعة))<sup>2</sup>، التي اتخذت من سرد ذاكرتها ملاذا تحتمي به من أي انمحاء، أو نسيان للهوية، أو للأرض...حتى تغدو الممارسة السردية في معانقتها للأسئلة الكبرى التي تلامس الإنسان الفلسطيني في كينونته، ووجوده، هي ذاتها تجاوزا لكل عجز، أو هزيمة ف—((كل المآسى يمكن تحملها لو أنك وضعتها في قصة أو سردت قصة حولها، ومع ذلك فهذا السرد قادر على أن يجعل المآسى محتملة وعلى أن يجعلنا قادرين على تحمل تراكمها))<sup>3</sup> بالانطلاق من هول الحدث فهما، وتأويلا، عبر وساطة سردية تحفر في الذاكرة باسترجاع الفاجعة للرد بالكتابة على العنف، والإجرام الذي مورس على الجماعة الفلسطينية.

<sup>1</sup> ادوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، ص: 161.

<sup>2</sup> زهير سوکاج، الهوية بين الكتابة التاريخية والذاكرة الجمعية نحو نموذج ذاكراتي فلسطيني، رؤى تربوية، ملف العدد: التاريخ من النكبة إلى المقاومة، ع27، ص: 82.

<sup>3</sup> بول ريكور، الهوية والذاكرة، ص: 33.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

إن الاعتماد على الشهادة في رسم العوالم الممكنة لنص "المهاة الفلسطينية"، والخوض في الماضي تجسيدا، وتمثيلا سرديا لحدث النكبة، لهو الحجة في تسريب الحقيقة التاريخية، التي لا يفهما القارئ إلا بالعيش في كنف ((المتخيل بالرغم من أنه (المتخيل) يتعالى على الواقع فإنه حاضر في الحياة في كل لحظة من لحظات التواصل اليومي، سواء مع الذات أو مع الآخر، لأنه يكسر التكرار ويخرج عن أطر المألوفة التي تميز اللغة المعتادة، ويخلق إيقاعا زمنيا خصوصا ممتدا لا علاقة له، بالضرورة، بالزمن العام، إن المتخيل حين يخلق هذه الزمنية الخاصة فإنه، في حقيقة الأمر يبدع وجودا مختلفا))<sup>1</sup>، وجود يتعمق في التجربة الإنسانية تعمقا تتجلى فيه علاقة نوعية يتداخل فيها، المتخيل بالذاكرة الجمعية، حتى تظل التجربة الإنسانية حيّة، ومؤثرة، وهي الفاعل الحقيقي في الذاكرة القائمة، والضّاجة بتفاصيل حدث النكبة، فبإمكانيات المتخيل تعيش الذاكرة الجمعية الفلسطينية في نص "المهاة الفلسطينية" الماضي بصيغة الحاضر سردا، واستذكارا، وعليه يكون الدور الذي أحيل للشهادة \_وهي الحاضر السردِي\_ في بعدها التاريخي، والمتخيل هو: "البناء البيني" بين الماضي والحاضر، وبين القراءة، والتأويل، وبين الذاكرة، والمتخيل؛ فـ ((الشهادة هي الصلة الأخيرة بين الخيال والذاكرة، وذلك لأن الشاهد يقول: كنت طرفا بين أطراف القصة، لقد كنت هناك، وفي الوقت نفسه يقص علينا الشاهد قصة ذات غرض مفعم بالحياة، ومن ثم يوظف قوة الخيال في وضع الأحداث أمام أبصارنا كما لو كنا هناك، ربما تكون الشهادة طريقة لجمع الذاكرة والخيال معا))<sup>2</sup>، في استحضار ما كان غائبا تاريخيا، وإذا كان المتخيل هو وساطة تتحدّد بها استراتيجيات الذاكرة في السرد، فإنه وسيلة أيضا يتحدّى بها الإنسان الفلسطيني، النسيان ويتغلب على رعب فاجعة النكبة، والاقتلاع.

<sup>1</sup> نور الدين أفاية المتخيل والتواصل (مفارقات العرب والغرب) دار المنتخب العربي للدراسات والتوزيع والنشر، لبنان، بيروت، ط:1 1993، ص: من 5 إلى 10.

<sup>2</sup> بول ريكور، الذاكرة والسرد، ص:130.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

بهذا الدور تكون الشهادة قد استوطنت السرد بحراك فاعل، يستدرج القارئ إلى الإنصات للحقيقة التي لم ترو بعد، ولن تكتمل إلا بالاعتراف بحق الفلسطيني المغلوب الذي أبعده الآخر عن التاريخ بسرديّة زائفة، قائمة على مقولة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، وذلك عبر تمثيل الشهادة لقوة الشرّ المتجذر في الآخر الصهيوني، والذي تكالب على الفلسطيني كاسرا كلّ المعايير الإنسانيّة، بخطيئته الكبرى التي حققت فاجعة الفلسطيني من اقتلاع، وتشتيت... لتغدو الشهادة السردية بذلك ((..شهادة ..)) تاريخية تسعى، من خلال إعادة تصوير أو تمثيل Representation ما قد يكون قد حدث، إلى تمكيننا من أن نرى وأن نسمع ما ليس بوسعنا أن نراه وأن نسمعه<sup>1</sup>، فالشهادة تأخذ القارئ إلى مسار المشاركة في رؤية الحدث وتأويله، وفق معطيات نصية سردية تقذف بالقارئ إلى الواقع الفلسطيني المأساوي، ليكون احتواء الداخل نصي للخارج نصي احتواء يحدّد مسار القراءة النصية التأويلية من الداخل نحو الخارج.

ولعل نص "المهارة الفلسطينية" وهو في صحبة القارئ ضمن ذاكرته السردية بشهادته المكثفة والعميقة، يحيط بأحداث مأساوية كثيرة تجعل من القارئ في حالة من الاستنفار القصوى فيما يروى له، تتداخل فيها البداية بالنهاية، والتاريخ بالمتخيل، والسرد بالواقع... فيتخلق في منطقة المابين توترا سرديا يقرب القارئ من تلك الأحداث المريعة، والمضطربة المبنية على شهادة تتحرك ضمن وحشية الصهيوني، والعبث الإنساني، فيتصاعد هذا المعنى في عديد من مشاهد العنف، والإجرام، التي تحكي أن مجزرة النكبة شلّت إدراك الإنسان، واستيعابه، فلم يبق من دم الضحايا سوى ذاكرة جمعية تحيا في كنف السرد تمثيلا متخيلا، وصرخة فلسطينية تاريخية طويلة المدى، يتجاوز بها الفلسطيني هول المصائب، والمصائر.

إن العيش في كنف المتخيل التاريخي، والواقعي على محكي الشهادة ليجعل من صورة مجزرة النكبة تنفتح على التأويل عبر لغة سردية كثيفة المعنى، وعميقة الأثر فيما

<sup>1</sup> بول ريكور، الذاكرة والسرد، حوارات، ص: 14.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

يرويه نص "الملهاة الفلسطينية"، مما يستدعي "ما وقع" لمحاكمة سردية تاريخية تنظر في تفاصيل الحدث بالإنصات لصوت الضحايا، فهو الصوت الذي لا يخمد من الذاكرة، باستدعائه للسرد تمثيلا يمتد في الزمن؛ لأنه أعيد ترهين صوته سرديا، من خلال تأمل الفعل الإجرامي الواقع عليه ولعل في تفحص مشهدا لرجل فلسطيني تحت القصف الصهيوني، وهو يصارع في محاولة لإنقاذ ابنته الصغيرة، فيه من الفظاعة والشناعة ما تجاوز كل حدود الإنسانية، لأنّ وحشية الصهيوني كانت أسرع بالفتك بها، يقول السارد: ((...كل شيء يغلي، ويندفع خارج بطنها..وأضاعت قذيفة التتوير، كانت أمعاء البنات مندلقةً كلها...جنّ..ردّ الأمعاء بكل رعبه...وأصابه..براحته التي راحت ترتجف..وبعينيهِ الفرعتين..المفتوحتين على الموت..ردّ أمعاءها وقلبها إلى ظهرها..ووجهها للسماء..مصفرة كانت. وصاح صوت من بعيد: يا حاج خذ الأرض. ولم يأخذ الأرض..الأرض هي التي تأخذه...تأخذ كل شيء..تأخذ الصغيرة وتأخذ أمها..وعاد الصوت خذ الأرض.....))<sup>1</sup> إن انتهاك الإنسان الفلسطيني لحساب إنسان آخر "الصهيوني"، ليضع قارئ النص في ممر الذاكرة المفجوعة، والمجروحة، التي تحدّد هوية الفلسطيني ضمن علاقة غير متكافئة، أساسها صراع فرضه الآخر الصهيوني بوحشية أدخلت الهوية الفلسطينية في مرحلة من التآزم، تجددت معها أسئلة الوجود الفلسطيني في أرضه، وفي امتدادية تاريخية متجذرة في الأرض، تروي عن عناء الضحية، وهي في سبيل إثبات هويتها الفلسطينية أمام استلاب الجلاذ في تصفيته للوجود الفلسطيني.

إن إدراك الحدث المركزي، والمحوري للنكبة بوساطة اللغة، والرواية على نحو من المقاومة المضادة للنسيان، والمسح، لجدير بالقارئ أن يتعلّق بالمتخيّل بوصفه القول التأويلي الذي يمثل الممكن، والمحتمل من الحدث العنيف التاريخي، بعدما غاب الشاهد على تفاصيل المجزرة (الأسلاف، والآباء)، أو ((الشهود، الذين اقتلعوا من وطنهم وعاشوا

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، مجرد 2 فقط، الملهاة الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط2، 1999،

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

في المنافي (... )ومن المحزن أن هؤلاء الشهود قد رحلوا جميعا عن عالمنا قبل أن تتحقق أمّنتهم الكبرى بالعودة إلى وطنهم<sup>1</sup>، ضمن هذه الإمكانيات السردية المحتملة والمفتوحة على التأويل، يغدو نص "الملهاة الفلسطينية" هوية سردية فاعلة في الحاضر باستعادة الماضي الذي لم يكتمل بعد، وبإعادته إلى المتخيل أضحى السرد بناءً للهوية الفلسطينية؛ فـ ((الأدب..)) يشكل أفقا جديدا لبناء الهوية<sup>2</sup> لكونه ذاكرة سردية مضادة للسردية الصهيونية التي تسعى لإفناء الوجود الفلسطيني، فعلى الرغم من أن النكبة هي سؤال الرهبة، والرعب، وشناعة الفعل الإنساني...، إلا أنه يعد سؤال الهوية أيضا؛ الذي لا يكف عن العودة مجدداً، بأشكال متعدّدة سرديا، وما عودة نص "الملهاة" إلى ما قبل النكبة، لدليل على التراجمية الفلسطينية التاريخية، التي امتثلت سرديا وفق منعطف تاريخي يتهياً فيه حدث الفاجعة باعتباره الحدث المحوري لسردية الملهاة والمأساة الفلسطينية.

يرتهن نص "الملهاة الفلسطينية" بدايات متجذرة تاريخيا في الأرض، ويستعيد فلسطين الطبيعية والجغرافية، والتاريخية المستقرة التي جرى تدميرها بفعل الاستيطان الصهيوني؛ ((أي أن الرواية تبدأ من الوجود، وتنتهي إلى تهديدات الوجود))<sup>3</sup>، وبفعل الاستعادة السردية يُفعل المتخيل في التاريخ تفسيراً، وتأويلاً للحدث الفاجع، انطلاقاً من سرد حياة ما قبل النكبة، ورداً على تزييف السردية الصهيونية المدعمة بالقول الكاذب "أن فلسطين لم تكن موجودة"، فالغوص في تفاصيل معيشة الفلسطينيين قبل النكبة لا يخوض فيها إلا من يملك تاريخاً حقيقياً يمدّه، ويُسنده في وصف تلك الحياة الممتدة جغرافياً، والمتجذرة تاريخياً، ليعيد النص ((تركيب صورة الحياة الفلسطينية التي انقطع تسلسلها

<sup>1</sup> نصر الله إبراهيم، زمن الخيول البيضاء، ص: 5.

<sup>2</sup> رامي أبو شهاب، النكبة في الرواية "زمن الخيول البيضاء" لإبراهيم نصر الله: المتخيل والوعي

التاريخي، ص: 251.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص: 259.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

وتدققها بفعل حدث النكبة<sup>1</sup>، فيمتلك نص "الملهاة" فلسطينا تاريخية، بوساطة الفعل السردى، الذي يستند فيه إلى القول التاريخي في علاقة جدلية، يبرهن من خلالها أن نص الملهاة يتعلق بالتاريخ جدلا بالمتخيل، أكثر من كونه نصا منكفئا على ذاته، ومغرقا في عوالم ممكنة داخلية مغلقة، ففي رواية "قناديل ملك الجليل" \_مثلا\_ يورد إبراهيم نصر الله "خريطة لـ (مدن والقرى التي شهدت معظم وقائع هذه الرواية)"<sup>2</sup>، في حين نجد في الصفحة المقابلة ذكره للمراجع التاريخية<sup>3</sup> المعتمد في كتابة الرواية، وهذا ما يدعم أكثر هذا التوجه النقدي، في أن المرجعية التاريخية قيمة حاسمة في تكوين نص "الملهاة الفلسطينية" المعتمد على الذاكرة الجمعية في تفاصيل البناء السردى، وتأثيرها للعوالم الممكنة.

يدخل النص قارئه في زمنية الاستعادة للفحص، والتأمل في ذلك الاستقرار الفلسطيني قبل أن يعبث الصهيوني بالإنسان، والهوية، والأرض، والتاريخ، فامتثلت فلسطين سرديا في رواية "زمن الخيول البيضاء" بقرية "الهادية" والتي ترمز إلى فلسطين بمراحل تحولاتها من الحكم العثماني المستبد، إلى الانتداب البريطانى الذي ساند الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في الاستيلاء على الأرض، وتصدى سكان "الهادية" لهذا المشروع الاستيطاني بالدفاع عنها وبالتالي معايشة نص "الملهاة" للحظة خروج الفلسطينيين من أرضهم انطلاقا من سرد أحداث ما قبل النكبة إلى وقوع الفاجعة، وتشنت الفلسطينيين بنفيهم خارج المكان، بهذه الامتدادية التاريخية تكون ((..غاية مشروع إبراهيم نصر الله الروائي في "زمن الخيول البيضاء" هو تقديم سردية مضادة للرواية الصهيونية،

<sup>1</sup> فخري صالح، النكبة والرواية، وتبلور الهوية الوطنية الفلسطينية، ضمن مجلة الجديد، عنوان العدد: الرواية والتاريخ، استلهم التاريخ في كتابة الأدب، يناير، 2020، ع: 60، ص: 44.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، قناديل ملك الجليل، الملهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2012، ص: 556.

<sup>3</sup> ينظر: المصدر نفسه، ص: 557.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

التاريخية والتخييلية، حول الوجود الفلسطيني<sup>1</sup>) الذي كان وجودا متجزرا في الزمن، والأرض، يوحي بتفاصيل الحياة الطبيعية للإنسان الفلسطيني قبل السقوط، والتي غطت مسافة زمنية تمتد من القرن التاسع عشر، وصولا إلى الاقتلاع، في رواية "زمن الخيول البيضاء"، فحكاية قرية "الهادية" تبدأ بذكر تفاصيل الحياة المستقرة بعاداتها وتقاليدها الممتدة في زمن ((الإقطاع الذي يقوم على حيازة ملكية الأرض دون ظلم الفلاحين الذين يعملون عليها)) (.. ) فقد حرصت على بناء مشهد فردوسي للحياة الفلسطينية، أو على الأقل مشهد تجري فيه الحياة في زمن لا تقطعه سوى عثرات الحياة اليومية المعتادة<sup>2</sup>)، وصراع الفلسطيني مع نظام استبدادي عثماني ظالم، وإن لم يسع إلى نفي الوجود الجمعي مثلما سعى إليه الاستيطان الصهيوني إلا أن ((أثره تجلى في القمع، والقهر، والأثر الاقتصادي، ومع ذلك، فقد كان الفلسطينيون قادرون على المواجهة، وتسيير أمورهم على الرغم من ثقل هذا الحكم ومطالبته بالضرائب، أو بترحيل الشبان الفلسطينيين للحرب، وعدم عودة الكثير منهم، ولكن هذا الفعل لم يكن يهدد الوجود الفلسطيني الجمعي))<sup>3</sup> إلا مع بداية الانتداب البريطاني الذي بدأ يشجع على إنشاء مستعمرات، وعصابات صهيونية، تعمل على استئصال الشعب الفلسطيني من أرضه، والحكاية على هذا النحو تمهد للحظة الخروج، والاقتلاع، بوصفها لحظة الوعي الأساسية التي ثورت الهوية الفلسطينية من ذاكرة الوجد، واندفعت إلى لملمة شتات الفلسطينيين وانتظمت مقاومة، ومواجهة في وجه الآخر.

يخوض نص "الملهاة الفلسطينية" بهذا التشكيل السردى نظارة الحياة الفلسطينية قبل النكبة، و يغوص في المعيش اليومي ليبرهن على وجود الأرض، والإنسان، والتاريخ

<sup>1</sup> فخري صالح، النكبة والرواية، وتبلور الهوية الوطنية الفلسطينية، ص: 44.

<sup>2</sup> فخري صالح، النكبة والرواية، وتبلور الهوية الوطنية الفلسطينية، ص: 46.

<sup>3</sup> رامي أبو شهاب، النكبة في الرواية "زمن الخيول البيضاء" لإبراهيم نصر الله: المتخيل والوعي التاريخي، ص: 260.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردى

بالسكن في الذاكرة الجماعية التي تؤكد إنسانية الإنسان، وتفعل علاقته بالأرض، وتتسع في المتخيل ليصبح السرد أكثر قدرة على استيعاب دائرة الإنسانى فينا<sup>1</sup>، بخاصة إذا كان كل ما يخوض فيه نص "الملهاة الفلسطينية" هو سؤال الوجود الإنسانى فى بحثه عن الهوية بما أنها الهم الذى يحدّد وجود الفلسطيني على أرضه بسؤال إشكالى لا يكف عن معاودة الظهور مجددا خوفا من المسح، والنسيان.

من أجل ذلك تعد حياة الفلسطيني قبل النكبة حياة مستقرة تروى لأجل تحديد الفرق المهور بين ما كان من استقرار طبيعى يرتهن فيه الفرد بالجماعة، وبين الحياة التعسفية والإبادة الجماعية التي حملت الفلسطينيين إلى مكان الإزاحة والاحتمال، لهذا يعد وصف الحياة الممتدة على أرض فلسطين قبل النكبة هو وصف للحق المسلوب، وللأرض المغتصبة التي تتعلق بالذاكرة سردا وتأويلا، هذا ما يوحى بأن فلسطين كانت محل طمع الاستعمار منذ تاريخ عميق ولعلى فى رد رجال الدين على سؤال "الحاج محمود"، لماذا أقيمت كنيسة فى قرية "الهادية" -وهى الرمز الموازى لفلسطين- ما يؤكد ذلك، يقول السارد: ((...وعندما سألهم الحاج محمود: ولماذا الهادية بالذات؟ قال رئيسهم: وهل تعتقد أنها سميت باسمها صدفة؟ وأشار للسهل الممتد حتى حدود السماء، وقال: فى مكان كهذا، وامتداد لا يعيق البصر ولا البصيرة، يمكن أن يكون المرء أكثر قربا إلى الله. فتمتم الحاج محمود: لا اله إلا الله))<sup>2</sup>، فالمكان يتربع على عرش التاريخ مثلما تخلل على جغرافيات متعدّدة، تستهوي مطامع الاستعمار، وتفتح شهيته على الاستيلاء والاحتصاب.

على مسار تأويل الرمز الموازى لفلسطين، وضمن استراتيجىة قرائية تبحث فى خلق العالم السردى الموازى للواقع الفلسطينى المفقود، يتطلع النص إلى زمن "الخيول

<sup>1</sup> سعيد بنكراد، السرد ومعنى الحياة، مجلة علامات، العدد: 52، <https://alamat.saidbengrad.net/L>

ص:7.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، زمن الخيول البيضاء، ص: 16.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

البيضاء" الأصيلة وهو زمن الحرية، والبراءة، التي تغتصب في قادم الأيام، فحضور الفرس الأصيلة، والنادرة والفريدة في المشاهد الروائية دليلا على أن دلالتها الرمزية تشير إلى فلسطين الحرّة الأصيلة وهي تستغيث بعدما تعرضت للسرقة، والاعتداء، وعليه يكون قول: ((..الحاج محمود: يا رجال هناك حرّة تستغيث. أجبروها))<sup>1</sup> فيه من الإيحاءات ما يطرح على القارئ أن يخوض في تلك العلاقة الحميمة بين الإنسان، والفرس على أنها علاقة الإنسان بأرضه، ووطنه في سياق تمثيلي تتجسد فيه كل المخاوف من فقد الوطن، والابتعاد عنه، فيستلهم القارئ ما يفصح عن هذه الدلالة بقول السارد: ((لم يتحرك خالد، ظل ساهرا يحرق فيها، خائفا من كل شيء، خائفا من أن تمضي، خائفا من أن تبقى فيتعلق بها أكثر وهي ليست له، خائفا من أن يطل أصحابها، لأنه لو أضع فرسا مثلها لأمضى العمر باحثا عنها. أو لم يحدث له ذلك؟!))<sup>2</sup>، ففلسطين كانت امتدادا رمزيا للفرس الأصيلة.

إن الفهم على هذا النحو قد ينقل القارئ من حيز التأويل التاريخي الذي يقر بالجدل التراجيدي للإنسان، والخيل، والمكان في السرد، إلى ترصد الذاكرة الجمعية لشعب تكالبت عليه موجات استعمارية متتالية أرهقت وجوده؛ فالرواية "زمن الخيول البيضاء" بهذا المسار التاريخي امتدت إلى أواخر القرن التاسع عشر لتترصد زمن التفريغ البشري الذي تعرضت له أرض فلسطين، وتصدى له الشعب الفلسطيني بروح لم تتكسر، وهذه الرؤية تتضح أكثر حين قال "الحاج محمود" لأبنائه، وهم في مواجهة الحكم العثماني: (( تذكروا، لا يمكن لأحد أن ينتصر إلى الأبد، لم يحدث أبدا أن ظلت أمة منتصرة إلى الأبد))<sup>3</sup>، ليتكرر قول الوصيّة في إرث مستمر من أب إلى ابنه، وفي موقف أكثر مأساوية يوصي بها "خالد" رفيقيه "نوح، وإيليا"، وهو في مواجهة الانجليز، وعلى أرض الاستشهاد،

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص: 9.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، زمن الخيول البيضاء، ص: 11.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص: 143، 144.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردى

يقول: ((كان والدي رحمه الله يردد دائماً: لا يمكن لأحد أن ينتصر إلى الأبد، لم يحدث أبداً أن ظلت أمة منتصرة إلى الأبد. ودائماً كنت أفكر في ما قاله، لكنني اليوم أحس بأن شيئاً آخر يمكن أن يقال أيضاً، وهو أنني لست خائفاً من أن ينتصروا مرة، و نهزم مرة، أو ننتصر مرة و يهزموا مرة أنا أخاف شيئاً واحداً أن ننكسر إلى الأبد، قل لهم احرصوا على ألا تهزموا إلى الأبد.))<sup>1</sup>، وما دام النص مبنيًا على هذه الرؤية المتطلعة إلى عدم الخضوع للآخر في كفاح مستمر، فإن تمثّلها سيكون ظاهراً يترصده القارئ عبر المسار المتتابع لثلاث أجيال من عائلة فلسطينية واحدة، (الحاج محمود الأب واجه الاستعمار العثماني، وخالد الابن واجه الاستعمار الإنجليزي، وناجي الحفيد واجه الاستعمار الصهيوني)، ويوازي هذا التتابع وجود ثلاث أجيال من نسل فرس أصيلة، وهذا الوجود المتوازي ما هو إلاّ تثويراً لعلاقة الإنسان بالمكان "فلسطين" من خلال رمزية الخيل، وتوسيعاً للفعل التراجيدي في السرد، لذا فإن هذه العلاقة ترمز إلى ما أقر به المتخيّل التاريخي بأن الإنسان وتعلقه بأرضه ما هو إلا شكل من أشكال تحقيق الهوية.

على أرضية هذا الفهم يلتقي القارئ بالنص وفق امتداد سردي، تتحرك ضمنه دلالات استعادة الماضي بتفعيل الذاكرة الجماعية، التي تشكلت بفعل مأزق النكبة، وإكراهات الفاجعة مانحة للسرد بأن يؤسس استراتيجية مغايرة تروي التاريخ لصالح الضحية، في دحضها للاختراق الصهيوني المزيف للتاريخ، ليعيد السرد امتلاك التاريخ حضوراً يرفع الغياب عن فلسطين، وتفسيراً يساند الفهم عن حقيقة الحدث، في صرخة مدوية يقولها البطل "خالد": ((أنا لست هنا لأنتصر، أنا هنا لأحمي حقي))<sup>2</sup>، على منحنى من هذا الصمود الذي يعلنه الشعب الفلسطيني في مصابه بحثاً عن مصيره، فالنكبة تواصل أهميتها الكبرى في تحقيق الهوية الفلسطينية كفاحاً وليس انكساراً، وتجاوزاً وليس بكاءً، وما العودة إلى ما قبل النكبة إلا لكي يستعيد الشعب الفلسطيني قدرته على قول

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص: 371، 372.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، زمن الخيول البيضاء، ص: 372.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

الفاجمة سرداء، وتاريخا، وبالتالي تخطّي الجرح الغائر في الأمة الفلسطينية، وتجاوز لصدمة الاقتلاع، وتحويله إلى ذاكرة سردية تاريخية جماعية، تبني الهوية الفلسطينية وفق سيرورة ممكنات الفرد، والجماعة.

وفي ترصد لهذا التلاحم، والتحول من الرؤية التاريخية إلى الرؤية المتخيلة، يفرض على البحث أن يتوجه إلى هوية السرد، قراءة واكتشافا، وإنصاتا لتلك التجربة الإنسانية الفلسطينية العالقة في الذاكرة، والممتدة في التاريخ، والمتخللة ضمن المتخيل، من هنا يمكن أن يرد سؤال مهمّ يتحرك بفعل تأويل المتخيل التاريخي جدلا في السرد، بخاصة إذا كان الغاية التي يجري إلى تحقيقها هذا الكيان السردية "الملهاة الفلسطينية"، هو فك الغياب التاريخي، والخرس الزمني عن الإنسان الفلسطيني: فإذا كان الأصل المرجعي للنص "الملهاة الفلسطينية" هو التاريخ، فإن بناء العوالم الممكنة تخلقت ضمن متخيل تاريخي، فما هي علاقة التاريخ بالسرد؟

### المبحث الثالث:

السردي، والتاريخ نحو تشكيل هوية سرديّة فلسطينيّة.

يحاول البحث أن يعمق صلته بذاكرة نص "المهاة الفلسطينية" تنقيبا، واستقصاء عن التاريخ، الذي تم استعادته بوساطة المتخيّل، ويستند في ذلك إلى تأويل حضور التاريخ في السرد؛ فإذا كان التاريخ هو الفعل الذي تكوّن من خلال معرفتنا بالماضي المستغرق في خصوصيّة الحدث وانفراده، فإن السرد هو صياغة تمثيلية لتجربة إنسانية زمنية عالقة بالمتخيّل ومنبعثة من الواقع، وما وجود التاريخ في ضيافة السرد، إلا لإعادة تصوير التجربة الإنسانيّة في سرد تاريخي متخيّل أشكل براهن مأزوم، يفرض العودة إلى التاريخ، بغية استعادة الأرض والإنسان، وهويّته، ووجوده، وهذا الوجود السردّي للتاريخ تحدّده القراءة التّأويليّة أكثر مما تحدّده حقائق تاريخية معينة بعدما أعيد تهيئتها، وتشكيلها وفق حبكة سرديّة تستدعي قارئاً، ليعيد اكتشافها والتفاعل معها، وفق استراتيجيات نصيّة تقترح مسارات القراءة، والتّأويل، ويستوعبها القارئ ضمن فضاء المتخيّل.

بهذا يعاد تعيين موقع التاريخ من ماضٍ انقطع اتصاله، إلى حاضر يعيد أوامره بالقراءة التّأويليّة التي تبعث فيه دلالات إعادة تقديم الماضي إنتاجاً، وفعاليّة، أو إنجازاً، وتجاوزاً ففي سياق البحث عن الهوية الفلسطينيّة يجري التاريخ في السرد بتفعيل أحداث تقترن بالسرد كتابة، وبالقراءة فهما وتأويلا؛ فـ ((ليس الماضي ما مضى ولكنه ما تسترجعه في صيغ خياليّة وتاريخية، وضمان مستقبلنا رهن بقدرتنا على امتلاك هويّة سرديّة))<sup>1</sup>، قادرة على رفع الغبن وتفكيك السيطرة عن الشعب الفلسطيني، وذلك بإعادة امتلاك الذات، والوطن... تشقّ بهما طريقاً إلى الحرّيّة، ضمن فضاء سردي تاريخي يتجدّد، باستمرار معنى تجذر الشعب الفلسطيني وأحقّيته في أرضه، وأكثر ما يكون إيضاحاً هذا المعنى عندما يكون تمثيلاً سردياً يعصف بالسردية الصهيونيّة المبنية على تحريف الحقائق وتظليلها، ليؤول- التمثيل السردّي- إلى سرديّة مضادة شديدة الدوران

<sup>1</sup> بول ريكور، الذاكرة والسرد، حوارات، ص: 78.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

حول الأرض المسلوّبة "فلسطين"، ولعل هذا ما ينقل البحث إلى السؤال الأهم، وهو: إذا كان التاريخ هو أثر الفعل الإنساني، تجلّى في صورة نص أدبي، فما علاقة التاريخ بالسرد؟

وهو السؤال الذي يمكن الالتفاف حوله، والبحث في تفاصيله ضمن العوالم الممكنة لنص "الملهاة الفلسطينية" -وعبر نصوصه المتفرعة-، للاستقصاء عن تجلّي الهوية الفلسطينية ضمن هذه العلاقة الجدليّة بين السرد، والتاريخ.

من منطلق هذا السؤال عن علاقة التاريخ بالسرد، فإن مسار تجذر الشعب الفلسطيني في أرضه يعود إلى الظهور مرارا، وتكرارا ضمن نص "الملهاة الفلسطينية"، وبكل نضارة معلنا عن وجود انتقال من التاريخي إلى السرد، باعتبار مسار التجذر في الأرض، هو البعد الهوي للوجود الفلسطيني على أرضه وتاريخه، وفي تأكيد مستمر على المعادة، والرجوع إلى التاريخ الذي يفصح عن هويّة الأرض الفلسطينية، فإن القراءة التأويليّة تغدو ممارسة تحت على تحيين التاريخ باعتباره صياغة نصيّة في ضيافة السرد، ومحاورته تحت وطأة هذه الفاعليّة السردية تجعل من حضور التاريخ حضورا جدليًا، وضمن هذا الجدل قد يتساوى التاريخ بالمتخيّل، كما قد يتساوى المتخيّل بالتاريخ.

تتلقّف سردية "الملهاة" التاريخ الفلسطيني، وهو يستفرد في التغلب على الانمحاء، أو النسيان لتتفحص ذكريات الماضي البعيد باستعادتها عبر حكي المتخيّل فهما وتأويلا لتلك الحياة الطبيعية قبل النكبة أي قبل أن تسلب فلسطين؛ فالذكريات على حدّ قول أحد الشخصيات "قناديل الملك الجليل" ((هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يتغلب به البشر على الزمن، لأنهم يؤكدون لأنفسهم بها، أنهم لم يكونوا مجرد عابرين لهذه الحياة))<sup>1</sup>، فإن يصرّ نص "الملهاة الفلسطينية" على إقحام تاريخ الأبطال في عالم سردي يفيض بالانتصارات... عبر إثارة ذكريات غارقة في الماضي، تلك أولى السبل في تثبيت الإنسان الفلسطيني على أرضه، وحجة دفاعيّة شرسة تقف في وجه من أنكر عليه حقه فيها، ويكفي أن يُذكر نص

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، قناديل الملك الجليل، ص: 137.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

"المهاة" بقول "ظاهر العمر الزيداني" - وهو بطل رواية قناديل ملك الجليل-، حين وجه كلامه إلى أخيه "سعد"، أن فلسطين أرض من يدافع عنها ويحميها، يقول: ((..هذه البلاد بلادك وبلادي يا سعد مثلما هي بلادهم، هذه بلاد كل من يجرؤ على الدفاع عنها، أما الجبناء، فلا بلاد لهم، لان جنبهم هو بلادهم الوحيدة التي باستطاعتهم أن يرحلوا إليها الآن، دون أسف عليهم !!))<sup>1</sup>، يتسع هذا السند دلاليا، ويصبح أكثر عمقا حين تكون الأرض الفلسطينية فوق الجميع، كيف لا وهي التي تعرضت للتفريغ البشري في صور مروعة استبدادية تحكي عن غطرسة، وابتزاز الصهيوني حين امتلك السلاح، والقوة بالدعم البريطاني والقوى الاستعمارية العظمى...، كما تروي عن تفاصيل التلاعب بالحضور الفلسطيني بإبادته جماعيا، ورميه بكل قمع في مكان الإزاحة والاحتمال، أو اللامكان، ليأخذ الوجود الفلسطيني في سردية "المهاة الفلسطينية" منحا جدليا محسوما من قبل أبطالها أن الأرض الفلسطينية فوق الجميع، ويؤكد "ظاهر عمر الزيداني" -حين وجه كلامه إلى أخيه "يوسف"، وفي موقف أكثر إحراجا من سابقه يوم مقتل أخيه "صالح"-، على هذا المبدأ، بقوله: ((دائما سيكون هناك ما هو أهم وأعلى من دم أختنا، ومن دمنا أيضا: هذه البلاد يا يوسف، هذه البلاد))<sup>2</sup>، من أجل تثبيت هذا المنحى يجنح استرجاع التاريخ سردا، إلى دوره في المقاومة والدفاع عن الوجود الفلسطيني على أرضه.

يتمهياً وجود نص "قناديل ملك الجليل" على هذا النحو من التفرد -كمثال اتخذه البحث للكشف عن العلاقة الجدلية بين السرد، والتاريخ أمام باقي النصوص التي تسانده في الرؤية والهدف-، والذي تغدو معه القراءة التأويلية بحثا في المحتمل والممكن، أو بحثا في المستشكل والخفي من استعمال التاريخ في السرد؛ إذ أصبح التاريخ مرهونا بالسرد الذي يعيد تصويره تصويرا مجازيا يصنع منه هوية سردية قادرة على إعادة إعلان وجود أمة فلسطينية بعيدا عن إكراهات الآخر، وتزييفه، فـ((التاريخ يفترض الماضي تذكرنا فكتابة

<sup>1</sup>إبراهيم نصر الله، قناديل ملك الجليل، ص: 144.

المصدر نفسه، ص: 198.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

فسردا حتى يمكن له التشكل في واقع الذات التي تبحث عن هويتها تحديدا وتعريفها<sup>1</sup>، هذا الوجود الإشكالي للتاريخ يدفع القارئ بأن يعلن عن بدايات التلقي التي لا تحصرها أي رؤية قبلية، أو مسبقة عن القراءة، إلا رؤية التفاعل بين القارئ، والنص.

وضمن هذه العلاقة الجدلية يصل البحث بالنص إلى أن وجود التاريخ في السرد هو وجود إشكالي؛ إذ يُرَدُّ إلى حالات السؤال داخل السرد، بما أن معرفة ماهية الشيء، ونمط وجوده ودلالاته تقتضي المرور بالسؤال الذي يثير القلق، ويستدرج التجربة خارج مسارها المؤلف<sup>2</sup>، وهو مسار القراءة التأويلية نحو النص، الذي لا تحدده أي رؤية مسبقة عن القراءة التي تفرض المواجهة النصية كسبيل لبناء دلالات النص، وهي التي لن تتحقق إلا إذا التقى النص بقارئه إذ يغدو بدوره (القارئ) هو المنطقة الحاسمة في توليد النص، وإحيائه وفق ما يمليه النص من استراتيجيات تعمل على توجيهه، بمراقبة أفعال الفهم والتأويل لدى القارئ، فالاستراتيجيات النصية هي المسؤولة عن كيفية توزيع، وترتيب، وتنظيم العناصر الدلالية الممكنة داخل النسيج النصي<sup>3</sup>، لذا فالقارئ بدوره يثير مناطق النص الدلالية، التي لا تستنفذها أي قراءة، من هنا تتعدّد دلالات النص بتعدّد قرائه، وعليه فالقراءة التأويلية تؤسس لانصهار أفق القارئ بأفق النص.

إن هذا النوع من التهيؤ لتلقي التاريخ في المنجز النصي "قناديل ملك الجليل"، لا يعني أن التاريخ هائما بذاته مترنحا على عوالم سردية دخيلا عليها، بل يعني ذلك الاندماج المتكامل أو الانسجام بينه، وبين السرد؛ أي أن التاريخ لا يكشف عن نفسه إلا في شكل سردي، متعلق ومندمج به، ليفصح عن وجود تجربة إنسانية استثنائية شديدة التعلق بذاكرة الأمة الفلسطينية التي تجلت حين اجتمع السرد التاريخي بالسرد المتخيل

<sup>1</sup> حاتم الورفلي، بول ريكور الهوية والسرد، ص: 131، 132.

<sup>2</sup> ينظر: سعيد بنكراد، سيرورات التأويل (من الهرموسية إلى السيميائيات)، دار الأمان، الرباط/المغرب، ط1، 2012، ص: 142.

<sup>3</sup> ينظر: عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص: 200.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردى

بحثا عن هوية الشعب الفلسطيني ومتأسلا في الأرض، والتاريخ، ففي هذا التعالق ما يبرهن على أن ((التاريخ والرواية يسعيان إلى توضيح التجربة البشرية من خلال وضعها في صيغ سردية بحيث تظهر الأحداث ضمن مسار زمني مترابط وذي دلالة))<sup>1</sup>، تنبئ عن ذلك الوجود الطبيعي، والتمكامل، والتاريخي لأمة اسمها فلسطين.

يتجلى التاريخ -وهو الإنجاز النصي للماضي- في صيغ سردية تخيلية تنزع نحو الحقيقة<sup>2</sup> التي تظل تطرح سؤالا عن المطابقة لما حدث فعلا، ولن يتكرر؛ فالحدث التاريخي حدث إنساني فريد، لا يتكرر إلا في ضيافة الحكي؛ أي أن الحدث التاريخي المغرق في الماضي، لم يبق من وجوده سوى أن يصاغ بأشكال سردية تخيلية، ليس من أجل اجتراره، بل من أجل اكتشاف المعنى الذي من أجله أعيد تقديم الذاكرة في السرد، فالتكرار السردى للتاريخ لا يُبنى إلا على صياغة الهوية السردية للأمة.

من أجل ذلك؛ أي من أجل ممارسة الأمة لسردية هويتها، تتمثل أوجه التعالق، والتكامل بين السرد، والتاريخ في أن السبيل الذي يتمظهر به التاريخ هو السرد؛ لأن ((التاريخ -كما يقول جونثان كولر- لا يكشف عن نفسه إلا في شكل سردي، وفي قصص صُممت لنتج المعنى من خلال التنظيم السردى))<sup>3</sup>، الذي يعيد النظر في الطبيعة الكرونولوجية للأحداث التاريخية، فلا تتمظهر أحداثه إلا بأشكال سردية تتصرف في زمنيته، و تصيغها وفق حبكة سردية تُتَوَّر الزمن، وتكسر سيرورته النمطية، ليعاد مراجعة التجربة الإنسانية المحتواة في الزمن، مراجعة يغدو معها الزمن في السرد زمنا إنسانيا بالقدر الذي يُروى، وبالقدر الذي يعيد تحبيكه في صيغ متخيلة.

يقدم السرد الروائي تاريخا مغايرا للتسلسل الزمني؛ أي سرد تاريخي (تاريخ مروى سردي) قائما على السرد الدائري<sup>4</sup>؛ أو على الحبكة التي ((تشتغل دائما لاتجاه خلق خط

<sup>1</sup> نادر كاظم، الهوية والسرد، ص: 128.

<sup>2</sup> ينظر: المرجع نفسه، ص: 127، 128.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص: 127.

<sup>4</sup> ينظر، جنات بلخن، السرد التاريخي عند بول ريكور، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 2014. ص: 63.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

تألفي يمتص كل العناصر اللامتجانسة والمتعايشة في سياقها<sup>1</sup>، والفاعل فيها هو الهوية السردية، وهي الكيفية التي نسمعنا بها هذا النص صوت فلسطين، المتأصلة في البنية السردية للملهاة الفلسطينية، وعليه يكون الإنصات للنص "قناديل ملك الجليل"، وهو يوجه اعترافاته عن تاريخ الانتصارات والبطولات...، قد امتثل لسيرة "ظاهر العمر الزيداني" وطموحه الإنساني في رفع الغبن عن المظلومين، وهذا ما أكده "إبراهيم نصر الله" في إضاءته، بقوله: ((في القرن الثامن عشر، وعلى ضفاف بحيرة طبرية وفي جبال الجليل ومرج بني عامر، بدأ رجل من عامة الناس رحلته، نحو أكبر هدف يمكن أن يحلم به رجل في تلك الأيام: تحرير الأرض وانتزاع الاستقلال وإقامة الدولة العربية في فلسطين، متحديا بذلك حكم أكبر دولة في العالم آنذاك (الدولة العثمانية) وسطوتها المنبسطة على ثلاث قارات: أوروبا وآسيا وأفريقيا.. كان اسمه: ظاهر العمر الزيداني (1689-1775))<sup>2</sup>، ولعل أولى الخطوات التي يجب قطعها من أجل فهم إشكالية وجود التاريخ على أرض السرد، هي تقبله وفهمه على نحو من التعالق، والاندماج الذي تحققه الحبكة السردية؛ ((إذ بواسطة تدخل الحبكة السردية (Lnt intrigue narrative) فقط يستمد التاريخ الإنساني -من حيث هو موضوع للحكي أو القص بامتياز- شرط إمكان معقوليته في الحاضر، أو بعبارة أخرى قابلية فهمه ورؤيته كما لو أن استمرار فعل الحياة عينه، وليس فقط مجرد أثر فائت ومنقض))<sup>3</sup>، وهذا المسعى الذي يفتح عليه السرد في استضافته للتاريخ ضمن عوالمه الممكن، هو مسعى إلى اكتشاف فرص أخرى للحياة، وفرص أخرى لاكتشاف، وبناء ذات مغايرة هي ذات الصمود والمقاومة الفلسطينية.

من أجل ذلك -بناء هذه الذات عبر المتخيّل- فإن قراءة نص "قناديل ملك الجليل" هي معايشة القارئ لزمن مغاير، زمن تتخلق ضمنه هوية سردية مقاومة، وهي تتمثل في

<sup>1</sup> جنات بلخن، السرد التاريخي عند بول ريكور، ص: 49.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، قناديل ملك الجليل، ص: 7.

<sup>3</sup> بلعالي دومة ميلود، جدل التاريخ والسرد عند بول ريكور، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، المجلد: 7، العدد: 3

(2019)، رابط المقال: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/180888> ، ص: 96.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

شخصية إنسانية تاريخية "ظاهر عمر الزيداني"، إذ تشكلت في سياق المقاومة والدفاع عن الإنسان والأرض..، في تجربة معلقة بالاكتشاف، ذات العزم، والعزيمة، وهي تواجه الاحتلال العثماني والبريطاني لفلسطين، وفي عقدها الجازم على تحرير الأرض الفلسطينية..، لتقاوم هذه الشخصية بهذا الفعل كل انكسار، أو انهزام في نفسية الكاتب قبل القارئ، وهي التجربة الزمنية الغارقة في السرد التاريخي والمتخيل السردى معا، يقول إبراهيم نصر الله: ((..لكنني خرجت من التجربة إنسانا مختلفا، إذ أحسست بأن حياتي مع ظاهر العمر، قد أعادت ترتيب روعي من جديد، ووضعت أساسا جديدا ومذهلا لهويتي، وأنا أتبع تلك الجذور الداخلة عميقا في أرض فلسطين: فلسطين العربية، فلسطين الجمال والتسامح واحتضان الآخر والقبول باختلافه واحترام هذا الاختلاف بكل أشكاله..))<sup>1</sup>؛ ولأن المتخيل هو الأقدر على فك مغاليق الذات بصوغ حيوات غيرية تختلف عن الذات ولا تطابقها، ليس من أجل الابتعاد عنها، بل من أجل الاقتراب منها بصوغ ذات غيرية تنطلق من البعد عن الذات، لتعود إليها في صور أخرى مغايرة، تشكلت ضمن سرد تاريخها لأجل فهم الحياة فهما أفضلًا، يمكنها من الوقوف في وجه من احتكر الحقيقة، وعبث بها، فـ((الحياة لا تفهم إلا بالحكايات التي نرويها عنها))<sup>2</sup>، كما أن الذات لا تفهم ذاتها إلا بسرد وجعها، وآلامها، وآمالها، وفي رواية تاريخ الأبطال، وسيّر العظام، المنبثق من الذاكرة التاريخية للجماعة، ما يخرج القارئ من محدودية الزمن، والمكان إلى فسحة المتخيل طلبا لفهم رهن الذات فهما ينتشلها عن نمطية الصورة التي فرضتها سياسة الاستعمار الامبريالي الصهيوني، وينقلها إلى الحقيقة التي ترتعن بوجود التعالق بين التاريخ، والمتخيل.

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، قناديل ملك الجليل، ص: 9.

<sup>2</sup> مجموعة من الباحثين، الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب، ط1، ت ط: 1999، ص: 53.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردى

وإذا كان التاريخ لا يمكن الوصول إليه إلا بوساطة السرد، ولا يمكن القبض عليه إلا في حدود ما يتيحه متخيل الذاكرة، فإن غاية السرد ليست تقديم معرفة موضوعية محدودة التشكيل وواضحة المعالم مثلما يتوخاها المؤرخ بالتزامه بأدوات منهجية موضوعية قد تمكنه من ضبط المعرفة التاريخية، وإنما غاية السرد فتح فضاءات المتخيل، بحثاً عن تلك المساحة التي تحققت فيها إنسانية الإنسان بناءً واكتشافاً لمعنى وجود التاريخ في السرد، وذلك وفق مسار تكويني يصاغ بحركية تفاعلية بين النص والقارئ تؤسس للقراءة التأويلية، ولعل هذا ما يلّمسه القارئ حين يقرأ قول "نصر الله إبراهيم" في بداية رواية "قناديل ملك الجليل" معلناً عن خوفه من القيود التي يمكن أن تفرضها الحقيقة التاريخية على الكتابة الإبداعية، بقوله: ((كان الخوف الوحيد الذي يسكنني هو أنني إذا ما كتبت رواية عن شخصية تاريخية كهذه، فإنني سأكون مقيداً إلى حد كبير، لكنني حين قرأت سيرتي ظاهر المقتضبتين اللتين كتبتهما ميخائيل الصباغ وعبود الصباغ، وبدأت أشكل رؤيتي الخاصة لهذه الشخصية، قلت لنفسي: لم لا نذهب إلى القرن الثامن عشر لنعيشه، إنها قد لا تتكرر ولننعم أيضاً كيف يمكن أن تكون حراً وأنت تكتب عن شخصية تاريخية بهذا الوزن .. وهذا ما كان))<sup>1</sup>، لذا، وتأسيساً على هذا المصوغ السردى، فإن نص "الملهاة الفلسطينية" قد اجتاز مطابقة الأحداث التاريخية نحو تكرار سردى يجوب به الماضي تخيلاً، وتحرراً من حاضر يهدّد الفلسطيني، ويعمل على إقصائه، في مواجهة لسؤال الهوية الفلسطينية بحثاً واعترافاً، إذ يغدو معه نص "الملهاة الفلسطينية" -مع التكرار السردى- تأويلاً للتاريخ، ونصاً في ذاكرة الجغرافيا المعلقة، والمفقودة.

من أجل ذلك، فإن السرد يهش بالتاريخ الفلسطيني السردية الصهيونية ودساتيسها، بحثاً عن الحياة الفلسطينية المتجذر في الأرض، محققاً بذلك هوية سردية تاريخية، قادرة على صوغ الحياة الفلسطينية الأولى على الأرض، بحكي يعلن، وينتفض من خلاله،

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، قناديل ملك الجليل، ص: 8,7 .

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

وبكثير من التفاصيل الحياة الطبيعية ضد كل أشكال الظلم، الذي تعرّض له الشعب الفلسطيني، فنص الملهاة قد نذر نفسه لجدلية القضية الفلسطينية بحثا واستقصاء لحقيقة المأساة الفلسطينية، وإنصاتا لصوت الضحية؛ لذلك غطت رواية "قناديل ملك الجليل" - مثلا- أكثر من 250 سنة من تاريخ فلسطين، ومن زمن الإبادة، والاقتلاع، والحرق، والنهب..، امتدادا للنص الرئيسي (الملهاة) الذي تشكل ضمن مصوغات سردية دينامية نافذة في معضلة الشعب الفلسطيني، وواقعه اليومي، محققا بذلك هوية سردية فلسطينية تستقي متخيلها السردى من التاريخ، وبمواقفه ومساراته التاريخية تتبع هذه الهوية السردية المتأصلة في التاريخ والمتخيل، و((..هي كل ما يكتسبه المرء عبر توسط الوظيفة السردية، أي عبر إنتاجه لمختلف ضروب القص، خاصة أن كل ثقافة تتكون ضرورة من أساليب وطرق للسرد، فضلا عن أن لكل جماعة تاريخية أحداثها المؤسسة لهويتها الجماعية.))<sup>1</sup>، وفي الوساطة السردية ما يحقق علاقة متكاملة بين التاريخ والسرد رغم اختلافهما؛ مع ذلك فــــ((التاريخ ..)) لا يستطيع أن يقطع كل علاقة مع السرد دون أن يفقد طبيعته التاريخية، والعكس بالعكس، لا يمكن لهذه الرابطة أن تكون مباشرة إلى الحد الذي يمكن معه اعتبار التاريخ ببساطة نوعا من جنس القصة))<sup>2</sup>، فضيافته السردية جعلت منه نصا متخلّلا يحضر في نص آخر هو النص الروائي، الذي بلغ معه مرتبة التاريخ المتخيل، في حين بلغ النص الروائي مع التاريخ مرتبة المتخيل التاريخي.

ولعل ما يدعم أكثر تفسير علاقة السرد بالتاريخ، هو امتدادها المتعلق لعلاقة أخرى متأصلة في المعيش اليومي للإنسان، وهي علاقة السرد بالحياة؛ فالإنسان يستحضر الوساطة السردية ليوثق به وجوده الإنساني، عبر سلسلة من الأحداث الغارقة في الزمن التاريخي للتجربة الإنسانية؛ وعليه يكون التاريخ ملازما للوجود الإنساني، مثلما الحياة

<sup>1</sup>جنات بلخن، السرد التاريخي عند بول ريكور، ص: 111.

<sup>2</sup> بول ريكور، الزمان والسرد، الحكمة والسرد التاريخي، تر: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، ج:1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت/ لبنان، ط1، ت ط: 2006، ص: 279.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

ملازمة للسرد، وما التاريخ إلا جزء من الحياة؛ لذا فـ((إن كون الحياة ذات صلة بالسرد أمر كان معروفا دائما وقد تكرر قوله كثيرا، فنحن نتحدث عن قصة حياة لنصف التواشج بين الميلاد والموت))<sup>1</sup>، وتحقيق لرؤية سردية تعمق الصلة بين الحياة بإشكالاتها المثقلة، والمتخيل بإمكاناته المفتوحة على حيوات مغايرة، ومختلفة تفكك القيود عن الإنسان، وتكشف له عن إمكانات تجدد الذات، ومراجعة الوجود.

بهذه الصلة صلة الحياة بالسرد- فالحياة، إذا تأخذ فسحتها في المتخيل، تعددا واختلافا وتأويلا، و((إذا صح أن الخيال لا يكتمل إلا بالحياة وأن الحياة لا تفهم إلا من خلال القصص التي نرويها عنها، فالحياة المبتلاة بالعناء بالمعنى الذي استعرناه من سقراط هي حياة تروى))<sup>2</sup>، وقد استخلص هذه العلاقة -علاقة السرد بالحياة- الناقد الفرنسي بول ريكور بعد أن أبطل مقولة ((القصص تروى ولا تعاش، والحياة تعاش ولا تروى))<sup>3</sup>، بمقولة أشد التصاقا بالهمّ الإنساني، واستفزازا من المعيش اليومي، وتثويرا بين الحاضر الراهن بإشكالاته، والماضي بتجاربه؛ فالحياة قصة؛ لأنها تبحث عن سارد لها، لذا تكون الحياة هي تلك التي نرويها في الحاضر قراءة، وليست تلك التي عشناها في الماضي كتابةً، فإذا كانت الحياة تبحث عن يرويها، فالقصة تبحث عن قارئ يعيش أحداثها على نحو متخيل؛ لذا ((فالقصة تشكل جزء لا يتجزأ من الحياة قبل أن تسافر من مرحلة المعيشة إلى مرحلة الكتابة، كما أن الحياة ذاتها عبارة عن قصة بعد أن تهاجر من مرحلة الكتابة إلى مرحلة العناء، والفعل اليومي))<sup>4</sup>، من أجل ذلك يغدو فعل القراءة هو فعل الإنصات للعناء الإنساني، وهو يمارس حضوره السردية، بوصفه سؤالاً إشكالياً يمضي بالواقع كتابة، وبالكتابة فهما وتأويلا، وعليه تكون الحياة تروى كتابة، أما القصص فهي تعاش قراءة، وتأويلا.

<sup>1</sup> بول ريكور، الحياة بحثا عن السرد، الوجود والزمان والسرد، ص: 39.

<sup>2</sup> بول ريكور، الحياة بحثا عن السرد، ص: 52، 53.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص: 39.

<sup>4</sup> جنات بلخن، السرد التاريخي عند بول ريكور، ص: 68.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردى

وتحت لواء هذا الفهم النقدي لعلاقة السرد، بالحياة تندرج علاقة السرد الروائي بالتاريخ، فالإقرار بالتعلق بين السرد، والتاريخ لا تفهم على أنها علاقة انعكاسية للواقع، والتاريخ في السرد بل هي علاقة متواشجة؛ أي أن هناك خلق لمساحات الرؤية في النص السردى، وفضاءات من الحلم المحظور عن المقومعين، والمظلومين باستعادة، وتثوير تاريخهم؛ ((بل إن مضامين السرد بوصفه إعادة سرد للتاريخ جديرة باعتبار، وليس التاريخ قصصا (تأريخا) عن الملوك والأبطال المنتصرين، أو تاريخ العظمة وحسب؛ ولكنه قصة الضعف والانتهاك أيضا، وهو أيضا تاريخ الموتى المقهورين الذين يصرخون طالبين السرد وكما أشارت حنة أرندت فإن معنى الوجود الإنساني ليس فحسب القدرة على تغيير العالم أو السيطرة عليه، لكنه أيضا القدرة على أن تكون مذكورا ومدرجا في خطاب سردى، أي أن تكون جديرا بالذكر))<sup>1</sup>، السردى الذي يفك إشكالات الحياة، ومغاليقها، وهمومها، بإحالتها إلى أفق الاحتمال، والممكن، وهو أفق القراءة التأويلية التي قد تصل بأزمات الحياة إلى فهم يرفعها عن الانمحاء والنسيان، كما قد يمكنها من الانفراج.

إنّ السرد هنا تعالق بالتاريخ، حتى تظهر برؤية تمكن التاريخ من تجاوز حضوره المطابق لما حدث فعلا، إلى حضور سردى مكثف، تم تحويله إلى مادة حياة ملحوظة من خلال حراك سردى يشع تاريخا متخيلا، يكشف للقارئ عن كيف حدث الحدث؟، ولماذا حدث؟ على نحو متخيل يعمق أكثر صلته بالنص، لــــ((يرسم تاريخا آخر غير ذلك الذي كتب تحت أوامر وتوجهات المركز، وتطلعاته نحو إقبار صوت الهامش))<sup>2</sup>، حينها يقع فهم التاريخ، وتأويله بما يغيّره، لا بما يطابقه في حقل من الفرادة، والخصوصية، التي تقرها القراءة التأويلية، وهي تنبش في ذاكرة الجماعة عبر المتخيل، الذي استوعب

<sup>1</sup> بول ريكور، الذاكرة والسرد، ص: 58، 59.

<sup>2</sup> عادل العناز، التمثيل التأويلي للتاريخ في الرواية العربية، دائرة الثقافة، حكومة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2019، ص: 14.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

الهمّ الفلسطيني في حبكة سردية تضافرت فيها كل الأزمنة في مواجهة العناء، مشكلة بذلك زمنا مغايرا هو زمن سردي تجلى فيه زمن الاحتلال العثماني لفلسطين، كما تجلى فيه الانتداب البريطاني، والابتزاز الصهيوني، لينتهي نص الملهاة الفلسطينية على هذا النحو من الوجود السردى إلى قراءة لا ترضى إلا بالاستئناس سبيلا تفك به عبء الحياة الثقيل عن الفلسطيني.

بهذا الفهم يتعذر تفسير علاقة التاريخ بالسرد الروائي، إلا على نحو من الكشف الذي يمكن القارئ من العيش في كنف التعدد، والاختلاف الذي تتيحه القراءة التأويلية، وعلى أساس فهم هذا الوجود، يغدو السؤال الملح في طرحه هنا، هو: بما أن نصّ "الملهاة الفلسطينية" قد حقق اندماجا بين التاريخ والسرد، بلغ حدّ التعالق، والتواشج، فأين ينتهي التاريخ، وأين يبدأ المتخيل، أو كيف تم تمثيل التاريخ في رواية "قناديل ملك الجليل"، التي اتخذها البحث نموذجا يبرهن به على هذا التواشج بين التاريخ، والسرد؟، وكيف تعالق التاريخي بالسردى ضمن سيرورة التأويل؟

إنه لمن الجدير بالذكر أن يسلم البحث رفقة ريكور، بأن مرجع السرد هو التجربة الإنسانية ((عندما تأخذ شكل الحكمة السردية، إذ من دون ذلك لا تكون تلك التجربة سوى خرساء وفاقدة للشكل. فالفرد لا يعثر على هويته إذا لم يستطع أن يتشكل داخل ما يرويه. وإذا كان هذا صحيحا على صعيد الفرد، فانه يبدو كذلك على صعيد الجماعات وعلى صعيد الأمم والشعوب، وهذا ما يتجلى من خلال حاجة الأفراد والجماعات إلى إنتاج ضروب السرد والمحكيات وإعطائها أبعادا تتعدى مجالات الإحالة إلى الفردي إلى الارتباط بالجمعي الكامن في صميم التجربة الإنسانية))<sup>1</sup>، وعليه يبرز سؤال من نحن؟، ويقترن بسؤال الحكمة بحثا وإدراكا لمسألة الهوية الفلسطينية.

<sup>1</sup> إدريس الخضراوي، السرد موضوعا للدراسات الثقافية، نحو فهم لعلاقة الرواية بجدلية السيطرة والمقاومة الثقافية، مجلة تبيين للدراسات الفكرية والثقافية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ع: 7، المجلد: 2، شتاء 2014، ص: 108.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

تصل بنا المقاربة التأويلية - التي اتخذها البحث معنا له في الكشف عن خبايا النص ومضمرااته - إلى البحث عن كيف تشكلت كينونة فلسطينية عبر المتخيّل حين شاكل فعله التاريخ انجازا لمصير أمة أفتلعت، وشتت..، وتجاوزا لتاريخ فلسطيني نُكّل به في غياهم سياسات استدمارية صهيونية مدعمة، لأجل ذلك تلتفت المقاربة التأويلية بحثا عن الحكمة التي تراحم حجم الحقيقة التاريخية، الملقاة على عاتق المتخيّل، لذا فوجود الحكمة مرهون بما كان ويكون و بما هو صائر، ويصير الآن على أرض فلسطين؛ فالحاضر المأزوم للشعب الفلسطيني استدعى التاريخ حتى يزحزح الضعف، والهون الذي قد يقع فيه الفلسطيني، ويجدّد مقاومته للوقوف في وجه الاحتلال الصهيوني، بالبحث عن الحياة المستقرة للفلسطيني عبر التاريخ، ليكسر بها مقولة الصهيوني "أرض بلا شعب".

من أجل ذلك يمكن للبحث أن يورد ملاحظة في غاية الأهمية دعما لهذا المصوغ السردية؛ أن نص "قناديل الملك الجليل" أتى في صيغة مدعمة لوصف حياة الاستقرار لفلسطين، رغم الاحتلال العثماني الذي تميز -مثلما مثل النص ذلك-، بأنه احتلال بني على القوة والسيطرة، وعلى الابتزاز وليس الاقتلاع والمسح الوجودي، في حين قامت المقاومة الفلسطينية في ذلك الحين على الانفلات من سلطته؛ يقول النص ساردا التحايل الحكيم من قبل متسلمي طبرية في مواجهة الضرائب التي فرضها النظام العثماني على الفلسطيني مقارنة بباقي المتسلمين: ((كانوا يدركون أن الدولة تربي متسلمي الميري، كما يربون هم الخراف المخصصة للذبح، تطلق الدولة أيديهم ليحصلوا ما لها، وتغض أعينها عما يقطعونه ظلما من الفلاحين، وحين تتأكد أن ما جمعوه أصبح أكبر بكثير من ذلك الذي دفعوه لها من مال، ترسل من يتخلص منهم ويستولي على كل شيء، لم يكن عمر الزيداني من ذلك النوع، إذ أدرك أن أهم ما يمكن أن يفعله هو أن يحافظ على طبرية ومن فيها، وأن يدفع ما عليه للدولة، وإلا يترك لها فرصة كي تنقض عليه طمعا))<sup>1</sup>، فكانت سياسة عدم إعطاء الفرصة للحكم العثماني بتسليمه الضرائب المفروضة مسبقا، سياسة

<sup>1</sup>إبراهيم نصر الله، قناديل ملك الجليل، ص: 39

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

لحقن الدماء، أو نوعا من المقاومة الحكيمة انتهجها رجال مخلصون، لأجل تحقيق حياة الاستقرار للفلسطيني، التي توفرت فعلا عبر متخيل يتموقع ضمن أحداثيات زمن متشظي لإعادة تركيبه وفق حبكة سردية ((وظيفتها إيجاد قضية واحدة من أحداث متعددة))<sup>1</sup>، وهي إعادة سرد حكاية المكان مجددا، لغاية تصوير عمق التجذر التاريخي لهوية الشعب الفلسطيني في أرضه، وهذا ما يشكل آلية تحليلية متناسقة مع إشكالية النص الرئيسية، والتي تبتغي إيجاد سبيل تفكك به الحكاية الصهيونية المبنية على صنع الأكاذيب، "بأن فلسطين لم تكن موجودة".

لتتعلق الحبكة السردية من موضع الاستقرار السردية لبنية افتراضية لنص الملهاة، إلى موضع تمثيل استراتيجية مضادة للسردية الصهيونية؛ فتنتمي الحبكة السردية من التاريخ ما يتجلى وجوده السردية في مبدأ التعرية عن بشاعة الفعل الشنيع للاستعمار الصهيوني، حتى تتلمص الحبكة السردية لنص الملهاة من نمطية الصورة المقيدة، التي استجابت لتطلعات الخيال الصهيوني من حيف وأكاذيب وتلفيق، تحقيقا لهوية فلسطينية متجذرة في التاريخ بخاصة أنه أصبح ينظر إلى الهوية على أنها نتاج ممارسات تمثيلية سردية دالة.

انطلاقا من حقيقة نقدية مفادها أن كل سرد يعد تمثيلا لإشكالية ما، فإن التأويل ((هو محاولة للإجابة على السؤال الذي يطرحه علينا النص، وفهم النص، هو فهم للسؤال، وهذا لا يتحقق إلا بفهم أفق المعنى، أو أفق التساؤل الذي يمكن من خلاله تحديد المعنى))<sup>2</sup>، لذلك فإن نص "قناديل ملك الجليل" نسا صيغت حبكتها السردية (بأحداثها، وشخصياتها، وزمنها) من خلال تجلي سؤال من نحن؟، ليقوم دعائم الوجود النصي من تجربة إنسانية تاريخية شديدة الخصوصية؛ والتي تمثلت في شخصية "ظاهر عمر الزيداني"، والآتية من

<sup>1</sup> بول ريكور، الزمان والسرد، التصوير في السرد القصصي، ج2، تر: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت/لبنان، ط1، 2006، ص:66.

<sup>2</sup> عادل مصطفى، فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنيوطيقا: نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر، ص: 238.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

زمن النظام العثماني الإقطاعي على فلسطين، وفي هذا الوسط الإنساني الكبير المشحون بالظلم، والهيمنة، والسيطرة والتوتر...، تم إنشاء دولة فلسطينية متحدية بذلك ظاهر عمر -مثلما ما قال إبراهيم نصر الله- أكبر دولة في ذلك الزمن، ورفضاً لنظامها المستبد، ومصرًا على رفع الظلم على الشعب الفلسطيني.

يتلق القارئ عالماً نصياً ممكناً لـ "قناديل ملك الجليل"، في مستوى إعادة إنتاج التاريخي في السرد، بحثاً عن الروح التاريخية للأمة الفلسطينية التي أحدثت النكبة، أو الصدمة التاريخية تشويهاً وخللاً في مسيرة تطورها<sup>1</sup>؛ لأن غاية السرد هي الاقتران بالذات (الإنسان الفلسطيني) وعلاقتها بالعالم، تحديداً، واعترافاً، وانتصاراً لهويتها التي تستعيدّها بوساطة السرد، ومن خلاله يتم لها الكشف عن عوالم لم تكن تدركها الذات إلا بفعل السرد؛ فهذه ((مفاهيم ومفاتيح بها ندرك وجود الذات فاعلة عبر وسائط: اللغة، الفعل، السرد، إن اتيقا الذات قد تؤول بهذا التناول الجامع لأحداث عاشتها الذات وتحياها سرداً لوقائع محفوظة في الذاكرة لحظة الحياة أو انتهائها (الموت)))<sup>2</sup>، بذلك يكون التواشح بين التاريخ، والخبرة الإنسانية المطروحة في السرد قد سلك مسارا تعيد فيه الذات سرد هويتها الفلسطينية في الماضي كتابة، والكشف عن الاحتمال من استعادة الفلسطيني لأرضه المسلوقة في الحاضر قراءة، أو ليس النص ((.. هو الوجود الممكن، بما أنه يخضع لإمكان الاستعادة التأويلية المستمرة))<sup>3</sup>، التي رافقت البطل "ظاهر عمر الزيداني" في انجاز حكايته، أو حكاية إقامة دولة عربية على أرض فلسطينية بتحدّيه للنظام العثماني، وبرفعه لحالة الظلم التي يعيشها شعبه الفلسطيني.

إن المتفحص لشخصية البطل "ظاهر عمر الزيداني"، -ومنذ بداية حياتها الأولى- يجدها نتاج بيئة فلسطينية خالصة، تعند بتربية أطفالها على الأخلاق، والهمة، وركوب

<sup>1</sup> ينظر: رامي أبو شهاب، النكبة في رواية "زمن الخيول البيضاء" لإبراهيم نصر الله: المتخيل والوعي التاريخي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، 2020، جامعة الكويت، ص: 252.

<sup>2</sup> الورفلي، بول ريكور الهوية والسرد، ص: 6.

<sup>3</sup> حسن بن حسن، النظرية التأويلية عند بول ريكور، ص: 45.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

الخيال، وحب الأرض، والوطن، ولعل هذا ما ذكرت به "نجمة" مربيته، حين قالت لظاهر عمر: ((...لقد خطوت خطواتك الأولى هنا، لم يكن هناك من بقعة في طبرية أفضل من هذه كي تسير حافيا فوقها، فهنا الأرض مليئة بالخيول، لا تحاول استرجاع ما مر، وكله فيك الآن! أنت بحاجة لان تسير اليوم فوق هذه الأرض وأن تحسها، وتحس بكل الخيول التي عدت فوقها، أنت بحاجة لان تتشربهما معا: الأرض والخيول!))<sup>1</sup>، فالشخصية تشبعت بحب الأرض، واندمجت فيها وانسجمت بالروح الإنسانية الفلسطينية، التي مكنتها من اختراق الحكم العثماني، السائد وكسرت نظامه، فتجاوزته ببديل استتبت من العدل، والمساواة بين الناس، وهذا ما أقسم عليه "ظاهر عمر" بقوله: ((أقسمنا بأن لا يكون للظلم مكان حيث نصل، ولا يكون للذل مكان حيث نكون جباهنا، ولا للخوف مكان حيث تبقى قلوبنا، ولا للقبح مكان حيث تنظر عيوننا، ولا لإهانة كرامة الناس مكان حيث تكون أيدينا وسيوفنا وإرادتنا. لنعد أحرارا إلى بيوتنا كما جئنا، لنترك وراءنا هذا السهل وقد غمرناه بالعدل والأمان))<sup>2</sup>، فشخصية "ظاهر عمر" شخصية منسجمة مع أهدافها فلم تكن حالمة بنصرة المظلومين، والمقموعين فحسب، بل كانت روح الحزم، والعزم على الانتصار سبيلا لها في نشر العدل بين الناس، وفي تحقيق دولة عربية فلسطينية.

وليس بعيدا عن هذا المنحى الدلالي الذي أقامه النص في سرد حياة البطل "ظاهر عمر" بمعية الآخرين اعترافا لوجود أمة فلسطينية متجذرة في التاريخ، فإن السرد عندما أوكل إليه مهمة حكي هذه التفاصيل بإعادة تشكيلها في بناء سردي متماسك، ليس لغاية استدراج القارئ إلى عوالم متخيلة تستعيد فيها الذات الفلسطينية هويتها فحسب، وإنما لاستخلاص العبرة من سرد تاريخ العظماء، الذين اقترنت حياتهم بالآخرين كفاحا، ومقاومة، واعترافا، حتى أضحت حياتهم هي حياة أمة بأكملها، وما العظماء إلا رمزا من رموزها، يقول "ظاهر عمر": ((أريد أن يجلس الناس في أرضهم يا سعد وأن ينزعوا

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، قناديل ملك الجليل، ص: 43.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، قناديل ملك الجليل، ص: 209.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

بجانِب الشجرة التي يزرعونها، فإذا أخصبت أرواح الفلاحين أخصبت الأرض يا سعد))<sup>1</sup>، والإرادة التي تعلقَت بالأرض، وبالأخرين ما هي إلا إرادة مسكونة بـ "النحن"، أو إرادة الأمة والجماعة.

من منطلق أن الفرد استحال هنا -وعبر وسيط السرد التخيلي للذاكرة التاريخية- أمة حياتها مرهونة بما ترويه الذات، وما تسرده، وتعيشه من أحداث تشكل هويتها عبر مسار التاريخ المتخيل للجماعة، وهو الهمّ الذي يجري إليه النص "قناديل ملك الجليل" في تركيب سردي يعيد تشكيل عوالمه الممكنة ضمن شبكة من المرجعيات التاريخية، والمتخيلة التي اتكأ عليها النص في إعادة ترتيب موقع الذات الفلسطينية في وطنها؛ حين شقت طريقها نحو أفق استرجاع الأرض من مغتصبيه؛ أي أفق التحرر، ومقاومة الآخر النقيض، فحين ((...أقسم ظاهر: أنه سيجعل درك هذه الدولة (العثمانية) ومتسلميها ووزراءها وسلاطينها يدفعون الكثير))<sup>2</sup>، لم يكن ينتصر لنفسه بل ينتصر للشيخ البعنة الذي أفقنت عينيه هو وعائلته، وجميع أهل البعنة الذين أبيدوا على يد وزير صيدا التابع للدولة العثمانية، وتمثيلاً لذلك يقول السارد: ((كان وجه الشيخ حسين يرف أمامه مثل طير، وعينا عباس تتسعان أكثر فأكثر فلا يتسع غير عماهما. كم حاول أن يتناسى (ظاهر عمر) قصة فقئ عيني الشيخ وعيني عباس، لكي يحمي نفسه من ذلك الأسى الذي يقتله لأنه خلفهم وراءه، لكنه لم يستطع))<sup>3</sup>، فكان هذا الحدث فاجعة ومأساة إنسانية، وحدثاً طارئاً، ساهم في تشكيل شخصية القائد المناضل، الذي أدرك حجم العجز الذي يصيب المضطهدين، والمقموعين حين يفرض عليهم مصادرة أموالهم، وممتلكاتهم وأراضيهم، هذا ما شكل لديه وعياً بإشكالات الإنسان المحاصر بالظلم، والاضطهاد، فانحاز إلى قيم الحق، والعدالة، والحرية، لذلك رفض كل أشكال الاستعباد، فسارع إلى رفعهم،

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص: 189.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، قناديل ملك الجليل، ص: 146.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص: 133.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

بقوله: ((...لن يقبل ظاهر بعد اليوم أن يقتل الناس هكذا، لن يقبل أن يسلب أحد أو يسلب سواه حتى ولو حبة تمر!))<sup>1</sup>، ومن هذا الرفض يتشكل مشهد يسعف الجماعة.

بهذا تمتثل الذاكرة الجماعية لحكاية وجودها التاريخي سردا، وعبر سرد استعادي تستعيد فيه الذات، والجماعة هويتها، دفاعا عن شرعية الأصول الفلسطينية، واعترافا لشعب غيب تاريخه، ومزقه الاقتلاع، فكان لابد من رواية الحكاية من تاريخ أصول وجودها على الأرض الفلسطينية بغية تبرئة سيرة وجود الشعب على أرضه، تبرئة تمكنه من صوغ حقه سردا، وحكاية؛ ((لأنهم رأوا في تهجيرهم ونفيهم محاولة لجعلهم يضمنون (...)) هكذا أجابوا على رفض الاعتراف بوجودهم، من خلال التأكيد بأن إسرائيل غير موجودة، وانطلقوا خاصة في سياق الرجوع بالزمن إلى الوراء لكي يثبتوا أنهم كانوا هنا، في فلسطين، منذ زمن سحيق))<sup>2</sup> وعلى هذا الأساس فإن التاريخ الجمعي ووجه باقترانه بالسرد إلى ربط هذا الوجود النصي بأسئلة الراهن الفلسطيني الذي تعمق في صوغ رفض الإنسان للظلم والجور، وتشكيله سرديا على نحو من مقاومة الاستعباد وتحقيق النصر على أرضه، لتتسع بذلك رؤية الإبداع في فضاء المتخيل الذي يؤدي إلى الوصول إلى فهم أفضل للإنسان، وإشكالاته.

وبالوصول إلى هكذا نتيجة، يكون هدف اقتران السرد بالتاريخ قد اتضح أكثر بانتعاش التجربة الإنسانية المسكونة بالمتخيل والمحمولة على التاريخ، والتي قيلت بالخيال الذي كان سبيلا لقول حقيقة أن فلسطين متجذرة وموجودة تاريخيا، وعلى هذا النحو تنتظم هوية سردية دفاعية يعود بها الإنسان الفلسطيني إلى ذاته لكتابة تاريخه ك لحظة امتلاك بعدما غيبه الآخر ويرفع بها همته لمواصل انجاز سردية فلسطينية مقاومة للسردية

<sup>1</sup>المصدر نفسه، ص: 132.

<sup>2</sup> الياس صنبر، عن الهوية الثقافية للفلسطينيين، العودة إلى الزمن، مجلة كرم، العدد: 55، 56، ت ن: 1، أبريل 1998، ص: 353.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

الصهيونية التي أحدث غيابا تاريخيا لفلسطين وتحقيقا للاعتراف للشعب الفلسطيني في أرضه.

وضمن هذا السياق اتضح مبنغى سردية الملهاة الفلسطينية في استعادة الذاكرة الجماعية عبر المتخيّل، الذي انتقى منها ما يصوغ أزمنة السرد، قصد البحث عن هوية فلسطينية متجذرة في الأرض، لتنموضع هذه الأزمنة داخل المتخيّل كفاعل مركزي في مواجهة الاستلاب وتزييف الحقيقة، ومنه يلح البحث في طرح السؤال التالي: إذا كان الإطار المرجعي للنص هو التاريخ والمتخيّل، اللذان انبعثت منهما كتابة سردية تسعى إلى تشكيل هوية نصية موازية للحياة الجماعية التاريخية الفلسطينية، بغية تحقيق الاعتراف، وتأمين للنقطة بالنفس، فكيف ارتقى مستوى نص "الملهاة الفلسطينية" أن يسمعنا صوت الذات، وهو الغارق في محكي الجماعة؟، أو كيف تحول محكي الذات إلى صوت للجماعة بحثا عن الهوية الفلسطينية؟

### المبحث الرابع:

مسار الذات نحو الجماعة، وانتمائها لهويّة فلسطينيّة.

ينتظم محكي الذات ضمن نص "الملهاة الفلسطينية"، كتجربة سردية تساهم في تشكيل الهوية الفلسطينية تشكيلا تحضر فيه الذات، ((وقد ألقى بها في عالم غريب عنها، محاط بما ليس هي، أي بأخرها الذي يسكنها، ويحضر بداخلها بشتى الصور: جسد يقاوم، صوت ينادي، عذاب يؤرق...إنها الذات التي تضطر إلى التماسف والاختلاف مع ذاتها من أجل استعادة هويّتها وقد صارت مختلفة ومتباعدة عن ذات عينيها))<sup>1</sup>، والكشف عن الذات عبر مسارات تحول حياتها في زمن التمزق (النكبة أو الفاجعة)، يؤسس لحكاية ذات أخرى، ذات تحضر وفق استراتيجية نصية تتيح لها أن تكون هي، وليست هي؛ ففي زمن الشتات يتخلق زمن براءة الأطفال وجمال الطيور... زمن يوازي الزمن الموحش، الذي انفلتت منه الذات بحثا عن حضور مختلف تقاوم به الغياب التاريخي، وتكسر به علاقات التضاد التي تشوه حقيقة الماضي، أو حقيقة اغتصاب فلسطين.

<sup>1</sup>ميلود بلعالية دومة، تأويلية الذات وتجربة الاختلاف عند بول ريكور، مجلة مقدمات، العدد4، سبتمبر2017، ص:29.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

هذا الامتداد النصي نحو ماضٍ مجروح كفت به الذات أن تكون نفسها، بل كشفت كذلك عن ذات أخرى، هي ذات السرد، والمتخيّل، التي أعطت تفسيراً لوجود سردي احتوى الماضي لأجل رهن تبحث فيه الذات عن الوطن، والحرية، وتهجر به نحو تحقيق هوية الجماعة والتعبير عنها؛ لأن الذات في سردها لحياتها لا تبحث عن هوية فردية خالصة لها، بقدر ما تريد تحقيق كيان جمعي يستقر عند الذات والجماعة معاً، لذا فالذات لن تستطيع أن تؤسس ذاتها بعيداً عن الآخرين.

تمثيلاً لمسار الذات نحو الجماعة في نص "الملهاة الفلسطينية"، تتجه القراءة نحو تأويل رواية "طيور الحذر"، وهي الشاهد على ولادة أحلام الصغار وموتها، كما تشهد على الواقع الفلسطيني الذي فقد صلابته، وتماسكه حين شرد الشعب، واقتلع من أرضه، وفي أجواء من العجائبي، والمأساة تصطنع الذات لها موقعا من ملامح روح المقاومة، وحب الأرض في تحد ومثلها رواية "أرواح كليمنجارو" الغارقة برمزية من التحدي، والكفاح في الواقع المأساوي للشعب الفلسطيني، وهذا التحدي الذي يحرك مفاصل الروايتين يؤسس لحكاية الذات ضمن الجماعة فكلا الروايتين تتكئان على محكي الذات التي تبحث عن فهم حاضرها انطلاقاً من بعث الماضي، فما بعثه الزمن تستعيده الذات سرداً، ومتخيلاً بحثاً عن الهوية التي جرحته، لذا فإن السؤال الذي يشغل القراءة في هذا المبحث، وعبر نصوص "الملهاة الفلسطينية"، هو كيف تحول محكي الذات إلى صوت للجماعة؟ أو كيف تكشف القراءة التأويلية عن المكون التاريخي للنحن ضمن محكي الذات، وهي تبحث عن ذاتها وعن هويتها؟ أو كيف تؤسس الذات هوية الجماعة وهي تروي تفاصيل حياتها؟

إن محاولة القبض على معنى حكاية الذات، وهي تسرد ماضيها، من قبل القارئ، تفرض عليه الاستئناس بما يقترحه النص من دلالات تؤسس لتفكيك الحكاية، وتوجه القارئ نحو مسارات التأويل؛ تأويل ما كان، وما لم يكن، أو تأويل المتخيّل، والواقع؛ فما عاشته الذات قد أعيد تأويله وفق تركيبية سردية معقدة تؤسس لأفق مغاير، هو أفق

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

المتخيّل المشحون برؤية فردية، وجماعية، وهذا ما يؤدي بالقارئ إلى الإنصات إلى وقع المعنى بتتبع آثاره عبر مصاحبة النص، واستنطاقه، وحسبه من ذلك أن يحقق دلالة ما، دلالة يقبلها النص إلى حين يأتي قارئ آخر بدلالات أخرى مصاحبة له، ومكافئ لمعطيات استراتيجياته، وهذا التعدّد في دلالات النص يرجع بالأساس إلى ((حقيقة المعنى التي يتعقبها الفهم (فهى) ليست بالشيء المتجلي الذي ينتظر الآخر/المؤول أن يقبض عليه أو يزيده إيضاحاً وتجليّة، وإنما هي، (...)) توجد بين بداية مجهولة ولحظة متحوّلة في زمن غير قابلة للتحديد ومن ثم يصعب ضبط هذه الحقيقة فهما وتأويلاً<sup>1</sup>، بالإضافة إلى ذلك فالنص تتعدّد دلالاته بتعدّد حملته المعرفيّة والإيديولوجيّة، وهي عبارة عن معطيات نصيّة، أو استراتيجيات تحيل القارئ بدورها إلى عالم خارجي انطلاقاً من عالم افتراضي داخلي؛ وعليه فـ ((لا يمكن اختزال المعنى في دلالة لسانية بنيوية؟، (...)) ذلك يعني أن النص لا يستنفذ الدلالة بل هنالك النص، وهنالك ما هو خارج النص. وما هو خارج النص هو ما يجعل كل خطاب خطاباً "منفتحاً" بلا نهاية<sup>2</sup>، لذلك تتحرك القراءة التأويليّة خارج الأطر التكوينيّة للنص انطلاقاً من معطيات بنيويّة افتراضيّة.

وبناء على هذا النمط من الفهم النقدي لمسار القراءة، يحتل النص موقعا ضمن سيرورة التواصل مع القارئ الذي يتكفل بإثارة دلالات حين يبتغي النص استرداد فترة ضائعة من سيرة الذات، وهي فترة تنتمي إلى تاريخها الفعلي؛ أي المرحلة الجينيّة، يقول السارد مستحسنا عالم الرحم: ((..كان الرحم جميلاً ودافئاً وله رائحة غرفة غير مسكونة<sup>3</sup>))، وهذا العالم لا ينتمي إلى ذاكرة الذات إلا من حيث متخيّل تبتغي به الذات رسم عالم عاشته، ولم تعه؛ لأن ذاكرتها لم تتضح لالتقاط أحداث تلك المرحلة بعد، وتسجيلها، ومعرفتها بها غائمة وغير مدركة، بل تم لها استعادتها سرداً بوساطة المتخيّل،

<sup>1</sup> عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة، نحو مشروع عقل تأويلي، ص: 267.

<sup>2</sup> فتحي المسكيني، الكوجيطو المجروح، أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2013، ص161.

<sup>3</sup> ابراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 7.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردى

لإيجاد بديل لواقع امتد داخل سبل العوالم الممكنة للنص يقول السارد: ((هذه الفترة اعتبرتها ضائعة، دائماً اعتبرتها فترة ضائعة من عمري، أعني فترة وجودي في الرحم، حيث العالم مقفل ولا يربطني بالحياة سوى خيط لحمي))<sup>1</sup>، ومادامت الذات هي في حالة استرداد لما فُقد، واستعادة ما سلب منها ضمن أفق الاحتمال الممكن، أو أفق السرد والمتخيّل، فإن استعادة الذات لفترة وجودها في الرحم قد يفسر على أن الذات تريد أن تتموقع ضمن محكي الذات المغاير الذي يحملها على التغلب على عوائق محيطها، وبهذا يكون محكي الذات هنا هو النموذج الأمثل لبناء هويّة سردية قادرة على ترميم واكتشاف أغوار النفس والغوص في عوالم تجربة ذاتية مختلفة عما ألفناه عن السير الذاتية.

شكلت الذات في نص "طيور الحذر" حضوراً سردياً متجدّداً، ومختلفاً باستمرار، حين تم تأويل حياتها قصة، تكون بديلاً نشطاً عن الحياة عينها، حيث لا وجود إلا لانتماء إنساني يعطل به كل لؤم بشري، في ظل تهديد، وظلم الآخر الصهيوني النقيض، الذي عبث بالجماعة الفلسطينية، باقتلاعها من جذورها، ورميها في ممر الشتات؛ لذلك ((توجد حياتنا في فضاء من الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عنها إلا من خلال رواية القصص المتماسكة))<sup>2</sup>، والقابلة لإدراك القارئ من حيث أن الحياة أعيد تشكيلها تشكيلاً يدفع به إلى تفكيك العالم النصي، الذي اتخذ مساراً يحمل الحياة، ويختلف عنها، ليكشف بذلك في نص "طيور الحذر" عن ذات تنهياً لتكون بعدما كانت نسيّاً منسياً، لذا ففعل "أكون" هو فعل التخلق، والوجود، يقول السارد على لسان الجنين: ((ولكن عندما تأخر (يقصد تأخر الأب عن القابلة) خفت، كيف لي أن أعود ثانية إلى نقطة الصفر تلك، لأكون لا شيء، أنا الذي قطعت عتمة تلك الشهور لأكون؟))، من أجل ذلك نجد الذات تسعى إلى سرد تفاصيل سردية عن وجود غريب وعالم عجائبي، يتيح للقارئ العثور على ذات أخرى، ذات تقييم علاقة بذاتها، والعالم بوساطة اللغة، وعليه يتبلور المتخيّل الذاتي من خلال فعل الحكي

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص: 9.

<sup>2</sup> فتحي المسكيني، الكوجيطو المجروح، ص174.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردى

الذي يعيد معه تمثيل الماضي بطريقة غير مألوفة، وهي قدرات تأويلية ينوي بها المبدع استقطاب القارئ للمشاركة، في تجربة إنسانية شديدة الانفراد بما تطرحه من خصوصية سردية، تريد بها الذات تأمين علاقتها بالعالم، الذي لم يعد لها إلا من حيث الوجود المبعثر، والمتعب.

ومنه تتموقع الذات ضمن متخيل يتعلق بسؤال المصائر الذي ينتقل معه القارئ من رؤية سكونية لا ترى في النص سوى بنية لغوية مكتفية بذاتها، إلى رؤية غير مستقرة ترى في تأويل وجود الآخرين من خلال الذات استنادا منهجيا، قد يمنح للقارئ أفقا فكريا يمكنه من معرفة كيف تحرك المبدع في فضاء المتخيل، لبناء هوية سردية جماعية يواجه بها عملية المحو المستمرة للذاكرة الفلسطينية؟.

اقترن محكي الذات بتجربة الحياة الواقعية للمبدع "إبراهيم نصر الله"، اقترانا أخذ فيه المتخيل مسارا مهما يراهن فيه على الابتكار، والمغايرة، وعلى إتمام ما أسقطته أو ما أغفلته الذاكرة، وعلى طرح استراتيجيات مختلفة لتشكيل التجربة السردية لمحكي الذات، التي أسعفها الماضي بإمكاناته المعرفية، والتاريخية لفهم إشكالات الراهن، والتواصل معه في حدود ما يملي على المبدع من وعي بالتجربة الذاتية، والجماعية معا، وهي تجربة استبعد فيها ضمير المتكلم الذي طبع السير الذاتية، وعليه فالقارئ لا يعثر على هوية المبدع في نص "ظهور الحذر" بقدر ما يجد هوية سردية ذاتية تجاوزت حدود الفرد، إلى تمثيل رمزي عن عناء الجماعة في نزوحها وفي بعدها عن الوطن، وعليه ف\_\_\_\_\_ ((الهوية السردية هي التي تتشكل على امتداد السرد. إنها ثمرة الحياة الممتحنة بالعناء. والحياة الممتحنة بالعناء هي، في الجزء الأكبر منها، حياة تطهرت وصقلت آثار التطهير، في السرود والحكايات، سواء أكانت تاريخية، أم قصصية، التي تنقلها ثقافتها))<sup>1</sup>، وبهذا التشكيل السردى ما يحفز القارئ على استنطاق التعالق السردى، والاندماج بين محكي الذات الذي استحوذ فيه المتخيل على واقع الجماعة الفلسطينية،

<sup>1</sup>بول ريكور، الزمان والسرد (الزمان المروي)، ج3، ص: 370.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

بتأويل واقعها المرير نحو أفق بديل من الأمل، والحرية، وبين سيرة انتماء الذات للشعب الفلسطيني الذي أضحى عنوانا للتمزق المستمر في شتاته.

تتواجه الذات مع نفسها بواسطة متخيلٍ يمكنها من تأويل حقيقة الوجود المبعثر للجماعة الفلسطينية في شتاتها وعبر تاريخها، وذاكرة الذات، و((لأن الحقيقة ليست بديهية مباشرة، بل الحقيقة جهد مستمر من الذات والإقامة عند الآخر))<sup>1</sup>، لتقبل بذلك ذات أخرى غير الذات التي عاشت أحداث الفاجعة في الماضي، إنها ذات مغايرة تعيش الآخرين في راهن قرائي سردي يقر بتهميشهم، وقمعهم من قبل الاستعمار الصهيوني، الذي أغلق أفق شعب بأكمله بتشريده، واقتلاعه من أرضه، والزج به في "اللامكان"، حتى أضحت الجماعة الفلسطينية تستوطن الجبال، وتعيش في مغارات الثعالب، يقول السارد واصفا وضعية الجماعة أثناء إقامتهم في السفح: ((.. في ذلك السفح انتشر البشر في بيوت متباعدة، زرعوا أمام المغارات دواليهم، وهم يدركون أن إقامتهم هنا لن تطول، يتجولون وخضرتهم معهم، يرحلون وخضرتهم معهم، ويشقون، ولم تكن الأشجار التي يحبونها، أشجارهم الفلسطينية، عاجزة عن أن تنمو في هذه السفوح، فزرعوها، وهم على يقين أنهم سيتركونها هنا ذكرى لأيام قاسية عاشوها بعيدا عن وطنهم))<sup>2</sup>، وعلى أرض التيه، والشتات، تسرد الذات عناء الشعب الفلسطيني المحروم من الإنسانية، ومن الاعتراف، لتكون بذلك منبععا للهوية، التي تحدّد انتماءها الفلسطيني في محكي استعادي، تبتغي من وراءه فهم وضعيتها حيال راهن فلسطيني مأزوم، بالكشف عن تاريخ شعب تم حذفه واختزاله وفق رؤية صهيونية استعمارية.

وحتى تكون الذات جديرة بهذا الانتماء، وسعيا منها لإيجاد هوية سردية تمثل الجماعة الفلسطينية صاحبة الحق المسلوب، تدرج فصولا من المعاناة والشقاء عبر

<sup>1</sup> هرون نصيرة، هرمينوطيقا الذات عند بول ريكور، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة

عدد: 49 جوان، 2018، ص: 461.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 23.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

ممارسة سردية، تكمل بها أرخبيل المأساة الفلسطينية؛ فـ((الانتماء يمكن أن يجعل هوية ما ممكنة أو قابلة للعيش(..) فنحن لسنا سوى ما يمكننا أن نحكيه عن أنفسنا العميقة.))<sup>1</sup>، التي اقترنت بالسرد لتعود إلى المنسي من ذاكرتها في تعددها، واختلافها عبر تاريخ الاقتلاع، والسرد يتكفل به بحثا عن فضاء لفهم الذات، وانفهامها أمام الآخرين، وعبر عالم افتراضي يجعلها تخوض سبيل التخيل، وتأويل ما كان، وما يكون، وما صار وما يصير، بوعي عن راهن مأزوم استدعاه للقول السردية؛ وليس فعل السرد أو الحكي فعل استتساخ مقيت ومبتذل لما جرى، وإنما نلمس تلك الروح الإنسانية للذات التي تهول بممارسة سردية عجائبية، أيضا تصطنع مفهوما فلسفيا للحرية في معناه الأولي\*، وفي بعده الإنساني، وهو مفهوم بدائي لم تلمسه أية شائبة، أمام تفجع الجماعة بواقعها، ومأساتها((وهذا وجه المفارقة: ما نتخيله أكثر واقعية مما نظن أنه يحدث لنا))<sup>2</sup>، لهذا استعانت الذات المبدعة بالمتخيل حتى يكون كتابة لانتمائها، وتأويلا لمآزق هويتها.

بهذا الفهم الذي أقر بانتماء الذات إلى الجماعة الفلسطينية، وبتحول مسيرة سيرتها الذاتية إلى سيرة جماعية، يكون((الانتماء هو وظيفة رمزية وليس تمثيلا لواقع معطي، فالهوية لا تعطى بل تشكل وفقا لصراع تأويلات بلا نهائية.))<sup>3</sup>؛ لواقع معيش متشردم، تتحكم فيه أيدي صهيونية بأسرها للمكان الفلسطيني، وبمصادرتها للذات والجماعة، وبتشويها لحقيقة تاريخ الفاجعة، والنكبة لصالح نظامها الاستعماري؛ ولأن الشقاء الذي أعلنته الذات عبر فعل السرد وفي منفاها القسري قد تجلى أكثر برؤية جماعية هاجسها الوحيد هو إيجاد لقمة العيش البسيطة، يقول السارد: ((الكثير من رجال الجبل كانوا

<sup>1</sup> فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانية، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 2016، ص:252.

\* يتولى البحث مفهوم الحرية بما يقترحه نص طيور الحذر من دلالات، في المبحث الرابع من الفصل الثاني، أما في هذا المبحث يبتغي البحث أن يحلل مسار الذات وهي تلتف حول الجماعة لإظهار تلك الهوية الفلسطينية في معاناتها.

<sup>2</sup> فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانية، ص: 142.

<sup>3</sup> فتحي المسكيني، الكوجيتو المجروح، ص: 174.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

يعملون هناك في الكسارات، يحطمون الصخور، يفجرونها ببارودهم، أشغال شاقة مؤبدة، يزرعون تحت ساعاتها الطويلة بصبر القهر، ذاك الذي يعتصرهم منذ اقتلاعهم من جذورهم، وتذريهم في الهواء المر شظايا شقاء وبحث لا يهدأ عن لقمة عيش مهما كان لونها. والأرض تستجيب للفأس هناك، ولم يكونوا بحاجة للبارود كي يزرعوا برتقالة، أو يجدوا زيتونة، أو يحثوا فرسا على قطع السهل الواسع بخطوتين، وأيام الهجرة تطول، والعمر ينتهي فجأة، هكذا، ك لحظة الانفجار، وينتشر ويدوي...<sup>1</sup>)، وحسبهم من حياة العناء، والقهر هذه، أن يجدوا مكانا يأوون فيه من تيه غير محدد وجهته، يقول السارد واصفا حالة الجماعة الفلسطينية حين شقت طريقها نحو الجبال، وهم يدخلون أول مرة إلى مغارات الحيوانات، ويحولونها إلى بيوت: ((بيوت كثيرة متباعدة ظهرت من البعيد، أناس يتسلقون حافة الجبل، ويندسون في ثقوب صخرية، عرفت فيما بعد أنها مغارات، وأنهم يسكنونها، مغارات كانت (موحشة)، بالذئاب والضباع والثعالب...))<sup>2</sup>، وهذا نوع من الإبادة الجماعية التي مارسها الصهيونية على الشعب الفلسطيني، فقد معها الشعب الفلسطيني أبسط حقوقه، ومعاني العيش الإنساني، وفقدت الصهيونية كل حس إنساني، حين أفلعت، وشردت، وأحرقت، وقتلت...، وطوت مع فعلها غير الإنساني هذا، كل ذاكرة لزمنا كان فيه الفلسطيني سيذا في أرضه، وكريما في عيشه.

إن انتماء الذات إلى جماعة عدت ضحية لنظام استعماري استبد في طغيانه حتى أخرجها من التاريخ، وكنتم صوت المظلومين والمقهورين، بإبعادهم عن المكان، فكان على الذات أن تحكي عن التفاصيل في صورة شخصيات مهمش قد لا يكون لها محور البطولة في النص مثل ما كان للسارد الذي يحكي، أو "الصغير" بطل الحكاية، ولكن حضورها السردية تحدت به التاريخ الذي لم يذكرها: فـ"علي" والد "الصغير" باح لزوجته عن

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 33.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 20.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

ينتمه، ويتم الشعب الفلسطيني بقوله: ((اليتيم يا عائشة، نحن يتامى، لأننا لا نملك شيئاً))<sup>1</sup>، ليسمعنا النص بهذا، صوت المقهورين، والمعذبين الذين يحيون حياة الاقتلاع، والإبعاد، صوت ينبعث منه ألم فقد الوطن والإحساس بالقهر، فعالم الشتات الذي فرض على المقتلع حالة من الانكسار، والهوان، جعل علي يقول عن الثعالب التي استولى على مغارتها وبكل قهر: ((لم يتوقف عواؤها طوال الليل. قال والظلمة كحل: معها حق، بيتها وأخذناه. وقال: لماذا لم نعو حتى الآن؟))<sup>2</sup>، أما جارهم أبو خليل فبموته اكتملت أمامهم جميع شروط الفجيعة، التي تتلقفهم كل يوم بالموت، والإذلال والكسر... يقول: ((القلوب تخفق بفرع في أعلى الجبل أي بيت ذلك الذي ستتعق الغربان فيه اليوم؟ أي بيت؟ (..) وضع الرجال الكيس على التراب، انفجرت حوله دائرة الدم. ابعدوا الصغيرة عن أمها. صاح أحدهم. وأشار إلى أم خليل أن تتقدم، لكنها بقيت مكانها، تشد على ثوب عائشة كما تشد حنون على ثوبها، الفجيعة بكامل شروطها اكتملت: ابعدوا الصغيرة عن أمها. وصرخت فجأة: يايا. هل يعيدونك في كيس؟ (..) ))<sup>3</sup>، إنها لقمة العيش حين تلتصق بمعاناة أقل ما يقال عنها أنها تفتقر لأمان، وهم بعيدون عن وطنهم، بعيدون عن فلسطين، ليظل المشتت مهددا بموت استثنائي موت لا يبقى على ملامح تحدد هويته، غير هوية المنفى، والقهر، والشقاء... يقول الراوي واصفا جثة "أبو خليل" التي فقدت كل ملامحها: ((لا شيء من الأشلاء يشبه الميت، الذي احتار الرجال حين فكرو بتخسيله. وأية قبلة تلك التي يمكن أن تطبع على فتات اللحم دون أن تقرب الموت أكثر؟))<sup>4</sup>، فالموت هو مفصل أساسي في ذاكرة الفلسطيني، وهويته إذ تساقق معه، في فجيعته بأرضه وبأهله، وبراهن لا يفسر (الشتات)\*، فأضحى بذلك جزءا من هويته الغارقة في التاريخ الفلسطيني.

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 64.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 45.

<sup>3</sup> إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 33.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص: 39.

\* للبحث وقفة مع الشتات الفلسطيني فهو ركيزة أساسية للهوية الفلسطينية، ونجد ذلك في الفصل الثالث.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

انطلاقاً من هذا المسار القرائي الذي اتخذ من محكي الذات فضاء للقراءة، والتأويل وفضاء للبوح عن مرحلة أضحت فيها الجماعة الفلسطينية في ممر الشتات، وبوساطة التأويل يكشف البحث عن ذوات نصية تتقاطع مع واقع معاش مرير، يتمظهر فيه الشتات الفلسطيني سردياً كوطن للقلق والاضطراب وفضاء للطارئ؛ إذ تحيا شخصيات نص "طيور الحذر" حياة ألا استقرار، حياة للعيش المهذّب بالموت، وضبابية المستقبل، يقول الراوي: ((لم يكن لعائشة دار. حين هبطوا التلال قاطعين البراري الحجرية ووديانها، وعلى أكتافهم عبء أيام قادمة مألحة، ودقائق معجونة برمل خشن تنفتت بصعوبة تحت أسنانهم، وهم يحاولون قطع الزمن بالكلام.))<sup>1</sup>، فالمقتلع يعيش حالة من الانتظار المجهول لا يعرف سوى الارتحال من مكان إلى آخر، مكاناً، ومنها مستمراً له في الزمن، والتاريخ؛ لأن الشتات كينونة مستمرة في الزمن بالنسبة للفلسطيني، يقول الراوي: ((كان التعب قد هدهم تماماً، بعد مسيرة طويلة على الأقدام، من قريتهم إلى غزة، إلى الخليل، إلى حيث هم الآن. لم تكن الهجرة أقل وطأة من رحي عملاقة.))<sup>2</sup>؛ فالوطن قد تمزق، وتشرذم من طرف الآخر المستعمر بطريقة منهجية، حتى لا يعاد ترميمه، وانتشاله من النسيان؛ لأن ((فلسطين يوماً بعد يوم تتآكل على مستوى الأرض التي تحولت إلى قطاعات منفصلة، إذ تشرذم شعبها، وتشتت في غير مكان، ما يعني أن ثمة "تشتيتاً" فلسطين، وكل ما تعلق بها))<sup>3</sup>، وهذا ما أفرز واقعا عنيفاً يتلاعب بالهوية الفلسطينية، وينكب على وضعها في حالة من الإكراهات، والتمزق ليصبح وجود الفلسطيني موهوناً بمدى صموده أمام حاضر غريب، ومدى قوة سرده لحكاية الذاكرة الجماعية التي استهدفت بالمحو والاحتلال.

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 83.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 23.

<sup>3</sup> رامي أبو شهاب، في الممر الأخير (سردية الشتات الفلسطيني منظور مابعد كولونيالي)، ص: 13.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

تعمقت الذات في مصابها، ومصاب الجماعة وجعا، وتفجعا، ولأن مصابهما واحد وهو النكبة، والشتات...، فقد التحم السرد بالذاكرة الجماعية في محكي الذات، وذلك بإعادة مشاهد من واقع التاريخ وفق تشكيلات سردية كانت فيها الذات موطنًا للجماعة، فانتشلت بذلك المنسيين الذين فقدوا الأرض، والوطن، وعن معاناة الشعب الفلسطيني، والحيث الذي تعرض له ويتعرض له الآن حدثنا عنه نص "طيور الحذر" على نحو مغاير من تسريبه للحقيقة، حقيقة الفلسطيني لما أزاحت الصهيونية من الوطن غدرا، وظلما، وزجت به في مكان فقد فيه قيمته الإنسانية، و((هذه المساحة من الهوية التي تشير إليها فلسطين ظلت معطلة بكل حرص كأنها تهديد أخلاقي لمستقبل الإنسانية))<sup>1</sup>.

بهذا تكون الذات قد بلغت مستوى من التمثيل السردى لذاكرة الجماعة الفلسطينية أثناء النكبة، وبعد النكبة أي الشتات، فانكبت الذات بعد الفاجعة على رسم حياة النزوح في الجبال والسهول، وحياة المخيم، والته الذي لا ينتهي، لأن في الشتات قد تغيرت كل المعايير، يقول الراوي: ((هنا تتغير المعايير، تنقلب، كان بإمكانها (عائشة)، في فلسطين، أن تأتيه (زوجها علي) في أي حقل برغيف خبز وحبّة بندورة وقليل من الملح، ما كان بالأمس عاديا، يصبح عارا هنا))<sup>2</sup>، هنا في الشتات، عالم يفقد فيه الإنسان كرامته، وإنسانيته، ويباغته الموت في كل لحظة، وبالعلاقة أكثر جدلا بين الذات والجماعة ارتسمت معها أعمق، وأشد صورة عن المأساة الفلسطينية في شتاتها، وهي صورة كشفت بها عن ما تم حذفه واختزله من الذاكرة الجماعية وعن معاناة الشعب الفلسطيني الذي أضحي عنوانا للتمزق المستمر.

واستنادا إلى ما سبق فإن نص "طيور الحذر" قد اقترن بمحكي الذات في مرحلة الطفولة؛ وهي مرحلة عاشها المبدع نصر الله إبراهيم في مخيم "الوحدات" بالأردن بعد النكبة 1948، وكان نصا مكتفا من حيث دلالات وجود الذات بمعية الجماعة، ووجود

<sup>1</sup> فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانية، ص: 244.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 77.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

الجماعة ضمن متخيل ذاتي فك أسرها بقول سردي أحيأ به ذاكرة المنسيين والمظلومين في الشتات سرداً، ومتخيلاً، ومع مسار القراءة التأويلية تحول محكي الذات إلى هوية جماعية، لأن ((الذات ليست بمفهوم مجرد بل هي ذات منغمسة بالممارسة والفعل أي إنها تملك إرادة حرة لتنفيذ مشاريعها التي تتصورها في البداية))<sup>1</sup>، ومشروعها هنا هو وضع سيرة الذات مضادة للآخر النقيض، الذي تمرد وتغطرس وحول الذاكرة الفلسطينية إلى ذاكرة معطلة تاريخياً، وعليه فنص "طيور الحذر" وإن كان سيرة ذاتية إلا أنه سيرة للشعب الفلسطيني أساسها سرد الذاكرة الجماعية، أو الذاكرة المجروحة التي حملت في ثناياها صوراً للقهر والمعاناة، التي تعرض لها الشعب الفلسطيني أثناء وجوده، ووجود الذات في المخيم بعد النكبة، والنزوح مباشرة.

من أجل ذلك اقترنت الذات بالمتخيل في سرد ذاكرتها، حتى تفهم ذاتها، وتفهم وضعيتها في هذا الوجود لذلك اتخذت من السرد سبيلاً لتأويل واقعها، ولفهم ذاتها و((أن أفهم ذاتي هو أن أقوم بالدور الأكبر وهي الدورة الخاصة بالذاكرة الكبرى التي تحتفظ بكل ما أصبح ذا دلالة بالنسبة إلى كل مجموع البشر))<sup>2</sup>، ليبقى سؤال العبور من الذات إلى الجماعة سؤالاً يشغل البحث في تحقيق هوية سردية فلسطينية من خلال رواية الذاكرة، وهو هدف البحث الذي تعلق به، وبوساطة قراءة تأويلية تسعى إلى بناء جسر من التواصل بين القارئ، وتجربة الذات التاريخية بأزماتها المختلفة والمتعددة، والجماعة التي تعلق مضارعها ومستقبلها بماضي مستمر في تاريخ الفاجعة أو الصدمة، لإثبات مدى تجذرها في الجغرافيا المغتصبة.

بهكذا نتيجة يحيل البحث إلى مسار الذات نحو هوية فلسطينية سردية جماعية، إلى نص استثنائي وهو، نص "أرواح الكليمنجارو"، مبرزاً به، ومن خلال هوية فلسطينية

<sup>1</sup> بول ريكور، الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص:

<sup>2</sup> بول ريكور، من النص إلى الفعل، ص: 86.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

تجمع شتاتها من رفات الذاكرة الجماعية، ومعاناة الشعب الفلسطيني، الذي يقاوم الضعف والتيه وعطالة الذاكرة، وبداية وقبل أن يبدأ البحث بمحاورته والاتصال به وتفحص معانيه، يود الإشارة إلى ملاحظة غاية في الأهمية وهي؛ إذا قال البحث بأن نص ما هو محكي الذات، هذا لا يعني تصنيفه قطعاً وفق جنس إبداعي محدّد الهوية النصية مسبقاً، لأن من طبيعة النص الإبداعي -وهذا هو الأصل في الإبداع- أن يكون مسكوناً بالعديد من النصوص التي تحيله على التعدد الأجناسي؛ (تاريخي، سياسي، ديني، سير، أسطوري..). وليس التحديد النوعي، وانفتاحه على عديد من النصوص، جعل منه نصاً إبداعياً، يترفع عن التحديد، بالإضافة إلى ذلك -وهو الأهم- فإن تصنيف النص ليس من غاية البحث، ولا ضالته، بل غايته في تتبع الخيط الناظم للإشكالية الرئيسة وفق استراتيجيات نصية يفرضها كل نص من نصوص "الملهاة الفلسطينية" عند قراءته، وإن ذكر تصنيف لنص ما، فهذا من باب الحاجة المنهجية فقط، أو أساس منهجي، يعتمد عليه البحث حين يسعى إلى تأويل العالم الذي يحيل إليه النص، وليس القصد منه وضع النص في إطار معين من النوع الأدبي.

يتيح نص "أرواح الكلمنجارو" للقارئ نمطا من الوجود الإنساني المغاير، الذي تكفل بالقضية الفلسطينية في دفاع رمزي، يمرر من خلال السرد قوة إرادة الفلسطيني في تحديه للأخر الصهيوني، وسعي منه إلى جبر أضرار الفلسطينيين، وتضميد جراحهم عبر رواية مسيرة شاقة يعل فيها وبمنطق اللحظة الراهنة على ما عاشه، ويعيشه الفلسطيني من مأساة إنسانية، التي يؤول فيها القارئ إلى ملامسة ذلك الاستثناء الذي تميز به نص "أرواح كليمنجارو" أمام باقي نصوص "الملهاة الفلسطينية"؛ إذ يعد تجربة حقيقية عاشها المبدع إبراهيم نصر الله رفقة مجموعة من المغامرين من بينهم طفلين فلسطينيين معاقين "يوسف ونورة"، كانت إعاقتهما نتيجة لهجوم صهيوني فتك بأعضائهما، يقول المبدع في مقدمة الرواية، أو ما عنونه بأول التحليق مشياً: ((هكذا وجدت نفسي واحداً من

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

المتطوعين، وقد أحسست أن عليّ ألا أتركهم يصعدون الجبل وحدهم<sup>1</sup>، وكان لكل واحد منهم حكاية عن مأساة عاشها في وطنه، وبمعيّة مجموعة من المرتحلين، والمغامرين يصعدون جبل الحرية، جبل "كليمنجارو" من أعلى القمم في العالم، يقول المبدع: ((ولكن، لماذا كليمنجارو؟ إنه الجبل الذي ألهم القارة الإفريقية، في رحلتها إلى الحرية، حيث كانت تنزانيا التي يقع فيها كمنجارو أول بلد إفريقي يتحرر من الاستعمار وينال استقلاله، ذات يوم قال أحد قادة التحرير التنزانيين: (سنوقد شمعة على قمة الجبل لتضيء خارج حدودنا، لتعطي الشعوب الأمل في وضع يسوده اليأس، الحب في وضع يسوده الكراهية، والإحساس بالكرامة في وضع يسوده الإذلال..)) وبعد سنوات وسنوات يأتي أطفال فلسطينيون يصعدون القمة منشدين بقوة الأمل: كلما انطفأت شمعة. نشتعل<sup>2</sup>، والطفلان الفلسطينيان، وبفعل صعود جبل "الكليمنجارو" تحديا للانغلاق المفروض من قبل الصهيونية على فلسطيني الداخل "غزة"، كما تحديا إعاقتهما، وتحديا العالم الهش الذي لا يعترف بالضعيف، ولا بالمهمش، ولا بالمظلوم، ولا بالمسلوب حقه، يقول المبدع: ((إذ ثمة أطفال فلسطينيون سيحملون رسالتهم ويرسلونها إلى العالم كله من فوق قمة ذلك الجبل، وسيقولون لذلك الجيش الصهيوني الذي أفقدهم أجزاء من أجسادهم بأنهم لم يهزموا، ولن يهزموا، وسيثبتون أنهم بما تبقى لهم من أرجل، قادرون على أن يقولوا للبشرية: نحن أبناء هذه الحياة، أبناء شعب يقا تل من أجل حرّيته منذ أكثر من مئة عام، وإننا لن نهزم<sup>3</sup>)).

هكذا أخرج نص "أرواح كليمنجارو" من وحي التجربة المعاشة للمبدع، التي امتثلت على شكل نص إبداعي لا يوحى إلا بذاتية الواقع؛ ولكنه واقعا مغايرا التحم في، وبين ثنايا المتخيل فجعل منه نصا إبداعيا يترفع عن أي تحديد أو تصنيف، فالمتخيل يعيد تسريب

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمنجارو، الملهة الفلسطينية، دار بلومزبري، مؤسسة قطر للنشر، قطر، ط1، 2015، ص: 10

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 12.

<sup>3</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمنجارو، ص: 9.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

الواقع لإعادة إنتاجه وفق رؤية تأويلية تفتح على الاحتمال، والممكن من دلالات الإنسان، والحرية، والهوية، والتاريخ، والوطن...؛ ففي المتخيل السردى ظل أفق المعنى أفقا مفتوحا على عوالم ممكنة التي تتيح للقارئ المشاركة في بناء المعنى وفق رهانات الحاضر باسترجاع الذاكرة، عكس الواقع الذي ظل رهين الرعب البشري الذي لم يتح للذات المبدعة، استرجاع حقها السليب، ولا حتى العود إلى الوطن، يقول المبدع: ((كانت الرحلة أوسع من أن تكون سيرة، كانت فسيحة بحيث لا يمكن أن تستوعبها إلا رواية فيها من ظلال أرواحنا الكثير، وفيها من ظلال أرواح أخرى حلمت بهذا الجبل قبلنا، وستحلم به بعدنا؛ فيها ما في كل رواية بحيث تتقاطع فيها الأحداث والخيال الطليق فتبدو ابنة الحرية نفسها، سواء في علاقتها بالشخصيات أو التفاصيل الصغيرة، فيما عشناه، وما عاشه غيرنا، وما حلمنا به، وحلم به غيرنا، ما يشبهنا، وما يشبه ما سعينا ونظل نسعى إليه؛ وفيها اختلافنا النبيل الذي لا ندركه ولا نحصل عليه إلا بمعايشة تجربة عميقة كهذه.))<sup>1</sup>، وهي تجربة تأسست على الفعل السردى، الذي يفتح للمبدع، وللقارئ فرصا أخرى لفهم الحياة، ويفتح أيضا فضاء يكسر فيه أي حصار إنساني في نفسية القارئ، قبل نفسية المبدع، إنه فضاء الممكن، والاحتمال.

بهذا الفتح القرائي فإن البحث عن هوية الجماعة الفلسطينية من خلال محكي الذات وضمن نص استثنائي لا يحيد عن تمثلات "الملهاة الفلسطينية" في استرجاع الذاكرة الفلسطينية والتي أضحت معها، وبها فاجعة النكبة 1948 جزء من الهوية الفلسطينية عبر ذاكرة صلبة، ترفض أن تضمحل، أو تتلاشى، بفعل التقادم، أو بفعل التعطيل الذي مارسه الآخر الصهيوني وهنا، وعبر محكي الذات، ف—((إن ما يجب فهمه في السرد ليس أولا من يتكلم وراء النص (المؤلف)، بل ما هو مقول فيه، شيء النص، أي نوع

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص: 11.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

العالم الذي يفرضه المنتج<sup>1</sup>)، فالقارئ مكلف بمصاحبة النص في عوالمه الممكنة، وملزم بالإنصات لوقع معناه، الذي يوحي بقوة الداخل النصي إلى هشاشة العالم الخارجي الذي لا عدالة له في القضية الفلسطينية، ولا مساندة وإلا فهي مبنية على المراوغة، أو المماثلة التي تخدم الطرف الآخر النقيض، وتلكم هي ((القوة المرجعية الأصيلة للنص))<sup>2</sup>، التي يتأسس عليها فهم العالم الذي يحيل إليه نص "أرواح كليمينجارو"، فهما يصل بالقارئ إلى التواصل مع النص وفق استراتيجيات نصية تنهياً فيها الذات لوجودها مع الجماعة، وجودا تستعيد فيه قوة هويتها الفلسطينية في تجزرها التاريخي وصيرورتها التاريخية.

اتخذ النص في إقحام القارئ إلى عوالمه الممكنة مسارا مشوقا يسترجع به أحداث ماضي الشخصيات المرافقة لحدث الرحلة بذكرياتها المفرحة والمؤلمة، ولكن هذا لا يعني إنه تسجيل فوتوغرافي مبتذل، بل إنه تركيب فني شديد التعقيد من القصص التي تعددت، وتكاملت، كما اندمجت، وامتزجت في رهان أكبر، وهو صعودها إلى الجبل، يقول السارد: ((كان ينظر إلى الفريق فرحا لأن هدفا واحدا يجمعهم كلهم، هو إيصال هؤلاء الفتية إلى القمة، ومساعدة بشر لم يسبق أن التقوا بهم بحاجة للأمل كما هم بحاجة لأطراف وعمليات جراحية وابتسامات أيضا))<sup>3</sup>؛ فلكل قصة من قصص الشخصيات التي رويت في نص "أرواح كليمينجارو" سبيل عبْد لها لتكون قصة رئيسة ضمن بناء متكامل، فتنوعت الروايات، واختلفت أزمنها وأمكنتها، ولكنها تضافرت في شكل حبكة سردية

<sup>1</sup> أحمد بن موسى سرير، هرمنيوطيقية الذات عند بول ريكور، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد: 12، ديسمبر 2017، رابط المقال: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/33233>، ص: 290.

<sup>2</sup> بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2006، ص: 145.

<sup>3</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمينجارو، ص: 171.

## الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردي

اكتملت معها، وفيها، وبها كل العناصر المتنافرة حتى أضحت نصا إبداعيا ينتصر للقضية الفلسطينية.

وما دام النص "أرواح كليمنجارو" واقعة إبداعية لها علاقة بإشكالات الراهن، وبأزمة الفلسطيني في شتاته، و على أرضه، فإنه يجب إدماجها ضمن نصوص الذاكرة التي تسعى إلى المقاومة الثقافية، كما تسعى إلى النهوض بالذاكرة الفلسطينية التي عطلها الآخر الصهيوني تعطيلاً تاريخياً بفعل المسح الجغرافي، وهي نصوص -متملماً مثل البحث في هذا الفصل- نابعة من تصور الجماعة لهويتها بوصفها مصدراً لوجودها، ووجود نص "الملهاة الفلسطينية"، وان كان تصور الذات لذاتها أساسه تلك الذاكرة الجمعية التاريخية، فإن ذاكرة الفاجعة كانت جزءاً من الهوية الفلسطينية، وجزءاً من الجماعة التي استقى نص "الملهاة الفلسطينية" من تاريخها حالة الصمود، والمقاومة التي ساهمت أيضاً في تشكيل، وتنظيم الهوية الفلسطينية.

من أجل ذلك، واستناداً لقول بول ريكو: ((يظل السؤال التاريخي الحقيقي: ماذا قال النص؟ تحت هيمنة وسيطرة السؤال التأويلي المناسب، ماذا يقول النص لي؟ وماذا أقول للنص؟))<sup>1</sup>، فإنه سؤال يعد جزءاً من الممارسة التأويلية التي يتكئ عليها البحث في قراءة نص "الملهاة الفلسطينية"، وهنا ينتقل البحث بواسطة القراءة التأويلية -التي تعتمد على التفاعل الحاصل بين القارئ، والنص-، من طور حدث الفاجعة، وكيف أضحي جزءاً من الهوية الفلسطينية، إلى طور آخر من الهوية، وهو مرحلة المقاومة، بالاعتماد على القول السردى للنص "الملهاة الفلسطينية"، فكيف انتظمت الهوية الفلسطينية مقاومة، وصموداً، ونضالاً؟

<sup>1</sup> بول ريكور، الزمان والسرد، الزمان المروي، ج3، ص: 263.

# الفصل الثاني

الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

تمهيد:

المبحث الأول: المقاومة السردية، وإشكالية البحث عن الهوية.

المبحث الثاني: الوجود الفلسطيني المغيب، والكتابة السردية المضادة.

المبحث الثالث: فاجعة الموت، وأفق المقاومة السردية.

المبحث الرابع: الحرية في مواجهة التأويل.

تمهيد:

إن المقاومة عندما تسلك سبل السرد، وتحيا في كنف المتخيل، تغدو هوية سردية متجذرة في الإمكان الذي يحل محل المستحيل، وفي المحتمل حين يكسر معه كل هزيمة، وكل هذا بفتحه لأفق من عوالم ممكنة تستعيد فيها الذات المبدعة الوجود الطبيعي للفلسطيني، وتفهم الوجود المتعثر، لماذا تعثر؟، وترمم في القارئ معرفته بالهوية الفلسطينية حين انتظمت مقاومة وكفاحا، في وجه من أراد بها المحو، والتغيب.

فالمقاومة في معناها الإنساني ما هي إلا مجال حيوي يتفاعل معه الإنسان من أجل استرجاع هويته كتابة، وتأليفا، من أجل ذلك تغدو مفردة "المقاومة" في "الملهاة الفلسطينية" هوية فلسطينية سردية محضة تستعيد فيها الجماعة ماضيها، وحاضرها، ترميما للفاجعة، وتصحيحا للتاريخ.

وبناء على ذلك، فالتفاعلات السردية لسؤال هوية المقاومة الفلسطينية في سردية "الملهاة الفلسطينية" اتخذت من التأويل سبيلا للفهم، والإنصات لوقع معنى المقاومة في السرد، الذي يتشكل بفعل حركية سؤال الهوية الفلسطينية مقاومة، وكتابة، وموت، وحرية... حينها تعددت دلالات المقاومة في السرد، بتعدد وجهات نظر نص "الملهاة الفلسطينية" إلى إشكالية الهوية في تشكيلة إبداعية تفتح على القراءة، وتركن إلى تأويل يتخذ من استراتيجيات النص مسارا توجيهيا يلتقط فيه دلالات المقاومة في السرد؛ فمن المقاومة السردية يتضح طائلها من قوة وعمق مواجهتها لفعل التغيب التاريخي، الذي انتقل بها إلى كتابة سردية مضادة للواقع المظلم، والحق المسلوب، وتفتح دلالاتها أكثر على الموت الذي أضحى مع فعل السرد مقاومة، وحياء أخرى يمارس فيها الفلسطيني حريته المسلوبة، بفعل سردي أكثر عجائبية في الانفلات من حصر الزمن الفلسطيني، وأثر الفاجعة، إلى أفق الممكن، والمحمّل.

وعلى هذا النحو من التفاعل يستقبل القارئ النص بدلالات مقاومته السردية، لتغدو المقاومة في السرد هي الفعل الذي انتظمت فيه، وبه الهوية الفلسطينية، وغدت هوية

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

سردية تتطلب معاشة النص لفهمه، وتأويل الوجود فيه، فالنص الإبداعي ((...يحيا عندما يكون فعالا، والجمهور القارئ بصفة عامة هو الذي يقوم بهذا التفعيل الذي من شأنه أن يجعل العمل الأدبي عملا حيا ومستمر)).<sup>1</sup> في الزمن، لذا فالقراءة التأويلية ما هي إلا إعادة تنظيم علاقات النص وفق ما يمليه من إشكالات، وما يتيح من فهم يتجاوز به الفلسطينيون منطقة التخييب، إلى منطقة الحضور السردى الفعّال، والتاريخي، وعليه، وتحقيقا لهذا المسعى، فالفصل قد تفرع لمباحث أربع:

المبحث الأول: المقاومة السردية، وإشكالية البحث عن الهوية.

المبحث الثاني: الوجود الفلسطيني المغيب، والكتابة السردية المضادة

المبحث الثالث: فاجعة الموت، وأفق المقاومة السردية.

المبحث الرابع: الحرية في مواجهة التأويل.

<sup>1</sup> مليكة دحامية، هرمنوطيقا النص الأدبي، في الفكر الغربي المعاصر ص:104.

### المبحث الأول:

#### المقاومة السردية، وإشكالية البحث عن الهوية.

إن أي نص أدبي إذا لم يفتن بقضية إنسانية تتجلى بها عوالمه المتخيلة، بميثاق يعقد الصلة بين إشكالات الراهن، وخبرات التاريخ المتراكمة، فإنه يفقد أبسط شروط الحياة والديمومة؛ لأن هوية النص الإبداعي ليست لغة تتباهى بخلتها البلاغية، وبقوتها الأسلوبية فحسب، وإنما إرادة فكرية ومعرفية تقتنن بالحياة، والواقع، لتكسر أنماط الحياة البالية، والمرعبة، وترفع عنها الجمود بفتح منطقة الاحتمال، والممكن، وتعيد التفكير في الإنسان المهمش، والمقموع الذي سحب من التاريخ، وضل سبيل العود إلى ذاته، وإلى عالمه، وغُيِّبَ بفعل الظلم الذي مارسه القوى الاستعمارية عليه، إنها الكتابة المضادة لكل أشكال الضعف البشري.

وعليه تغدو الكتابة السردية شكلا من أشكال المقاومة، والمقاومة شكلا من أشكال الذاكرة في مقابل النسيان<sup>1</sup>؛ لأنها تحتكم إلى التاريخ في تراكماته المعرفية، كما تجمع صور العناء الإنساني في أشدّ مراحل ظلمة، لترسو على رفع الغبن عن المقموعين، والمظلومين، والمقهورين، في انتفاضة على كل أشكال الوجود الإنساني القلق، والمضطرب، الوجود الذي أفقد الإنسان إنسانيته، حتى أضحي فيه إنسانا بلا ملامح، فـ((المقاومة ليست شهوة في العنف والقتل والاعتداء على الآخر، وإنما هي دفع الأذى والقبح والشر والفساد والاحتلال عن الذات الإنسانية ومقارعة بكل السبل المتاحة))<sup>2</sup>، وبما أنها مقاومة تتطلع لوجود إنساني سويّ، فإنها الفعل الإنساني الذي يمارس فيه الإنسان إنسانيته بحثا عن وجود يعترف، ويقر بهويته، بخاصة إذا اتخذ هذا الفعل الإنساني من المتخيل السردى مجالا لتمثيل المقاومة السردية الفلسطينية المضادة لكل أشكال الأنظمة الصهيونية الاستعمارية.

<sup>1</sup> ينظر: ادوارد سعيد، المقاومة الثقافية، ص: 143.

<sup>2</sup> حسين جمعة، ملامح في الأدب المقاوم (فلسطين أنموذجا)، وزارة الثقافة، دمشق، 2009، ص: 16.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

إن نص "الملهاة الفلسطينية" وبتعدّد رؤاه، ينغمس في هذا الفعل، ويشدّد على تمثيل المقاومة الفلسطينية واحتوائها، وتصعيدها على نحو يتحول بها الفلسطيني من حالة الصدمة والذهول التي فرضتها النكبة، والفاجعة، إلى حالة المواجهة، والثبات في الموقع المغتصب، ليتمكن من الوقوف في وجه الشر الصهيوني، بفعل أكثر قدرة على احتواء الذات بجروحها، والتصدي للآخر في بشاعة فعله، إنه فعل السرد الذي يحول بين الحقيقة، وقمعها، في عوالم متخيلة تستند إلى التاريخ الفلسطيني كمرجعية متجذرة في الجغرافيا المغتصبة، بخاصة إذا كانت المقاومة مثل الذاكرة تعد لحظة تاريخية فارقة في خصوصية الهوية الفلسطينية.

بناء على موقع المقاومة في السرد، فإن البحث في سعيه لفهم الوجود الإنساني، اقترن "بالمهاة الفلسطينية" تفاعلاً، ومساءلة، حول هوية فلسطينية، شكلت مقاومة الاحتلال الصهيوني أهم ركائزها؛ إذ اتخذت من السرد ميداناً للتجلي في رفض الاستعمار، وأصرت على إثبات وجود الفلسطيني على أرضه، ومواجهة كافة أشكال الطمس، والتغييب الذي التصق به، لذا فالسؤال الذي يمكن طرحه هنا: كيف انتظمت الهوية الفلسطينية مقاومة، وصموداً؟، وكيف تجلت المقاومة سرداً؟

من أجل ذلك، واستناداً إلى القول السردى الذي يتعلق بوجود إنساني مضطرب، يبدو نص "تحت ضحى الشمس"<sup>1</sup> نصاً يمثل "الملهاة الفلسطينية" في صيغة الصمود، والثبات أمام الآخر الصهيوني؛ إذ يحدث النص فوضى في حركة فعل الاستحواذ على المكان والاقتراع بالمحكي الذي يتجاوز فيه الفلسطيني مرحلة الصدمة، والذهول، ويستعيد فيه القدرة على رد الفعل بالصمود، والمواجهة، ليتفاعل القارئ مع النص في أطر من مقاومة فلسطينية تتحدى الضعف، والهزيمة، وتؤسس لهوية الفلسطيني عبر سيرورة من الكفاح، والتحدى الدائم للاضطهاد والظلم، من أجل الصمود والثبات على أرض فلسطين؛

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، تحت ضحى الشمس، الملهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرو، بيروت، لبنان، ط2،

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

فهم باقون على الأرض وهويتهم قد تتحدّد وفق سيرورة تاريخية لوجودهم المتجذر في الأرض، والمؤسس على الكفاح في محاولة إيجاد الاعتراف بحق الفلسطيني على أرضه. إن العيش في كنف النصية، والاختلاف، يؤدي بالقارئ إلى المشاركة في بناء دلالات عبر سيرورة تلقي عميقة، ومتعدّدة من وحي استراتيجيات نص "تحت ضحى الشمس"، والتي تفتح، وتحيل إلى عالم المقاومة الفلسطينية؛ العالم الذي لا يكشف عن نفسه إلا في إطار من خصوصية تعلقه بهوية، ومصير الشعب الفلسطيني، وهي خصوصية -مثلما تبدو في النص- يردّ فيها الأصل المرجعي للنص عبر متخيل يمتزج بواقع المقاومة، ليعود واقعا مغايرا في رفضه لوجود الآخر على أرضه، وبسردية بعدها الهوي في مساندة المقاومة الفلسطينية؛ أي سردية تجلت بمتخيلها نحو إعادة بناء سؤال المقاومة ضمن معاني إنسانية لا تضمحل أمام معاندة الآخر الصهيوني.

فهذا الوقع من الفاعلية النصية يجعل علاقة النص بالقارئ في طور ولادة مستمرة ومتجدّدة بخلق دلالات تحين النص في رهن مسدود الأفق على الفلسطيني، لتأخذ به نحو ممارسة حقه في تخيل يعيد به ترتيب علاقته بذاته، وبوجوده نحو مصير ينسف معه كل قوى صهيونية ملغمة تريد مسحه من هذا الوجود، ((الفرد في حاجة إلى المتخيل لكي يؤسس وجوده، ولكي يعطي لهذا الوجود معناه وقيّمته الرمزية، تماما كما تحتاج الجماعة للسرد للتعبير عن تجاربها الزمانية وإعطاء المعنى لأقذارها ومصائرهما))<sup>1</sup>، التي تتحدّد بهذا الفعل، و تتقلب معه الرؤية من الهزيمة، إلى المقاومة.

إن الفلسطيني في رواية "تحت ضحى الشمس" قد يعيش الفاجعة، كما قد يعيش الفقد مثلما يباغته الموت يوميا أيضا، ولكن مسaire مجرى النص على نحو من الإصرار على مواجهة الآخر يجعله ثابتا أمام هذه المأساة، وهذا ما يتجلى في قول شخصية الدكتور، حين قتلت قوات الاحتلال الصهيوني أحد الأطفال المشاركين في المسرحية، بقوله: ((هذا

<sup>1</sup> إدريس الخضراوي، سرديات الأمة، تخييل التاريخ وثقافة الذاكرة، في الرواية المغربية المعاصرة، أفريقيا الشرق، المغرب، 2017، ص32.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

الشعب ضحى دائماً، وسيضحى، وإذا كان من كلمة لا بد من أن نقولها، الآن، في وجه قوات الاحتلال، فهي أننا سنواصل المشوار، سنواصل المشوار، سنواصل المشوار!، لا من أجل دم ذلك العصفور الذي فقدناه اليوم، بل من أجل كل العصافير الصغيرة في هذا الوطن!!<sup>1</sup>، وهذه ديمومة من التضحيات في سبيل الإصرار على مواصلة المسار الشاق في الكشف عن شناعة الفعل الصهيوني.

إن العلاقة التي تتأسس بين الفلسطيني، والمقاومة في نص "تحت ضحى الشمس" هي علاقة تبدو أكثر جدلاً، حين يتسرب منها فهمٌ يلامس الحياة اليومية للفلسطيني بتفاصيلها المرعبة، ويلزم القارئ بذلك إلى أن يفرق بين الحكاية وتمثيلها، إذ تمثيلها صورة عنها، لا الحقيقة ذاتها، يقول السارد في التمييز بينهما: ((يذهب الممثل إلى البدايات في تقمص الحكاية، ويذهب ياسين، صاحب الحكاية، إلى النهايات، التي تجعله يرى حياته أمامه، ماثلة في شخص آخر لم يكن هو))<sup>2</sup>، وفي الفرق بين "سليم نصري" الممثل الذي يريد عرض مسرحي للحكاية -حكاية ياسين ومقاومته للاحتلال-، و"ياسين الأسمر" من عايش الحكاية، يوحى بأن التمثيل المسرحي لن يبلغ أصل الحكاية، المقاومة، فحسبه من استحضار ما غاب أن يحاكي شخصية البطل في حركاتها، وتطلعاتها، لا امتلاكها، حتى أضحت شخصية الممثل "سليم نصري"، شخصية ملغاة أمام قوة استحواذ، وسيطرة شخصية "ياسين" عليه بحضورها ورفضها في آن واحد بأن تختزل على أرضية التمثيل، يقول السارد واصفاً حال "سليم" على المسرح وهو يحاول القبض على شخصية "ياسين" بقوله: ((إحساس سليم بأنه أمام مصيره، جعله يقبض بكامل جسده على عرضه المسرحي، يفلت جسده فيعيده بالدور، ويفلت الدور فيلحقه بجسده ويعيده إلى حيث يجب أن يكون))<sup>3</sup>، فأضحى "ياسين" مع صراع "سليم" في دوره المسرحي نقطة

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، تحت الشمس الضحى، 26.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 120.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص: 63.

ترقب "سليم نصري" في صحوته، وغفوته، فهو هاجسه المخيف، إذ ((أكثر ما كان يؤرق سليم نصري أنه سيقدم حكاية يعرفها الناس أكثر منه، لأنهم أهل بطلها، جيرانه، أهل قريته، ما الذي يمكن أن يقال في شيء قيل. فكر وأجاب: تلك هي المسألة؟ (...)) كانت المسألة أكثر تعقيدا، لأنه، وطوال السنوات الماضية، لم يكن قد أدرك بعد، أنه واقع تحت تأثير شخصية لا يعرف إن كان يريد أن يؤدي دورها فوق الخشبة، فحسب، أم في الحياة؟<sup>1</sup>، إن اقتران شخصية "ياسين" بالمقاومة الفلسطينية، وبشكل مستمر جعلت منه بطلا واقعيا، وأسطوريا أيضا، عجز التمثيل المسرحي بأن يستوفي شروطه في تمثيل مسرحي محدود الزمن والمكان، يقول السارد في تعليقه على عدم نجاح مسرحية "سليم"، بقوله: ((كان يمكن أن يكون الأمر كله، الآن، في جعبة النسيان، لو أنه استطاع تقديم المسرحية، قبل قيام الاحتلال باعتقال ياسين من جديد، بتهمة تشكيل خلايا سرية للمقاومة.<sup>2</sup>)) فالمقاومة التي تخلق منها البطل "ياسين الأسمر"، هي التي جعلت من "سليم" الممثل يخفق على خشبة المسرح في عرضه لشخصية "ياسين"، رغم أنها شخصية تمكنت من "سليم" في الحياة قبل الخشبة، يقول السارد عن ماضي "سليم": ((حبه لياسين الأسمر كان كافيا لدفعه لفعل أي شيء، هو الذي لم يكن بحاجة لشيء أكثر من حاجته لتجربة عرض، صحيح أنه أعتقل، وضرب، وأطلق سراحه وشارك في إلقاء الحجارة أكثر من مرة قبل الانتفاضة الأولى، وخلالها، لكن ذلك الأمر جزء من حياة الجميع، وعاشه الجميع.<sup>3</sup>)) وأمام هذا التبعر الذي يعاني منه "سليم" الممثل من فرط تحديه بأن يكون بطلا ضمن مسار حكاية المقاومة، يستقبل البحث سؤال الهوية الجريح الذي اقترن بشخصيات النص تحديا، ومقاومة، ((لكن لماذا لم ينجح؟ لماذا استدارت وجوه الجمهور إلى تلك الزاوية التي أصر ياسين أن يشاهد المسرحية منها، بمن فيهم أولئك الذين اكتظ

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، تحت ضحى الشمس، ص: 21.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 14.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص: 21

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

بهم الصف الأول))<sup>1</sup>، لماذا نجح "ياسين الأسمر" بأن يكون بطلا في الحياة، في حين فشل "سليم" بأن يكون بطلا، حتى على خشبة المسرح؟

بين التخلي عن المقاومة، والتمسك بها، علاقة عكسية متنافرة، تعكس كل تفاصيل الفشل، والنجاح بين طرفين متمايزين لا يمكن أن يتطابقا؛ "سليم" تمسك بالحياة وتخلي عن المقاومة، و"ياسين" تمسك بالمقاومة، وتخلي عن الحياة، وعبر مشهد من مشاهد التجربة الأكثر مواجهة بين "سليم" ونفسه، في ارتباك بعثر قدرته على التمثيل، يقول السارد: ((عاد لغرفة الملابس، أغلق الباب، فكر بأمنية واحدة لا غير: أن ينجح العرض، تمنأها. في الطريق إلى الخشبة وعبر الممر المظلم، عاد له ارتبأكه: أمنية بهذا الحجم لن تتحقق إذا ما ظهر ياسين في القاعة الليلة. تمنى أن يخنفي: خشبة المسرح لا يمكن أن تتسع لاثنتين، ولا الصالة. تمنى أن ينتهي العرض قبل أن يبدأ. لكن ذلك لن يحدث، فطائرات الاباتشي لم تظهر اليوم في سماء رام الله على غير عاداتها، ربما قامت أمس بما عليها، حين حولت ثلاث شبان تلاحقهم قوات الاحتلال إلى فحم.))<sup>2</sup>، بهذا الانفعال الهوي في واقع يتشظى، ويتبعثر تحت عبث الصهيونية، فإن الوضع التأويلي الذي يستند إليه البحث يكشف عن فرق آخر بين الشخصيتين، إلى جانب صراع "سليم" مع نفسه الذي اشتد كلما أراد القبض على شخصية "ياسين" البطل على خشبة المسرح، فإنه ينكسر ويفشل بفعل إرادته الدائمة، في أن يلغي النموذج البطولي لديمومة المقاومة الفلسطينية، يقول "سليم" مخاطبا نفسه: ((لماذا لا أحرر الجمهور من شخصية ياسين الأسمر، بدل أن ألقى بهذا العبء على نفسي؟))<sup>3</sup>، فهذا نوع من التسلط يتوجه به إلى حصر صورة "ياسين" لدى الجمهور الفلسطيني على خشبة المسرح، متناسيا الأصل الذي لا يتكرر والذي لا يتكامل إلا بالحياة، وفي الحياة ذاتها.

<sup>1</sup>المصدر نفسه ، ص: 22، 23.

<sup>2</sup>إبراهيم نصر الله، تحت ضحى الشمس، ص: 144.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص: 23.

إن استناس القارئ بمقول النص "تحت ضحى الشمس"، والإنصات إلى وقع معنى المقاومة الفلسطينية، وهو يصطنع لنفسه مسارات قرائية مختلفة، تتلاشى معها كل قراءة أحادية قد تُدخل النص في نمطية جاهزة، تفقده حيوية المعنى في بناء دلالات المقاومة، المقاومة غير المعلنة إلا بتلقي القارئ الذي يتكفل بإحياء النص، على نحو ما تقترحه الاستراتيجيات النصية من دلالات تفتتح على التعدد والاختلاف، كما توافق استجابة القارئ ما يحيل إليه النص من عوالم ممكنة يتقرر بها، ومن خلالها منحى التأويل، ويختلف من قارئ لآخر في تلقيه لدلالات المقاومة في السرد، والتي تتيح للقارئ هنا إمكانات الغوص في أعماق نص "تحت ضحى الشمس"، والعيش في كنف التأويل؛ فـ ((أن نفس أكثر يعني أن تفهم أفضل))<sup>1</sup>، وتتحقق ممارسات قرائية أوسع، إنه شكل من أشكال الوجود النصي الذي لا يكشف عن نفسه، إلا بمصاحبة قراءة مختلفة، لا تختزن المعنى بقدر ما تراهن على وجود دلالات تقاوم بها الوجود المنكسر للفلسطينيين.

وعليه، فإنها فعالية قرائية توسع في إمكاناتها التأويلية لبناء دلالات المقاومة في السرد، التي أضحت معها القارئ مرتبكا أكثر أمام فهم علاقة النموذج بتمثيله؛ حين أراد "سليم" أن يبلغ بهذه العلاقة التطابق بين طرفين ضمن فضاء المسرح الذي لم يكتملا (شخصية ياسين وشخصية سليم) فيه إلا على نحو مختلف؛ يقول "سليم" في حرص شديد حين اقتبس حركات "ياسين": ((ساقه جزء من الحكاية، الجزء المهم لا يمكن أن أسقطه هكذا، ما معنى اقتياده للمعتقل؟ ما معنى تعذيبه؟ هذه المشية تستعيد الحكاية كلها، كيف دخل المعتقل؟ كيف خرج منه؟ وكيف أصبح الآن؟))<sup>2</sup>، إن شخصية "ياسين" هي الشخصية البطولية التي انفلتت من قبضة الزمن إلى فسحة السرد، معلنة عن تجربة إنسانية بطولية، تقاوم، وتناضل، في سياق قراءة تأويلية تحاول مسابرة أحداث الحكاية، والقبض على

<sup>1</sup> بول ريكور، الزمان والسرد، التصوير في السرد القصصي، ج2، ص: 24.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، تحت ضحى الشمس، ص: 13.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

دلالات المقاومة عبر فهم هذه الشخصية التي لم تخضع للاحتلال الصهيوني، ولا حتى لصورتها المسرحية.

إن فهم القارئ لنص "تحت ضحى الشمس"، يتخلق بالأساس من تتبعه لفعل الشخصيات السردية عبر زمن فوضوي، ومكان مضطرب بأحداث تفصل بين الشخصيتين، أو بين الأصل الذي لا يخضع، ولا يستحوذ عليه، وبين تمثيل هش تسقط معه كل الألقاب الزائفة، يحث هذا الفهم القارئ على مواصلة حوار مع النص بتفقد الفلسطينيين في معيشتهم اليومية، عبر مواجهة الغياب التاريخي، الذي سلطه عليهم الاستعمار الصهيوني، بحصر المكان ونفي الفلسطينيين وبإنصات القارئ لرؤى، ومواقف الشخصيات السردية من عناء الحياة، يتحول معها الوعي القائم على الانكسار، والهزيمة، والإلغاء، إلى وعي ممكن في كسر القيود، وكسب الحرية، ووعي مقاوم لفعل الاستعمار الذي نهش الإنسان قبل الأرض.

بهكذا معنى تكون حكاية المقاومة في موضع غير قابلة للنهاية، فكل نهاية إلا وهي متعلقة ببداية مستمرة، ومستديمة في التاريخ، ولعل هذا ما قاله "سليم" حين واجه جمهوره على خشبة المسرح، لهو دليل على استحالة القبض على النهايات، يقول: ((الحكاية لا تنتهي عندما تنتهي، الحكاية تبدأ، وحين تبدأ، يكون عليها أن تواصل هذه البداية إلى بداية أخرى، أنظر ورائي، فلا أرى نهاية لشيء، وانظر أمامي فلا أرى سوى سلسلة بدايات، النهاية دائما بدايات كثيرة. فمن أين أبدأ؟ النهاية ستكون مغلقة إذا قبلت، حتى، بانتصارها البداية أرحم، البداية تعني أنك قادر على أن تعيش حياتك من جديد، أن تملك جرأة المحاولة مرة أخرى وأخرى، البداية إنسانية كالسؤال، أما النهاية فقاتلة كالجواب، من أين أبدأ؟))<sup>1</sup>، وبما أن كل بداية ما هي إلا إعلان عن بداية جديدة ولدت من رحم النهاية، تكون حكاية الفلسطيني بنكبتها لا تنتهي، ولم ينته الفصل فيها بعد وزخم من الحكايات تحيط به، وتصارع من أجل بقائه، وتقاوم من أجل هويته، وتطالب قارئها ليس بالمشاركة فحسب

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، تحت الشمس الضحى، ص: 145.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

في بناء دلالات هويته المجروحة، بل ومعايشة مأساة أمة بأكملها، والاعتراف بإنسانية الفلسطيني، لعله يبلغ منتهى حرّيته بالفهم الذي يقلعه عن مأساته، ويزيح عنه الغياب التاريخي الذي اغتيل صوته فيه.

هكذا يتكفل نص "تحت ضحى الشمس" بالمقاومة على النحو الذي لا يُنهي الحكاية ويعدمها بل ليضعها في موضع المابين؛ بين نهاية أرهقت الإنسان الفلسطيني (النكبة)، واستنزفت روحه، وبداية ولدت من رحم الهزيمة والانكسار، وتخلقت تحت ظل المحو والاقْتلاع الصهيوني، لتحيا بفعل المقاومة ممارسة وكفاحا، وقراءة يتبناها السرد لا بما إنها ردة فعل على الصهيوني فحسب، وإنما مرحلة حياة، يحي فيها الإنسان الفلسطيني إنسانيته، ويكوّن هويته وكيونته الفلسطينية من الواقع المعيش، وهو يتسلّل إلى السرد، وينتصر الصوت الفلسطيني على ضعفه وخضوعه، بالإصغاء إليه، والاعتراف به، يقول السارد واصفا حال "ياسين" خلال خمسة سنوات في منفاه: ((خمس سنوات تلك التي أمضاها ياسين في "تلّ الزعتر" بعد خروجه من أحراش عجلون. كان الأكثر فقراً مما رأيت من منافي ومخيمات الفلسطينيين، والأكثر أملاً ربما. قلت يا ياسين: هذا مكانك. فهنا يمكن أن تكون جزءاً من قوة الأمل، بعد أن خفّت رماده وراءك. لكنني لم أكن أدرك حتى ذلك الوقت، أن قوة الأمل هي المطلوب رأسها في حكايتنا أكثر من أي شيء آخر.))<sup>1</sup>، إن إصرار الفلسطيني على الثبات على أرضه لا يفسر إلا بكونه قد أعاد ترميم ذاته، وانتشالها من مجزرة النكبة بما خلفته من أثر على نفسيته، وهذا تجاوز لمرحلة الصدمة إلى مرحلة المواجهة والمقاومة، ما يشكل تهديدا حقيقيا للصهيونية.

وعليه، فإن المقاومة الفلسطينية هي اللحظة التاريخية الحاسمة في خصوصية التحدي لكل أشكال الظلم الصهيوني، فهي سيرورة من حركية فاعلة في حياة الفلسطيني، والمتفاعلة بأحداث تندمج وتتجانس مع الجماعة، في تحقيق هويتها السردية التي تعيد لها إنسانيته المُلغاة، عبر مسار تاريخي تصحح به الموضع الحقيقي للجلاد/الصهيوني الذي

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، تحت ضحى الشمس، ص: 69.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

اتخذ من دور الضحية حجة لأجل الاستيلاء على فلسطين، والاعتراف بدولة أسسها على جثث الفلسطينيين عام 1948، والاستحواذ على الضمير العالمي الذي أيده بكل عماء. لتكون المقاومة الفلسطينية فرصة حياة أخرى تحياها الجماعة الفلسطينية سردا، بعدما تجاوزت مرحلة الصدمة، باسترجاع ما فقد من هويتها الفلسطينية من ذاكرة جماعية توجه بها التاريخ نحو تصحيح المعادلة البائسة التي ساوت الجلاء، بالضحية، فأضحت ملهات تدعو إلى السخرية، والضحك من استبدال الأدوار؛ فالضحية أصبحت من وجهة نظر صهيونية كولونيالية إرهابا متطرفا، والجلاء أصبح ضحية يدعو إلى المساندة، والدفاع عنه بحجة دور الضحية الذي ورثه من محنة اليهود، أو ما يعرف بالهولوكوست؛ إذ أخذ يستنزف هذا الدور لكسب مساندة اقتصاديا، وسياسيا، وتاريخيا.... في إطار إنساني يتغاضى فيه العالم عن جرائم الصهيونية على أرض فلسطين، ((وكان ما يجري سوى رواية درامية مأساوية ينظر العالم إليها متفرجا أو متلذذا بمأساة الشعب الفلسطيني)).<sup>1</sup>، فاستيلاء الصهاينة على دور الضحية أضر بالضحايا الفلسطينيين، لذا نجد وقلتمس ذلك الإصرار الذي تبنته المقاومة الفلسطينية في صورة غير عادية شكلت قوة ردع حقيقية ضد انتهاكات الصهيونية.

من وحي هذه المقاومة التي تنتصر للحق الفلسطيني، وتدين بهمجية، ووحشية الاحتلال الصهيوني، يتموضع نص "تحت ضحى الشمس" -موازاة مع النص الرئيس "الملهة الفلسطينية" بشموليته، وامتداد لأجزائه المختلفة-، ضمن السعي إلى الحفاظ على الهوية الفلسطينية بسردية إنسانية، متجذرة في الأرض، والتاريخ، ف((الإنسان يصوغ كينونته وهويته ليس باعتبارها ظاهرة عقلية وثقافية، بل بوصفها طبيعة بشرية)).<sup>2</sup>، متأصل فيه، تحافظ على إنسانيته، وهذا الانتماء الإنساني أسقطه الصهيوني عن الفلسطيني

<sup>1</sup> صالح خليل أبو أصبع، فلسطين بين تحدي الوجود وثقافة التحدي، (مطالعات في أدب المقاومة وثقافتها)، وزارة

الثقافة، المملكة الأردنية، ط1، 2010، ص: 14.

<sup>2</sup> عبد الله لحميمة، الرواية المغاربية المعاصرة، دراسة تأويلية، ص: 163.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

حين اقتلعه من جذوره، ورمى به في اللامكان، بقوة الدعم الكولونيالي الذي تلقته الصهيونية من القوى الاستعمارية، والتي شرّعت لها وجودا غير شرعي في الأرض العربية، بناء على ((الاقتناع بأن من واجب الغربيين الأخلاقي التعويض على اليهود بعد المحرقة النازية، إلى القبول بالحل الصهيوني للمسألة اليهودية ومنح شرعية دولية يهودية في فلسطين)).<sup>1</sup>

بناء على هذا الأصل المرجعي الذي استقى منه النص "تحت ضحى الشمس" وجودا سرديا، يعيد فيه تكوين الواقع والتاريخ، وتكثيفا لمسار المقاومة الفلسطينية في السرد، فإن صراع شخصية "سليم" مع نفسه في تمثيله لشخصية "ياسين" هو الوجود النصي الذي يأخذ مجرى تتسع معه روح الانتماء إلى الشعب الفلسطيني بقوة المقاومة الصارمة، والمتفاعلة في حياة الفلسطيني من جهة، وبقوة الالتواء الذي أخذ مجراه باتفاقية أوسلو حين فرقت بين فلسطيني الداخل، بعدما شنت النكبة الفلسطينيين خارج وطنهم، وقد يتضح هذا بقول السارد عن "سليم" حين أنهى دراسته وأخذ يبحث عن وظيفة، يقول: ((عالم الانتفاضة الأولى، أنهى سليم نصري تعليمه في معهد المعلمين، راح يبحث عن وظيفة، رغم إدراكه التام أنها غير موجودة، فالتلاميذ تبعثروا، وتبعثرت معهم مدارسهم، وأضحى الوصول إلى غرف الصف، أكثر صعوبة من معجزة بقاء البشر أحياء حتى صبيحة اليوم التالي))<sup>2</sup>، وفق هذا النسق الحتمي من الرعب البشري الصهيوني الذي فرض على الفلسطينيين حياة الفوضى، والقتل، والتي أفرزها صراعٌ بين قوتين غير متكافئتين، لا يمكن المقارنة بين قوة مخترقة، ومدعمة من قبل استعمار ممتد في تاريخ الإمبريالية في العالم، وقوة أرهقتها تهافت الاستعمار عليها (الاستعمار العثماني، الانتداب البريطاني، الاستعمار الصهيوني الذي قام بإنشاء لدولة الإسرائيلية بمسح الوجود الفلسطيني) طيلة

<sup>1</sup> فاروق مردم بك، المتفقون الفرنسيون والمسألة الفلسطينية: الثوابت والتبدلات، مجلة الدراسات الفلسطينية،

العدد: 87، صيف 2011، ص: 20

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، تحت الشمس الضحى، ص: 24.

مسيرة تاريخية لا تقل عن القرنين من الزمن، هذا ما يجعل القارئ يصغي إلى نبض الزمن الفلسطيني الجريح، الذي أضحى فيه الفلسطيني غير مرئي بفعل الغياب الذي مورس عليه تاريخيا، وجغرافيا حين كُبت صوت الحرية فيه، فالزمن هنا -على حد قول بول ريكور- ((هو الغرابة نفسها، الاتساع الذي يبتلع كل شيء))<sup>1</sup>، عندما طغى ما هو لا إنساني، على ما هو إنساني.

وضمن هذا الإصغاء الذي فرض على القارئ تلقي النص وفق ما يحيل إليه من عوالم ممكنة، يزيح بها الهلع، والخوف عن الفلسطينيين، ولدت المقاومة الفلسطينية من بين برائن الصهيونية، أو من الحاجز المرعب الذي يقف لبعثرة، وتشتيت الفلسطينيين، لتستمر المقاومة في إيصال صوت الإنسانية الممزق، والمشنت من داخل فلسطين وخارجها، بوساطة سردية فلسطينية تعيد ترتيب الأدوار التاريخية من جديد؛ ((فاستمرار تردد الصوت الإنساني ضمان لاستمرار حياة الإنسان، وبالعكس فإن الصمت مرتبط بالموت ما لم تستطع -كما فعلت شهرزاد- أن تطيل الحياة ليس بسرد حكايتها الأخاذة وحسب، بل أيضا بإنتاج جيل جديد بالفعل))<sup>2</sup>، وهو سبيل تفتح عليه القراءة التأويلية بالإصغاء إلى صوت المقاومة الفلسطينية من خلال تتبع الأثر السردى لشخصية "ياسين الأسمر"، التي تمنعت من أن تخضع لتمثيل، أو تقليد يفقدها أصل حكايتها، ويخضعها لزمن، ومكان محددين على خشبة المسرح، ((لم يكن ياسين الأسمر من أولئك الأشخاص الذين يقبلون ربط مصيرهم بمصير إنسان بعينه، كان يتقلت من هذا الشرك الذي يحس بأنه يترصده على الدوام. وأحس بأنه كان على حق دائما، لكن ذلك لا يمكن أن يستمر للنهاية. أما الشيء الذي لم يتوقعه، فهو أن يرتبط مصيره بمصير ممثل يؤدي للمرة الأولى، دوره الأول الكبير، على خشبة المسرح))<sup>3</sup>، وهذا التملص يمنح للقارئ فرصة

<sup>1</sup> بول ريكور، الزمان والسرد، التصوير في السرد القصصي، ج2، ص: 301.

<sup>2</sup> شاهين محمد، ادوارد سعيد مقالات وحوار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2004، ص: 144.

<sup>3</sup> إبراهيم نصر الله، تحت شمس الضحى، ص: 36، 37.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

البحث عن معنى أن يكون بطلا، أو كيف استطاع الفلسطيني أن يزيل عن نفسه التهديد، والخوف الذي كبله بهما الآخر الصهيوني؟، وكيف أعاد الأدوار التاريخية لكل منهما وصحح مسار الحكاية التي عبث بها الصهيوني؟

إن الرؤية التي تخلقت من القهر، والذل، والانكسار، لهي الأجدر بأن ينصت لها القارئ، ويستتطق فحواها على النحو الذي يأخذه إلى فهم النص من اشتباكه بين الماضي، ولحظة تلقيه التي تأسست على تصورات مقاومة الهزيمة، والتضحية بالنفس في سبيل خلاص الجماعة الفلسطينية؛ فمقاربة تصاعد هذه الرؤية كتجربة إنسانية تاريخية حية، امتثلت أكثر وضوحا في شخصية "ياسين الأسمر" التي تحمل في ذاتها موقفا يتجه بالمقاومة نحو الاستمرار، ونحو نموذج اكتملت معه الصورة الدرامية للمقاومة الفلسطينية التي لم تقهر عبر تاريخ طويل من مواجهة الاستعمار، ليس بفعل قوة كسبتها الشخصية السردية فحسب، بل بفعل إرادة الحق حين تتخلق معها رؤية فكرية تتاهض الآخر في استراتيجياته الوحشية المبتذلة، وهي وجهة نظر تتحكم في نص "تحت ضحى الشمس" لتصل به إلى الانفتاح على العالم الخارجي.

بفعل هذا التوجه التأويلي، فإن شخصية "ياسين الأسمر"، شخصية امتثلت لرؤية سردية احتواها النص ضمن عوالمه، والشخصية جزء من بنى الحكاية، ((فهي تتكون من الكلام الذي يصفها، ويصور أفعالها، وينقل أفكارها، وأقوالها))<sup>1</sup>، وقد تعددت تعريفات الشخصية الروائية باختلاف زوايا النظر إليها، وأمام هذا التعدد يمكن للبحث أن يكتفي بذكر أحدث تعريف لها، وهو أن الشخصية نوع من ((الوعي الذاتي))<sup>2</sup> الذي جاء به المنظر الروسي ميخائيل باختين / Mikhaïl Bakhtine، بقوله: ((...إنما يجب الكشف عنه أو وصفه واستخلاصه لا الواقع الحياتي، المحدد الخاص بالبطل، ولا صورته القوية،

<sup>1</sup>لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، بيروت / لبنان، ط1، 2002، ص: 114.

<sup>2</sup>المرجع نفسه، ص: 114.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

بل المحصلة النهائية لوعيه بالعالم ووعيه بذاته))<sup>1</sup>؛ فالشخصية الروائية السردية ليست دما ولحما، بل هي شخصية ورقية، أو صوت، ((والأصوات هي كلمات وأفكار وأشكال من الوعي، ووجهات النظر))<sup>2</sup>؛ التي تتبني على تصور شخصيات حقيقة تجرعت مرارة الاقتلاع من الوطن، وألم الفقد بأنواعه (الموت، المنفى، الهزيمة، النكبة، والنكسة...)، بواسطة ممارسة سردية تراجيدية، تنتقل رؤاها من واقع مرير معاش يتجرع العناء، والشقاء، إلى أفق المتخيل السردية.

بهذا الأفق من الفهم النقدي للشخصية الروائية الذي يهيب القارئ إلى تكوين النص تكويننا يتحول معه الصراع الفلسطيني الصهيوني من صراع على الأرض، إلى صراع وجودي هووي يراهن فيه الفلسطيني بحياته في سبيل سرد هويته المقاومة للفعل الصهيوني الشنيع، كما تتحول القراءة بهذا المنعطف التأويلي إلى مفاوضة النص من منظور شخصية البطل "ياسين الأسمر" الذي واجه الاستعمار، وقاوم مفاهيم كولونيالية حالت بينه وبين حريته، وهذا شكل من أشكال التلقي الذي يعتمد فيه القارئ على مشاركة النص في ما يحتويه من دلالات المقاومة، يدشن بها عالم القراءة ويؤول دلالاته ((والحال أن لا حقيقة للأدب سوى تلك المعاني التي يمكن أن يلامسها قارئه أو دارسه في سياقات معينة، وهي دلالات لا تعرف الثبات طالما أن سياقات التلقي متغيرة وممتعة دائما في تبدلها واختلافها))<sup>3</sup>، عبر مسيرة قرائية تاريخية تقر بأن القراءة هي نتاج التفاعل بين النص والقارئ، لذا فهي متغيرة بتغير قارئ النص.

ولما كان همّ النص الإبداعي هو استدراج القارئ نحو عالمه المتغير، عالم يحتوي الذات الفلسطينية، ويستوعب أوجاعها، وآمالها، فإن شخصية "ياسين الأسمر" التي احتوتها

<sup>1</sup> ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء/المغرب، د ط، 1986، ص:67.

<sup>2</sup> سامية داودي، صوت المرأة في روايات إبراهيم سعدي، مخطوط أطروحة دكتوراه، جامعة تيزي وزو، كلية الآداب واللغات، 2012، ص:7.

<sup>3</sup> إدريس الخضراوي، الأدب موضوعا لدراسات الثقافية، جذور للنشر، الرباط، المغرب، ط1، 2007، ص:11.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

القراءة التأويلية استفسارا، وتأملا كانت أكثر تمثيلا للذات الفلسطينية في بعدها الفردي، والجمعي، إذ تعيش شخصية "ياسين الأسمر" وضعية استثنائية اشتملت فيها كل أنواع الشقاء، والعناء، من اعتقال، وتعذيب، واقتلاع، ومنفى جرها إلى مقاومة الاحتلال، وإنقاذ هويته الفلسطينية من سقوط محتمل؛ ف\_\_\_\_\_ "ياسين" ((في الخمسين، كان معلقا بين عهدين، في تلك النقطة الغامضة التي لا تشير إلى شباب أو شيخوخة، برا مفتوحا على نفسه، لا شيء وراءه، ولا شيء أمامه، برا على كينونته فيه، كما لو أنه مقطوع عن كل شيء، مكتف بانعدام وزنه، بين شباب مضى، وشيوخة بلا ضفاف، وتساءل: هل هي مجرد مصادفة أن يكون ما مر من عمره موزعا بالتساوي بين الوطن والمنفى؟ لكن الشيء الذي كان يعيده إلى ذاته، أن عشر سنوات تنتظره، على الأقل، هناك أمامه، كي يفعل شيئا ما، مهما ربما، شيئا يفسر له معنى هذه العودة))<sup>1</sup>، فكانت مقاومة الآخر سبيلا له لاسترجاع ذاته.

وعليه، فموقف "ياسين الأسمر" تَوَلَّد من الامتداد التاريخي للأزمة الأرض، والإنسان الفلسطيني، وحاضر يستوجب المقاومة، والصراع عبر استراتيجية نصية توحى للقارئ برؤية مضادة للقوة الاستعمارية الصهيونية؛ تمثلت في رفض "ياسين الأسمر" الانحناء أمام الاستعمار الصهيوني؛ إذ يروي السارد عن أجواء عودته إلى أرض الوطن أمام الآخر الذي ينتظر انحناءه، بقوله: ((في الوقت الذي راح فيه الجميع ينتظرون اللحظة (لحظة انحناء ياسين) بانفعال لا يخفى، كانت عينا ياسين قد عادت لتستقر هناك، في النقطة التي تلتقي فيها مقدمة الحذاء العسكري بالأرض. راح الجميع ينتظرون لحظة انحنائي، وتحت وطأة نار الظهيرة، رأيت عيون المصورين ترجوني أن أقوم بالواجب الملقى عليّ لتكتمل مهمتهم، لكنني وجدت قدماي تحملا نني بعيدا، كما لو أنني تخففت من عبء حنيني، وطوحت به، شعرت بقامتي تستقيم، ونظراتي تزداد التصاقا بنظرات ذلك

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، تحت شمس الضحى ، ص: 43، 44.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

الجندي))<sup>1</sup>، إن رفضه "ياسين الأسمر" للانحناء هو رفضه لسياسة الاحتلال؛ ففيما يصير الصهيوني على فرض جرائمه وتغطيتها بسياسات، واتفاقيات السلام التي لا سلام فيها، يصير الفلسطيني أمام هذا العبث على رفع صوته الإنساني المعذب، ومدّه إلى آذان العالم لكي ينصت لصوت الفلسطيني المغيّب تاريخياً، والمهمش، والمقموع جغرافياً.

ومن أجل إيصال صوته إلى العالم، فإن موقف "ياسين" من المحتل، ومن اتفاقياته المخرومة التي تدّعي السلام المزيف، يحدث "ياسين" ضجيجا يشوش به على الآخر الصهيوني، وينتهك أهدافه في الاستحواذ على الأرض عبر المسح الوجودي الذي يمارسه الصهيوني منذ النكبة، وما رفضه لتقبيل الأرض، والآخر عليها، لدليل على أن "ياسين" كان مسكوناً برفض وجود الصهاينة على أرضه، ومتعلقاً بموقفه الثائر على كل أنواع الاضطهاد والاقْتلاع، مما زاده قوة وصلابة وثبات في مقاومته للاحتلال، و في ادعاء القائد الصهيوني بأنه انتزع الاعتراف من ياسين في المعتقل وتحت التعذيب، بقوله: ((أنا آسف أننا اضطررنا أن ننزع منك الاعترافات تحت التعذيب، ولكنك كنت صلباً، أعترف بهذا، إلى الحد أنك لم تترك لنا وسيلة أخرى، والحقيقة، وأرجو ألا يكون في صراحتي هذه أي مساس بكرامتك، لم أكن أتصور أن إنساناً واقفاً تحت تأثير الغيبوبة يمكن أن يتذكر كل شيء، كما لو أنك كنت تحفظ عن ظهر قلب، إجابات كل تلك الأسئلة التي وجهت إليك في صحوك ولم تجب عليها))<sup>2</sup>، في هذا المشهد السردى ما يوحي للقارئ بأن المفارقة عجيبة لدى الصهيوني الذي لا سبيل له سوى الزيف والكذب في التواصل مع الفلسطيني؛ رغم أنه يملك من القوة والسلطة ما يمكنه من السيطرة، إلا أن مسعاه المظلم في الاستحواذ على أرض ليست له، ما جعله يسلك طرقاً عرجاء لا إنسانية ولا أخلاقية في تحقيق وجود غير شرعي على أرض فلسطين.

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، تحت شمس الضحى، ص: 44، 45.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر، تحت شمس الضحى، ص: 34.

وضمن هذه العلاقة غير المتكافئة، والمستفزة للشعور الإنساني، نجد الفلسطيني صامداً، وثابتاً، ومن صموده تتخلق المقاومة بإرادة تجاوزت الانكسار، والهزيمة، وتتخذ من التضحية بالنفس من أجل الجماعة الفلسطينية سبيلاً سردياً يسلكه البطل "ياسين الأسمر" حتى يرهق الصهيوني بأكاذيبه، والتواءاته؛ فقد ((كان على ياسين أن يترك المحقق يواصل كلامه، ويمضي بعيداً، باحثاً داخل قلعته الصغيرة، كما يؤكد له أن ذلك لم يحدث، أنه لم يعترف، وحين لم يستطع، فوجئ به المحقق يذهب في غيبوبة لا علاقة التعذيب بها. ليبتمس -كيف يمكن للمرء أن يحتمل خيانة جسده؟ (..) هز ياسين رأسه، مرة، مرتين، فتح عينيه آخر الأمر، بصعوبة، لم تأخذوا شيئاً مني، قال للمحقق، لم تأخذوا أي شيئاً سوى غيبوتي، وكيف تستطيع أن تكون متأكداً إلى هذا الحد؟ -لأنني أعرف جسدي، لا يمكن أن يخونني ما دمت فيه.))<sup>1</sup>، فلجسد الفلسطيني هوية موجوعة تأن من فرط ما لاقت من محن أرهقتها عبر تاريخ طويل من الاستعمار، ورغم الهزائم التي أحاطت بها من كل جهة، إلا أن السرد احتواها تأويلاً يفكك به إشكالاتها عبر تاريخ متجذر في الإنسان، والأرض معاً؛ ف—((القضية الفلسطينية، (..) هي القضية التي ظلت حبيسة التغطية السياسية والأيدولوجية دون تحريرها، لتصير قضية مفتوحة على أهل الفن والمعرفة والمفكرين، بما أنهم الأقدر على إيصال الكلمة وإسماع الرأي العام العالمي لما يجري حولها، والكشف على جوانبها الإنسانية.))<sup>2</sup>، التي لطالما ظلت حبيسة الرؤية السردية الصهيونية.

بناء على رفض الاستعمار الصهيوني من قبل "ياسين الأسمر"، رفضاً تجلت فيه مقاومة الفلسطيني أكثر بمواجهة الاستعمار، متحدياً وجوده الموزع بين انكسار الذات، وغرور الآخر، فإن موقف "ياسين" من تمثيل "سليم" لشخصيته قائم على شعور عميق

<sup>1</sup>المصدر نفسه، ص: 34.

<sup>2</sup>مونييس بخضرة، فلسطين والفلسفة، مؤمنون بلا حدود، قسمة الفلسفة والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، 4 يناير

2018، ص: 45.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

بالشعب الفلسطيني وهو يحيا تحت الاستعمار الصهيوني الذي أضى شرطا تاريخيا لصيغا بالهوية الفلسطينية، وهي التجربة الإنسانية الممتدة من ماضي متجذر تاريخيا إلى حاضر إشكالي يرفض أن يركن فيه الفلسطيني إلى الهزيمة التي حدّدها الصهيوني في نكبة 48، بما شرد، واقلع، ونفى..، يقول "ياسين" موجهها كلامه "سليم": ((لن أحضر العرض، هذه المرة، قال ياسين...، رأيت حياتي بما يكفي، والعرض الأكبر هنا داخلي، عرض متواصل منذ سبعة وخمسين عاما، قل لي، هل هناك مسرحية عاشت فوق الخشبة زما كهذا؟))<sup>1</sup>، فالامتداد الزمني للمأساة الفلسطينية، أثقل على "ياسين" في أن يختزل القصة، أو أن تتحدد في بطل واحد، أو أن تخضع حكاية شعب بكامل تاريخه ومقاومته للاحتلال الاستيطاني لعرض مسرحي ينتهي بانتهاء العرض، والحكاية لم تنته بعد، ولا يمكن استيعابها إلا على نحو من معايشة حياة الانكسار، والعناء الفلسطيني وقهره.

إن الغياب التاريخي الذي فصل الفلسطيني عن العالم، وعن الحياة بعد الصدمة 1948 هو سبب أقوى من استيعاب الحكاية ذاتها في جعل "ياسين" يرفض تقليص حكاية الفلسطيني بمقاومته، بخاصة حين واجه "سليم" بغضب، وبحدّة، وبكل سخريّة أيضا، حين قال: ((لقد خطرت لي فكرة، وسأبدأ العمل عليها منذ الغد، استوحيتها من عمليات الاستئصال التي تقوم بها كل ليلة، كما لو أن حياتي لك، لقد نسيت فيما يبدو إنني سمحت لك بالتصرف بالقصة لتكون مسرحية، ليلة، ليليتين لا أكثر، لكنني لم أسمح لك بأي حال أن تتصرف بها إلى الحد الذي تبدو حياتي فيه كما لو أنها أصبحت ملكا لك.))<sup>2</sup>، فهشاشة العرض كانت في عدم قدرة الممثل على استيعاب التجربة التاريخية للشعب الفلسطيني إلا في حدود فردية؛ أي انبهار الممثل "سليم" بشخصية "ياسين"، ونسي أن الحكاية هي حكاية شعب بأكمله.

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، تحت شمس الضحى ، 61.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، تحت شمس الضحى ، ص: 158.

تحت وطأة هذا الفهم القرائي، يندرج موقف "ياسين" ضمن رؤية أساسها المرجع التاريخي والواقع المأساوي للشعب الفلسطيني، وما يعانيه من ابتزاز صهيوني على أرضه، ليقع صوت "ياسين" في صميم النزاع باحثاً عن الاندماج بالجماعة الفلسطينية المجروحة، واحتواء آلامها ومعاناتها في حكاية تكون البطولة فيها للجماعة، مثلما نجد ذلك في قول "ياسين" حين واصل غضبه على "سليم": ((يضايقتني أن أبدو بطلاً، لأن معيار البطولة هنا لا معنى له، أنا بطل لأن لي حكاية، مكتوبة أو ممسرحة، أو منشورة في صحيفة أو كتاب، كل واحد من هؤلاء يمكن أن يكون بطلاً، هؤلاء الذي يملأون الشوارع، أطفالاً ونساءً وشيوخاً، كل واحد سيغدو بطلاً إذا ما أصبحت له حكاية، دائماً كنت مثلهم، إلى أن صار لي حكاية تروى)).<sup>1</sup> فالبطولة لا تكتمل إلا بذكر المنسيين، والمهمشين، والمقموعين، وبالتالي فهي لا تعني شخصاً معيناً، بل تعنيه بمعية الجماعة في مواجهة واقع طارئ، يستدعي مواصلة النضال ضمن الجماعة ومن أجلها، ولعل هذا ما أسقطه "سليم" حين اكتفى بشخصية "ياسين" معلناً انبهاره بها، ونسي أن "ياسين" لا يمكن الاستحواذ عليه؛ لأنه صرخة الشعب الفلسطيني في وجه الصهاينة.

من أجلك ذلك، فإن البطولة الحقيقية هي بطولة الشعب الفلسطيني في صموده، وثباته وفي مقاومته للصهيونية، رغم ما عصف به من محن كادت أن تطمس هويته، لذلك صحح "ياسين" بهذه الرؤية مسار الحكاية لدى "سليم" بقوله: ((...كل هؤلاء الذين تراهم في الشوارع أبطال مضمرون، وحتى ذلك الذي ليس له حكاية، مثلك، يمكن أن يستعير حكاية، مثلك، يمكن أن يستعير حكاية أخرى، حكايات غيره، ليكون بطلاً، حتى أنا أيضاً، لست بكاملتي، لأنني سواي أيضاً؛ تحدثت عن "النمر"، عن فناء أهله، عن خروجنا بمعجزة متسللين من بين فكي المجزرة في "تل الزعتر".....تحدثت عن المحقق، عن الزنزانة. أنا كل هذا؛ ليس هناك شخص بمفرد ذاته يمكن أن يكون بطلاً، لأنه في الحقيقة كل بطولات سواه. حاول أن تروي حكاية "النمر" وحده، أو "أم وليد" وحدها، "نعمان" وحده،

<sup>1</sup>المصدر نفسه، ص: 158.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

ما الذي سيحدث؟ سيكون كل منهم شخصية رئيسة وأنا الشخصية الثانوية، هل أدركت الآن ما معنى الحكاية؟ وكيف تتحول إلى قدر مطلق اليد؟<sup>1</sup>، فالشعب الفلسطيني لازال صامدا وثابتا على أرضه، وما مقاومته للمحتل إلا فعل إنساني من أجل استرجاع هويته الإنسانية، ودفع العناء عن فلسطين بمواجهة العبث الصهيوني، ليتسع مفهوم المقاومة الفلسطينية أكثر حين تحتويها الكتابة السردية بإمكاناتها المتخيلة وعيا، وقراءة، من أجل ذلك يكون سؤال الكتابة، ودورها في المقاومة سبيلا يواصل به البحث مقاربتة للنص "المهارة الفلسطينية" في تحقيقه للهوية الفلسطينية، فكيف تتحقق الكتابة مقاومة، ونضالا؟، أو كيف تتيح المقاومة للكتابة السردية أن تصبح نضالا؟ أو كيف تكون الكتابة سبيلا للمقاومة؟

<sup>1</sup>إبراهيم نصر الله، تحت شمس الضحى، ص: 159.

### المبحث الثاني:

#### الوجود الفلسطيني المغيب، والكتابة السردية المضادة.

أضحت التجربة الإنسانية بفضل الكتابة السردية فعلا سرديا، محققا، وملموسا، ومجسدا بتحبيك الكتابة السردية للواقع، وتثويرا لإشكالات هي من جنس التجربة الإنسانية الحية فــــ(تشكيل عالم متخيل، تحاك ضمنه استراتيجيات التمثيل، وصور الذات عن ماضيها وكيونتها..)<sup>1</sup>، ما يجعل السرد قيد تحفيز الواقع، تثويرا لإشكالات الراهن نحو مشاركة القارئ وكسب دعمه في تحقيق النص المضاد، والمقاوم، وبالمقابل فإن التجربة الإنسانية الحية جعلت من الكتابة السردية الروائية أداة للوعي، ومعرفة الذات، والعالم، وجعلت منها كتابة مضادة ومقاومة للعنف البشري، الذي يضمحل مع الكتابة المقاومة لكل أشكال القمع والاضطهاد والتصدي للقوى الاستعمارية بكشف حقيقتها الملتوية، وبتعرية تاريخها الإجرامي، وتصغير حجمها أمام شناعة الموقف التاريخي.

وذلك من خلال ما تحويه الكتابة السردية من عوالم ممكنة يلتمس فيها الإنسان هويته الإنسانية المشتتة بفعل الممارسة الاستعمارية المغتصبة للحق الإنساني، يصطنع لنفسه بالسرد سبل الخلاص من الضعف والاستكانة؛ فهي أي الكتابة السردية تتقل القارئ من الوعي الممكن إلى وعي الإمكان؛ الوعي الذي يمكنه من مزاولة إنسانيته في زمن تلاشت فيه حقوق الإنسان في الحياة بسبب القوى الاستعمارية التي هضمت حقه بالاستلاب والعنف، وهذا ما يجري مجرى رهان القراءة التأويلية التي تشدّ على الوجود الإنساني في معرض المكاشفة النصية، بخاصة عندما تكون المأساة الفلسطينية هي أرضية كبرى للسرد والمتخيل، وهي ممارسة الفعل السردية الإنساني بفضل القراءة والتأويل اللذان قد يمكنان القارئ من الوصول إلى التحقيق، والكشف عن ذاتية المقاومة في الكتابة السردية. انطلاقا من هذا المحرك القرائي، والمدعم للقراءة، والتأويل في تعقب البحث عن الهوية الفلسطينية من خلال نص "الملهاة"، وعبر مراحل قرائية هي من صميم الهوية

<sup>1</sup> كمال أبو ذيب، مقدمة كتاب الثقافة والامبريالية، ص: 16.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

الفلسطينية، وهي: (النكبة، والذاكرة، والتاريخ، والمقاومة...)، والتي كانت أسسا لوجود سردي عميق الأثر على القارئ، لما أضيئ في نص "الملهاة" من مساحات مفقودة، من حالات المقاومة الفلسطينية ضد الآخر الصهيوني، لذا فإن اعتبار (كل كتابة هي قراءة ما لواقع ما وكل قراءة معايشة مع كتابة ما، واكتشاف حركية الواقع المرصود، تبعا للخزين القارئ من الواقع في بنية المكتوب أيا كان نوعه...) <sup>1</sup>، قد يؤدي بالبحث إلى طرح سؤال استكشافي، وهو كيف كان سبيل الكتابة السردية في تحقيق هوية فلسطينية مقاومة؟، أو أي تغيير قد تطمح إليه الكتابة السردية في النص، والفلسطيني أمام أفق مسدود؟، أو بطرح سؤال أكثر توضيحا، وهو: كيف تمكنت المقاومة السردية من خلال "سيرة عين"، من إعادة الاتزان الفردي، والجمعي للفلسطيني بعد الصدمة، والفاجعة؟

تتموضع الكتابة السردية موضعا يؤهلها بأن ترقى إلى مستوى من المعرفة تحمل القارئ على المشاركة في الكشف عن دلالات هي من صميم المقاومة السردية التي كانت نتيجة التحام التاريخ بالسرد، والراهن الفلسطيني بالمتخيل من أجل التصدي لزيف رواية الآخر الصهيوني التي كانت أكثر ظلما، وجورا، وكذبا، فالأساس في هذه القراءة التأويلية هو ما يحرك وما يكون المتخيل في نص "سيرة عين"؛ النص الذي يفصح عن إشكالية الهوية الفلسطينية حين تكالبت عليها أيدي الصهاينة في دخول غير شرعي للأراضي الفلسطينية، وبوساطة تراكمات تاريخية لسيرة غيرية مستمرة في الزمن الحاضر، وبحضور مفتوح على دور الكتابة السردية المحفزة على المقاومة، يكشف النص عن تلك اللحظة التاريخية الفارقة في خصوصية تاريخ وجود الاستعمار الصهيوني، وهي لحظة تاريخية تشهد على هشاشة الموقف الصهيوني الاستعماري في بدايات دخوله إلى فلسطين أمام العالم من جهة، وحجة تاريخية قوية مضادة لكل من يقول أن فلسطين غير عربية من

<sup>1</sup> إبراهيم محمود، فضاء النص، موقع: انطولوجيا [/https://alantologia.com/blogs/10020](https://alantologia.com/blogs/10020)، ت ن: 7،

جوان، 2018. ت إ: 2022/9/12، سا: 9:00.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

جهة ثانية، وبالتالي إعادة تحديد موقع الذات الفلسطينية سرديا وتاريخيا، ما ينبئ به عن فعل اغتصاب المكان، وبشاعة الفوضى التي أحدثها الاستعمار الصهيوني.

من منطلق احتفاء الجماعة بسيرة ذاتية غيرية مقاومة للاستعمار الصهيوني، و نهوضا بالهوية الفلسطينية بالكشف عن المغيب، والمسكوت عنه تاريخيا، تكون الجماعة الفلسطينية بمعية نص "سيرة عين" قد بلغت مستوى من المقاومة السردية المضادة للاقتحام الخارجي الصهيوني، وهذا الاحتواء الرهيب من قبل السرد في صياغته، وتمثيله للهوية الفلسطينية على مستوى المقاومة -التحام الذات بالجماعة- ما يؤكد أن الهوية الفلسطينية متأصلة تاريخيا وجغرافيا، لا تتشكل بعيدا عن المقاومة، بل تأسست عبر مسيرة تاريخية تكوينية، تعرت معها كل خدعة صهيونية أرادت منها أن تضحل، أو تنزوي، وتلك حركة تاريخية تفاعلية تجاوز فيها الفلسطيني، ومعها كل وعي مختزل من قبل الآخر.

ولعل هذا ما يمنح للقارئ تحفيزا للإنصات لوقع معنى المقاومة الفلسطينية في الكتابة السردية، بالكشف عن دلالاتها في المتخيل، وهو الذي -القارئ- تولى مصير النص بخلق مسارات من التأويل المنبثق من النص ذاته، والمتفاعل فيه وفق رؤية تنتظم فيها الهوية الفلسطينية سرديا ومقاومة؛ لأن ((الرواية الجادة حمالة للمعرفة، تضع موقع الإنسان، وخطابه في علاقته بالعالم، والمعرفة التي تتضمنها ليست مظهرة بل مضمرة تدرج داخل بولوفونية واسعة، وتتوجه للقارئ ليس بوصفه حقيقة نهائية، بل كواقع متغير، وتساؤل معلق، ومن ثم لا يمكن أن يكون لها تأويل نهائي))<sup>1</sup>، بل يتعدد بتعدد مساراته، التي تتعدد معها القراءة بتعدد الدلالات المفتوحة على عوالم ممكنة، ومحتملة من الإرادة النضالية التي انتظمت معها الهوية الفلسطينية سرديا، في جدلية المقاومة، والسرد، والتأويل.

وفق هذا المسار التأويلي ينفرد نص "سيرة عين" بمقاومة سردية شديدة الخصوصية في تثوير التاريخ في السرد، وإعادة الماضي إلى واجهة المتخيل، والكتابة السردية؛ إذ

<sup>1</sup> أبو بكر العيادي، في الأدب الروائي، دار السحر تونس، ط1، 2021. ص:7

اختصر إبراهيم نصر الله سيرة الوطن المغتصب، في سيرة كريمة عبود (1893-1940)، أول امرأة مصورة عربية فلسطينية، كان لها أن تعيش فترة دخول الصهاينة إلى أرض فلسطين بداية من منتصف القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين إلى منتصفه، ف—(الهوية سرد يؤسس للذات وذلك يجعل حياتها قصة مقروءة من ذاتها ومنقاة من جموع غيرها هم بدورهم لهم ذات السرد وذات القراءة.)<sup>1</sup>، وهذا التواشج، والتلاحم بين الذات، والجماعة ما هو إلا استراتيجية تمثيلية سردية في صياغة هويتها.

من أجل ذلك فقد اعتمد نص "سيرة عين" على السرد التوثيقي، السرد الذي يتشبه بحضور شخصيات حقيقية، ويحرص على ذكر أسماء حقيقية، ووقائع حقيقية، لكن الكتابة السردية، وإن اتخذت من الواقع التاريخي سبيلا لبناء عوالمها الممكنة، فإن المتخيل وساطة سردية أخرى مكنتها من فرض إشكالات الراهن الفلسطيني الذي استحوذ على أصل المأساة برواية الحكاية في سياق العبث الصهيوني، وبالتلاحم بين المتخيل، والتاريخ في صيغ سردية تُثَوِّرُ الواقع التاريخي بمتخيل يقترن بالإنسان، والأرض، وهويتها، ((ومن ثم تتسع الكتابة لتكون نسقا من المقاومة، وسردية مضادة لحالة إقصاء الوجود.)<sup>2</sup>، وبمعية القارئ ينتعش النص "سيرة عين" على نحو من الاستجابة للمأساة الفلسطينية، بخاصة إذا كان القارئ في معرض المكاشفة عن كل ما يكون تمثيلا سرديا للمقاومة.

وعليه يكون النص قد اتخذ من السيرة الغيرية -التي لا تخلو من حدود الواقع المروي بحقائق تاريخية، وشاهد عيان-، فسحة للقبض على تلك التفاصيل التاريخية التي أسقطها الآخر الصهيوني، وغيبها لتكون السلطة لروايته بمصدقية توثقها الصورة - الصورة الفوتوغرافية- ذات الأصل المرجعي المزيف، وهدف مرعب استحوذ على تاريخ فلسطين، بقتل الإنسان، وإفراغ الأرض منه، فالمسح الوجودي كان غاية وجود الصهيونية على أرض فلسطين منذ البداية، لذلك اتخذت الذات الفلسطينية، والمتمثلة هنا في "كريمة

<sup>1</sup> حاتم الورفلي، بول ريكور والهوية السردية، ص: 28.

<sup>2</sup> رامي أبو شهاب، في الممر الأخير، سردية الشتات الفلسطيني، منظور مابعدكولونيالي، ص: 203.

عبود" موقفا دفاعيا، تمثل في إعلانها بالقول السردى، بأن ((الغياب والصورة لا يجتمعان))<sup>1</sup>، فمعايشتها للصورة وباستخدامها لآلة الكاميرا كشفت عن ذلك الحضور الفلسطيني المهيب على أرضه في تلك الفترة التاريخية، حاسمة موقفها بصور تنفي عن الفلسطيني أي غياب، لتكون الصورة هي عين الذاكرة الفلسطينية التي قاومت بها التأويل الصهيوني المزيف للوجود الفلسطيني، فقد ((كانت تعرف أن الصورة الأولى هي أهم الصور، هي خطوتها في هذا العالم الذي تحبه، هي طيرانها، هي انطلاقها في الأرض))<sup>2</sup>، الفلسطينية المعرضة للاغتصاب.

إن غاية القارئ في هذا الموضوع من القراءة التأويلية، هي تتبع مسار الحكاية، حكاية وجود الإنسان على أرضه، التي اقترحها نص "سيرة عين" بانفتاحه على التاريخ، والتمثيل ومحاولة الاقتراب من هذا النوع من الكتابة السردية التي احتوت الإنسان، والأرض لإثبات الوجود في تاريخ سحب منه الفلسطيني، وغيب تمهيدا لاستيطان الصهيوني، من أجل أن يكشف البحث عن هذه اللحظة التاريخية الحاسمة، والمدمرة، لابد من النظر إلى البعد العميق للكتابة السردية المضادة لكل أشكال القمع، والإرهاب الإنساني، فالكتابة السردية في "سيرة عين" مغامرة فكرية مقاومة بتمسكها بالوجود الفلسطيني على أرضه، ومقاومة للوجود الصهيوني، لذا ((فالكتابة إذن تتبع من عمق الوجد، والألم والمعاناة الإنسانية، إذ أن العذاب الإنساني هو المعين الذي لا ينضب للكتابة السردية))<sup>3</sup>، ومن وحي هذه المعاناة يتلقى قارئ النص دلالات المقاومة السردية بكثير من الإنصات، الذي يكشف بأن نص "سيرة عين" قد تضمن إشكالية الوجود الفلسطينية، والتأويل الصهيوني.

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، سيرة عين، ص: 88.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 20.

<sup>3</sup> عبد الله لحميمة، الرواية المغاربية المعاصرة، دراسة تأويلية، ص: 275.

يقاوم النص الغياب الفلسطيني بسيرة غيرية، أثنت عوالمها بأماكن فلسطينية حيوية مثل: حيفا، بيت لحم، القدس، يافا، الخليل، عكا، طبريا، وبيت جالا، وبيت ساحور ... وهي أمكنة مسكونة بحركة فاعلة في التاريخ، وروح أهلها المنبعثة من تفاصيل تشهد على ضخامة المدّ التاريخي للإنسان الفلسطيني؛ لذا فهذا وقع سردي ليس له سوى وجود واقعي تاريخي ملموس، وحضوره في السرد من أجل تمكين الذاكرة من تشكيل المقاومة السردية لمحاكمة تزييف التاريخ، والتواء الآخر الصهيوني، بالانتفاضة على الوجود الفلسطيني المسلوب، ولعل هذا الحضور الفلسطيني، هو ما يفصح عن ذلك التوتر الذي تحدثه الكتابة بفعل المقاومة السردية للوجود الفلسطيني المختزل.

إن الوجود الفلسطيني المتجذر في المكان، والمحاط به، لهو الحجة التي أسندت للسرد في نص "سيرة عين" كي يعرّي الحقيقة التاريخية المزيفة من قبل الآخر الصهيوني، بأن الأرض الفلسطينية خالية تنتظر من يسكنها، وهذا ما حير "كريمة عبود" حين لاحظت أن صور الأجانب التي تلتقط الأمكنة الفلسطينية قد أسقطت الإنسان، وأبعدته من مكانه، يقول السارد واصفا حيرتها: ((أما أكثر ما كان يحيرها في صور الأجانب، التي يلتقطونها في فلسطين، فهو كيف يحضر المكان، ويغيب الإنسان، وكيف يصرون على أن يقتلوا جمال المكان، وهم يجردونه من الحياة التي تضج فيه))<sup>1</sup>، فأبعاد الإنسان من المكان لم يكن محض صدفة، وإنما كان لغاية صهيونية استعمارية تريد امتلاك فلسطين، والاستحواذ على المكان ما دامت قد أعلنت الصورة عن خلوها من الحياة.

هنا وبفعل الوجود المغيب للفلسطيني، يقترن السرد بالتوثيق اقترانا يمكنه من خوض تجربة الانتهاك الصهيوني للإنسان الفلسطيني، الانتهاك الذي رسمه الصهيوني بتأويل يحرف التاريخ، ويخضع لنزواته الاستعمارية المدمرة، فالنص على هذا النحو يعاش بالقراءة، التي تعاین الحكاية من منطلق التضاد، والتصادم في جدلية الغياب، والحضور، أو جدلية حقيقة الوجود الفلسطيني المتجذر في أرضه، والخديعة الصهيونية التي عملت

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، سيرة عين، ص: 87.



## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

الفلسطينية هي ملك لليهود هو تمهيد للاستيطان الصهيوني على أرض فلسطين، واكتساب للدعم العالمي في أن يؤول وجود الفلسطينيين حسب سياسته الاستعمارية إلى الفناء.

إن وقوع جدل تأويل الوجود الفلسطيني من قبل الآخر، بقتل الإنسان، وإفراغ المكان وظلال روح الإنسان فيه، لهو التصادم الفلسطيني التاريخي بقوى الاستعمار الاستيطاني وخلق ثنائية المستعمر، والمستعمر الذي أحدث فوضى في أرض فلسطين بقلب موازين العدالة الإنسانية، والتي أضحى فيها الصهيوني الجلاذ ضحية، والضحية الفلسطينية جلاذا من وجهة نظر استعمارية، يقول السارد واصفا حال "كريمة" وهي تطّلع على الصحيفة التي كانت مسرحا للعبث الصهيوني: ((لم يكن صعبا على كريمة أن تعرف معظم البيوت التي في الصور، لكن ما لفت انتباهها تلك الصور التي التقطت لقصر جاسر، قصر الجعّار، الميتم الارمني، دير الكرمل، المستشفى الفرنسي، وهي من أجمل البيوت والمباني التي زارتها، وصورتها، كانت البيوت تقف وحيدة، تنتظر من سيسكنها، كما قالت الصحيفة! جنّت كريمة، وفي طريق عودتها إلى البيت، اكتشفت أنها كانت تبكي، بل تشهق. سألتها والدها: لماذا تبكي؟ (..) قلبت الصفحة، فتوقف قلب القس سعيد للحظات. كانت صورة البيت الرائع الذي يسكنونه في الصحيفة!!<sup>1</sup>)، بهذا الاستلاب التاريخي يكون الصهيوني قد كسر مسار التاريخ الطبيعي لفلسطين، وانعطف به إلى التغيب، والحضور المزيف للحقيقة التي أكسبته دعما من القوى الاستعمارية لاحتلالها.

يكشف نص "سيرة عين" عن حقيقة الاستلاب التاريخي لفلسطين، بتوغله في اقتفاء أثر الخديعة الصهيونية على الأرض، والإنسان، واستنادا إلى توثيق تاريخي اعتمده الكتابة السردية في النص، واستوعبت منه ما يشكل عالمها المتخيل مكاشفة، وتأويلا عن الهوية، والوجود المهّدّ لفلسطين، لذلك فـــــــ (الكتابة تقترح الأسئلة الكبرى في الهوية، والذاكرة، وأسئلة الوجود والانتماء، والحياة، والمغامرة، والاكتشاف، لأن جغرافيات

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، سيرة عين، 132.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

الكتابة تسع كل المنافى والقارات.<sup>1</sup>)، كما تسع صوت الجماعات، والأمم المقموعة في سردية فاعلة في تاريخ القراءة والتأويل، ومضادة للابتزاز الاستعماري، ومقاومة بنصوصها كل أشكال إجرام الاستعمار الثقافى الذى طوع الصورة لصالح الصهيونية، والاستعمار الجغرافى الذى استحوذ على المكان، ونفى عنه هويته الفلسطينية.

تجلت في هذا الموقع السردى المقاومة الثقافية بالكتابة السردية، التى استدرجت الحقيقة التاريخية، وكشفت عنها بتشكيلة سردية تمثلت في "السيرة الغيرية للمصورة الفلسطينية كريمة عبود"، وبنبذ الفعل الصهيونى الذى حاصر الحقيقة بالصورة، وطوعها لصالح نواياه الاستعمارية، ونمط الوجود الفلسطينى بحقيقة تاريخية منحرفة عن الوجود المتجذر في جغرافيا تقرر بهويته الفلسطينية.

من خلال هذا المسار النضالى للكتابة السردية، في نص "سيرة عين" ارتسم مسار شخصية "كريمة عبود" نحو المواجهة، والنضال في استرجاع هوية المكان، فقد ((كانت كريمة تعرف أنها لن تخوض معاركها مع المجهول، كما تفعل ليديا وأمها، بل مع الواقع، والواقع بالنسبة لها، مهما تعدد، كان يتجمع متجسدا في الصورة، الصورة التى تلتقطها هي بكل جوارحها.<sup>2</sup>)، فأعادت تصوير الأمكنة، لكن هذه المرة، بإعادة هويتها الفلسطينية وروح الإنسان فيها حين أدركت أن فعل الصهاينة ما هو إلا انحراف بالمكان عن هويته الإنسانية، والفلسطينية، والنفاق الذى أراد تمزيق الهوية عن جذورها، فكان من تتبع مسار الحكاية تاريخيا وسرديا مزايا قارة في القراءة التأويلية التى تعاشر النص، وتستأنس بمقولات هي من لب الكتابة السردية المقاومة لأي نوع من الاستعمار الثقافى، أو الجغرافى.

<sup>1</sup> حورية الخليلي، الهوية والذاكرة ورهانات الكتابة، مجلة يتفكرون، ملف: الهوية والذاكرة ومسارات الاعتراف، العدد:4، مؤسسة دراسات وأبحاث، مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب، 2015، ص: 124.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، سيرة عين، ص: 86.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

كانت الصورة الفوتوغرافية أوفر سلاح واجهت به "كريمة عبود" الاستلاب التاريخي الصهيوني للمكان الفلسطيني، فمعايشتها للمكان وللإنسان بالصور، أثر ذلك على الآخر الذي خشي، وبشدة من أن تسقط عنه صورة الضحية التي اكتسبها حين ((دفع - الدول الاستعمارية- ضريبة تخليهم وعدائهم للشعب المقدس المختار الذي له الحق في أن يكون متفردا عن باقي الأجناس الأنجاس في النفوذ المركزي لامتلاك الحقائق وتحريفها، وليؤول عقد الملكية في الأخير إلى منفعته وضحويته))<sup>1</sup>، وبالتالي انكشاف نفاق الصهيوني قد يؤدي إلى سقوط صورة الضحية التي سعى -ومن خلال مسيرة تاريخية طويلة- إلى استكمالها بحصوله على أرض فلسطيني، واستيطانه عليها بدعم من القوى الاستعمارية.

ولعل حجة النص التي تدعم هذه القراءة، والتحليل، كانت في مشهد سردي من خلال حكاية "المصور الشبح!"<sup>2</sup>، والحوار الذي دار بين الصهيونيين "ليفي والمصور السفاح موشيه" حين تحصل "ليفي" على الصحيفة العربية التي نشرت فيها صور "كريمة عبود"، يقول السارد: ((بسط ليفي الجريدة أمام عيني موشيه، وبلا أي مقدمات، قال له بخنق شديد: لقد هزمتي مصورة عربية، أعني هزمتك، أعني هزمتنا..)) أجل مصورة وعربية، ونشرتها لتثبت أن صورنا كاذبة، وأن للبيوت التي صورناها، لها أصحاب عرب، وحولها أناس عرب، ويسكنها أناس عرب، أنفهم هذا؟ ، ما الذي يخيفك؟ يسأل موشيه، وأوضح: في النهاية هي صور منشورة في صحيفة عربية لا يقرؤها سوى العرب))<sup>3</sup>، فقصدية السارد هنا هي الدخول مع الآخر في تحديد نوع المواجهة التي يعتمدها الصهاينة حيث تركز لديهم على النفاق، والكذب، والتلاعب بالتاريخ، والوجود الفلسطيني.

<sup>1</sup> جريدة غانم، ضحيوية الفلسفة والوعي بالهولوكوست، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2019، ص: 101.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، سيرة عين، ص: 154، 150.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص: 152.

وعليه يكون ردّ "لوفي" على "موشيه"، بعدما قال له: ((وما الذي عليّ أن أفعله؟ لقد نُشرت الصور. ولكنها ستلحق ضررا كبيرا بي، أعني بك، بنا، إنها تُكذّب صورنا - كريمة-، وقد تعيد نشرها صحف أخرى، عن هذه الصحيفة، وسنجد أنفسنا في مأزق كبير، أننا كذّبتنا))<sup>1</sup>، فكان رد الصهيوني هو إقراره بالخوف من انكشاف تفيقه لحكاية المكان الفلسطيني، مثلما بيّن السارد في هذا المشهد أيضا، أن الحكاية المزعومة تسير وفق استراتيجية صهيونية استعمارية ممنهجة، غايتها تأليف سردية صهيونية تمسح وجود الأمة الفلسطينية، وتغيّب تاريخها، وهي كلها -أي السردية الصهيونية- مبنية من وحي خطته التي تسعى إلى أن تمهد للاستيطان الصهيوني بإفراغ الأرض الفلسطينية، ومحو هوية المكان.

وبالتالي، وبناء على هذا التصادم بين المستعمر الصهيوني، والمستعمر الفلسطيني فالتوثيق التاريخي في متخيل نص "سيرة عين" كان على صلة وثيقة بحقيقة ما حدث من استلاب تاريخي للمكان، وللإنسان الفلسطيني، هذا ما يدفع القارئ نحو فهم الإشكالية بتفكيك بؤرة إنتاج الدلالة بردها إلى سياقها التاريخي، واكتشاف المضمّر في الحكاية؛ وهو أنها تمحورت حول تأويل الوجود الفلسطيني، تأويلا مغيبا من طرف الصهيوني الذي سعى، ويسعى إلى محو وجوده وانتزاعه بالقوة من مكانه الطبيعي.

ومقاطعة مع المقاومة الثقافية للكتابة السردية فإن تعرية التحريف التاريخي بإنتاج تمثيلات سردية تعتمد التوثيق التاريخي، كانت سبيلا انتهجه المبدع لاستحضار الهوية الفلسطينية المتجذرة في الأرض، برواية إبداعية مقاومة، ومناهضة للفعل الصهيوني المشين، الذي انكشف من خلال متخيل سردي يستند إلى التاريخ، وتتخلق معه فاعلية القراءة والتأويل؛ ذلك لأن ((الأديب ليس منظرا سياسيا ولا مؤرخا، وإنما هو مبدع ناقل لواقع موضوعي، مرتق به إلى مستوى التفاعل والارتقاء الفني ليليق بالفكرة))<sup>2</sup>، وبرؤية

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص: 153

<sup>2</sup> حنان عواد، أدب المقاومة، الفكرة الفلسطينية بين المحكم والمتشابه، مجلة يتفكرون، العدد الرابع، ص: 236.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

يصلان بدورهما إلى مستوى من النهوض بالذات الفلسطينية نحو استرجاع حقها، والثبات، والصمود، في وجه الآخر.

وعليه يكون التمثيل السردى لنص "سيرة عين" في مساره التكويني أكثر تفصيلاً واستيعاباً للعناء الفلسطيني بوجود الاستعمار على أرضه، فهو حقيقة تاريخية لا يمكن لأي نص من نصوص "الملهاة الفلسطينية" تجاوزها، ولا يمكن للقارئ أن يتخطى هذا الوجود المريب، للواقع المرعب، إلا بمصاحبته لنص "سيرة عين" على نحو من مواجهة مفردات: الموت، الاغتصاب، الاقتلاع، الشتات، وهي مفردات تخلقت، مع وجود استعماري يريد أن يفتك بالهوية الفلسطينية.

وأكثر ما اتضح هذا الوجود المرعب، والمدمر، والمميت، كان في مأساة عائلة "القس سعيد"، فقد كان الموت رفيقهم منذ أن دخل الانجليز إلى فلسطين، والذي أخذ يُنوع في الأعدار لقصف هذا المكان، واغتيال، وتعذيب هذا الشعب، وما سيرة "كريمة عبود" إلا استراتيجية سردية لسيرة الشعب الفلسطيني، الذي مرّ بمآزق الوجود، ضيق عليه الاستعمار الانجليزي، والصهيوني سبل الحياة الطبيعية في أرضه، ليصبح الإنسان الفلسطيني أكثر قلقاً لوضعه، يقول السارد واصفاً حال عائلة "القس سعيد": ((..لقد زرعوا ثكنة عسكرية في بيته، ثكنة لا تراها العين، ومنذ أن ورث سجنهم مرض السلّ لكريم، يواصل ذلك الداء الذي زرعه في صدره، هجماته على أجساد أقرب الناس إليه ويختطف أرواحهم.))<sup>1</sup>، وفي هذا الطرح السردى ارتياب، تتوغل فيه الكتابة السردية، وتفوض الأمر للمتخيل لاستكمال مساحات من العناء في تاريخ المكابدة الفلسطينية لواقع الإزاحة، والغياب.

وعليه اقترن وجود الاستعمار الانجليزي، والصهيوني على أرض فلسطين بالموت، فقد كان سبيلهم في اقتلاع الشعب من أرضه، وهو الفاجعة التي اقترنت أكثر بوجع

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، سيرة عين، ص: 126.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

الراهن الفلسطيني في حاضره بمواصلة الفتك به من طرف الآخر الصهيوني المناقض لكل ما هو فلسطيني، وكل ما له صلة بهوية فلسطينية، عليه بمحاصرته ونفيه وتمزيقه، ومحوه، يقول السارد حين فسر حال "القس سعيد" من فاجعة عائلته، بعبارة تنوع معها العبث الاستعماري بفلسطين: ((لم يكن يفكر في الأمر على أنه اختبار له، وقد كان يمكن أن يعتبره اختباراً له، لو حدث معه وحده: ولكنه احتلال لبلد، وطن بأكمله، والعبث به، فمرة يجتاحون كل شيء، ومرة يتحولون إلى كرماء فيقدمون الوطن نفسه لمن ليس لهم حق فيه، وفي أوقات راحتهم، يقومون بفتح أبواب الهجرة لليهود، ليأتوا، ويأخذوا، هم أيضاً، حصة من أجساد الناس وأعناقهم ولحومهم، ومرة يحولون صدور أبنائه حقلاً للرمية، ومرة يحولون أعناق شبابه وليمة للمشانق، في وقت لم يتوقفوا فيه يوماً عن إطعام قضبان سجونهم لحوم الناس ولأتفه الأسباب.<sup>1</sup>) من هنا تكون الكتابة السردية في "سيرة عين" قد تمكنت من فرض تجربة إنسانية فلسطينية حيّة، لما احتوت من فجيعة الموت، التي تعلقت أكثر بالمعيش اليومي الفلسطيني، وبالتحامه مع التوثيق التاريخي في انجاز متخيّل سيرة غيريّة، اقترنت بالعناء الفلسطيني في مقاومة سردية مضادة للجرم الصهيوني، حيث تألق فيها القارئ بمعرفة إبداعية كان طرفاً مشاركاً في فاعلية قراءة النص، وتأويل وضعيات سردية للوجود التاريخي لفلسطين، مقاومة للعبث الصهيوني، من هذا الموضع من الإنصات للنص، تجلّى سؤال مهم في مواصلة قراءة نص "الملهاة الفلسطينية" وهو: إذا كان الموت هو الفاجعة التي قضت على الإنسان الفلسطيني في نص "سيرة عين" مع أنه اتخذ من الكتابة السردية سبيلاً للمقاومة، فكيف استكمل الفلسطيني مقاومته، والموت قد افجعه؟ أو كيف يكون الموت مقاومة، ونضالاً، في السرد؟

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، سيرة عين، ص: 125.

### المبحث الثالث:

#### فاجعة الموت، وأفق المقاومة السردية.

استوعب نص "الملهاة الفلسطينية" الإنسان المقموع، والمهمّش، وبكل عنائه الوجودي في شمولية متخيّلة واسعة، بلغت معه مستوى من المقاومة السردية، أو المقاومة المضادة للسردية الصهيونية التي انتهكت التاريخ، والإنسان، والهوية؛ فالهوية الفلسطينية انتظمت في تشكيلة سردية مقاومة للوجود الفلسطيني المتعثر، والملغى تاريخيا، وجغرافيا، باختراق سردية النص لمفهوم الموت، وبمعايشته بكسر العدم فيه انساب الموت مع الرؤية السردية، نحو أفق أرحب في الحياة؛ أي تحول الموت من مشكل الوجود إلى حل الوجود، وانطلق بالقارئ مع الرؤية السردية نحو فضاء الممكن الذي كسر فيه السرد التضاد بين "الموت، والحياة"، لتكتمل العلاقة بينهما في تلاحم، وانسجام، يفسره انفتاح الإنسان على السرد تحقيقا لهوية معلقة بين الحلم والخوف، أو بين الحياة، والموت، فـ ((لا يمكن فهم الحياة حق الفهم إلا تحت عين الموت الساهرة))<sup>1</sup>، الذي يولد عن حياة أخرى تُكَمَل به وجود الموت بمسار سردي ينشئ بها علاقات يتجاوز بها الإنسان كل فاجعة، أو عناء.

إن تجربة الموت التي يخوضها النص المنتخب "أعراس آمنة"، في هذا الموضع من القراءة التأويلية، لهو الفسحة السردية التي تمكن القارئ من فهم الوجود المتعثر، والدموي للفلسطيني بعد الفاجعة، والصدمة، وهي تجربة سردية تنتشل الفلسطيني من هاوية القلق والرعب اللذين اخترقا فاعلية وجوده الطبيعي، حين أضحي مع الوجود الطارئ كيانا مضطربا وممزقا، ومشتتا، والموت مصيرا مفروضا يتعايش معه، ويستوعبه بفلسفة سردية أكثر انفتاحا وتأويلا على فضاء الإمكان، والاحتمال، ليتمكن بالسرد من خرق عبثية الموت والدخول معه في فضاء يوصله إلى مقاومة فجيعة الواقع الاستعماري المسيطر على الأرض والإنسان، إنه فضاء المتخيل، وعليه يكون الموت هو العنصر

<sup>1</sup> تيموثي كلارك، المعتمد الأدبي في التفكير، هيدجر، بلانشو، دريدا، تر: حسام نايل، المركز القومي للترجمة، ط1،

2011، مصر، ص: 11.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

المكون للوجود الفلسطيني في الواقع، والسرد حيث يتداخل في البنية الأساسية لنص "أعراس آمنة"، ويتشابك معها ليكون جزءاً جوهرياً منها وذلك من أجل إثارة الأسئلة المصيرية للمأساة الفلسطينية في عالم يعي أن قيمة الإنسان في الحفاظ على هويته، وتاريخه، بسرد يخرج منه السؤال الأهم، عن إشكالية الموت، في سياق المقاومة السردية، وهو: بما أن المقاومة الفلسطينية كانت ردة فعل انتظمت بها الهوية الفلسطينية كفاحاً، وصموداً في وجه الآخر الصهيوني المستعمر، فبأي أفق سردي تمكن الفلسطيني من مواصلة المقاومة، وهو المفجوع في أرضه، وأهله؟، أو كيف تجاوز الفلسطيني الرؤية السوداوية للموت، وكيف أعادت له سردية الموت اتزانها النفسي، والتاريخي، والهويي أيضاً؟، أو بأي معنى نفهم وجود الموت في نص "أعراس آمنة"، وهو النص الذي أُحيلت إليه سردية العناء الفلسطيني في مواجهة الموت؟.

أعلن النص منذ بداياته عن أفق من العيش في كنف العناء، ومكابدة واقع مرير لا يُستوعب إلا من خلال تاريخ استعماري طويل من الذل، والافتلاع، والشتات...إنها "غزة" تحت القصف الصهيوني، تقول الساردة "رندة" حين قررت أن تكتب: ((خطر لي أن أقوم بكتابة تحقيق صحفي عنوانه (من يستطيع النوم؟)، ولكنني لم أفعل، فقد كان يكفي أن أقوم بكتابة هواجسي الليلية، يوماً بعد يوم، لأدرك ما الذي يحدث في غزة))<sup>1</sup>، وبقوة عنف ما حدث، وما يحدث، يمارس السرد في نص "أعراس آمنة" فاعليته على القارئ، حيث يراهن في عوالمه على عالم سردي متشابك مع أفق العيش تحت القهر، وتحت الاستعمار الصهيوني، وبخرقه لعمق المحنة، ومواصلة استمرارية الحياة الفلسطينية أمام الموت، يكون نص "أعراس آمنة" نصاً في المقاومة، أو نصاً يستدرج قارئه لفهم موقع الذات الفلسطينية من فاجعة الموت، وأمام الاستعمار، ولعل هذا ما قالته "آمنة" لـ "رندة"، حين خطبت "لميس" لابنها الشهيد "صالح": ((كما ترين، الدنيا بين الحياة والموت، وقد

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، أعراس آمنة، الملهة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، بيروت، ط1، 2009،

فكرت بأن هذا الوقت هو الأنسب لأزوجه، وأريدك أن تقنعي أمك، صحيح أن وجود أبيك في السجن يجعل الأمر غير مناسب في نظر بعض الناس، لكن ذلك لا بد منه، فلو انتظرنا حتى تتحسن أحوالنا ويرحل الاحتلال، وتحرر فلسطين، ويعود جزؤها الذي احتلوه قبل هذا الجزء، لكان الأمر مصيبة، ولا أحد تزوج، ولا أحد خلف.<sup>1</sup>)، فالمسوغ السردى هنا يدفع عن الفلسطيني رعب المأزق، بموقف يتعالى فيه على جروحه، لمواصلة مسيرة المقاومة والكفاح، وهو الإمكان السردى أيضا الذي يتيح للذات الفلسطينية أن تتغلب على فجيعة الموت ليس هروبا منها، وإنما تحديًا لواقع مهزوز، واقع يفرض على القارئ أن ينصت للنص إنصاتا مغايرا، ليس من أجل الوصول إلى دلالات الموت فحسب، وإنما لمعايشة موقف العالم المتخاذل، أمام المأساة الفلسطينية، وهذا ما يفرضه السرد في النص الرئيس "الملهاة الفلسطينية"، والنص "أعراس آمنة" خاصة، من ((...تجاوز الممكن والمتاح والمحدود والحاصل، فمع السرد نحن موعودون بأفق آخر أرحب وأجمل. فالسرد طريقة مجدية لمغادرة محدوديتنا التي تضيق ذرعا بها، فنرتاد حينها لا نطاق حاضرنا فحسب، وإنما نبتكر صورا لمستقبلنا))<sup>2</sup>، تمكن من معايشة وتجاوز المأزق الضيق للفلسطيني.

إن الرابط الذي يجمع نص "أعراس آمنة" بقارئه، لهو رابط يُحْيِي المأساة الفلسطينية في حاضر قرائي يؤول معه الانجاز النصي إلى فعل تأويل العناء الفلسطيني في المتخيل؛ لأن ما يدخل النص في ديمومة التشكل باستمرار هو تفاعل القارئ بمعطيات نصية تفرض استراتيجيات مغايرة لعدمية الموت، ومطابقة لفكرة المواجهة، والانفلات منه في آن، ومنه فثمة إيقاظ للنص من طرف القارئ على مسار المواجهة النصية المختلفة؛ ((أي أن وساطة القارئ هي وحدها التي تدخل الأثر في أفق تجربة تتحرك باستمرار.))<sup>3</sup>، نحو

<sup>1</sup> إبراهيم نص الله، أعراس آمنة، ص: 7.

<sup>2</sup> سعد محمد رحيم، سحر السرد، دراسات في الفنون السردية، الرواية- السيرة والسيرة الذاتية- أدب ما بعد الكولونيالية- أدب الاستشراق، دار نينوي للدراسات والنشر والتوزيع، سورية دمشق، دط، 2014، ص: 7، 8.

<sup>3</sup> أبو بكر العيادي، في الأدب الروائي، ص: 168.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

إيجاد سبيل المقاومة السردية في حشد لأفق الممكن، والاحتمال، ولضمان استمرارية العلاقة التفاعلية، بين القارئ وبين النص.

ولما أحيل مصير النص لقارئ يساير أحداثه على نحو من تثير دلالات وجود الموت في سرد المقاومة، يكون فعل التأويل هو معايشة النص ضمن علاقة نصية مختلفة، ينجر معها القارئ إلى فضاء المكاشفة، ومعاينة مسار تكوين النص لفعل المقاومة، الذي يضمن للقارئ مسارات توجيه التأويل نحو أفق فهم النص، وهو القوة الغافية التي تنتظر من يوقظها، من غفوة الجمود، إلى الوجود القرائي.

وبما أن النص كذلك، فإن حاجته لقارئ ينعش وجوده، ويخرجه من حالة الوجود بالقوة إلى حالة الوجود بالفعل، تفسر تكوينه القرائي الذي يتحقق بتفعيل علاقة نصية مرنة، أساسها وجود قارئ يستجيب لاستراتيجيات النص، وينفتح على اقتراحات نصية تؤدي إلى ممارسة التأويل بناء على مرجعيات سردية كثيفة، توجه القارئ نحو أفق خارج نصي يترصد به الواقع المظلم لفلسطين ضمن فضاء المتخيل الذي يظهره بأسئلته وإشكالاته، ولأن ((..لكل نص تموجاته وطياته التي تخفي أصداء موهلة في القدم تاريخيا، وأساطير الأولين، وعصورا متراكمة تنتظر من ينقب فيها، وأصوات تبحث عن منافذ لها..))<sup>1</sup>، فإنه يمثل بطبيعته المرنة، والمنفتحة حقيقة الواقع المتخفي خلف أسوار تزييفه، ويمثل بإمكانات المتخيل الحضور الفلسطيني ضد الغياب التاريخي، والجغرافي المفروض عليه.

وبناء على هذا الموضوع من علاقة قرآنية تفاعلية تنعش النص، وتحفز القارئ على وضع النص في سياق يتلاءم مع أسئلته، فإن فهم وجود مقاومة سردية مضادة يتحقق فيها الموت حياة، وقصاصا من الغياب، والنعاء، لهو المفارقة السردية التي يحيل إليها نص "أعراس آمنة" بقرائن، وشواهد سردية تطابق الفعل السردية في تجاوزه للمأزق الفلسطيني، الذي اقترن به السرد لينفصل عنه انفتاحا، على حياة لا حدود لها سوى فهم

<sup>1</sup>إبراهيم محمود، صدع النص وارتحالات المعنى، ص: 6.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

عالم مقترح، وممكن من النص، وهذا سبيل قراءة تأويلية تقرب القارئ من حقيقة النص التي تراهن فيه على وجود المأساة الفلسطينية في حالة من مقاومة عبثية الآخر.

وعليه يكون وجود نص "أعراس آمنة" مرهونا بوجود القارئ، الذي يتكفل ببناء معرفة تحيل إلى تجربة إنسانية شديدة التعلق بفلسطيني "غزة" المقهورين، والمشتتين في أرضهم، مع هذه التجربة الطارئة، والمغايرة لفعل الوجود الطبيعي، يتجدد النص مثلما تنتظم فيه فوضى العالم وفق رؤية تأويلية تخرج القارئ من ضيق المأزق الفلسطيني، إلى أفق مقاومة الموت بمعاشته على النحو الذي يغدو فيه حياة أخرى، حياة يندمج بها الحلم مع الحقيقة، والمأساة بالملهاة، والفجيعة بالفرح، والموت بالحياة... مما يجعل فعل التأويل هنا إنتاجية، وفاعلية لمعرفة الذات والعالم، والوجود، وذلك بإعادة فهم الأشياء التي يقترحها النص فهما مختلفا يتجدد معه النص قراءة، وتأويلا.

ولما كان النص انفتاحا على المختلف، فإن سعي القارئ لفهم حقيقة الموت أمام الحياة هو سعي لفهم المقترح من نص "أعراس آمنة"، والمقترح هو معاينة فكرة المقاومة أثناء الفاجعة، بتجاوز صدمة الموت؛ لأن النص في كليته عبارة عن قصة تحكي عن مأساة امرأة اسمها "آمنة" استشهد جميع أفراد عائلتها، وظلت أمام فاجعة الموت تخترق ألمها، ومعاناتها باستعادة الذاكرة، وإحياء ما في نفسها من أمل في مواصلة ما تم قطعه من حياة أقاربها، فوجود الإنسان مرهون بما يتذكر<sup>1</sup>، وبما يبني من ذاكرة تتشكل فيها الهوية الفلسطينية، وتنتظم مقاومة، وكفاحا وصمودا أمام الآخر، فكلما اشتدت الأزمة على الهوية الفلسطينية، كانت الذاكرة سبيلا للفلسطيني لاسترجاع ما سلب منه، من الأرض، والتاريخ، والكرامة .

وعليه فإن نص "أعراس آمنة" هو سردية عن فاجعة أمة عربية فلسطينية، تريد تشكيل هويتها عبر مسار تاريخي متماسك أمام أزمة الشتات، والافتلاع، من أجل أن تستمر في المقاومة بهوية ((تصاحب الذات في الزمان، وتصبح هوية سردية أي قصة

<sup>1</sup> ينظر: بول ريكور، الذات عينها كآخر، 270.

ذلك الذي يقدر أن يروي قصة حياته بأكملها، فينسقها ويدخل إليها عناصر خيالية كي تصبح أقرب إلى الاستيعاب.<sup>1</sup>)، ومتاحة للقراءة وللتأويل، عبر استراتيجيات مقاومة وجود طارئ على طبيعة الحياة التاريخية الفلسطينية.

إن مفهوم المقاومة الذي انفتح عليه النص، يتجلى من خلال بلاغة المواجهة؛ حيث تواجه "آمنة" أحزانها، وتكيفها على نحو من استكمال حياة من فقدتهم، متخذة من حوار الموتى والشهداء سبيلا يفك حزنها، فتجهر بالفرح، حين قالت لزوجها الشهيد جمال: ((أظن أن علينا من الآن أن نكون جاهزين للفرح، أسوأ شيء أن يباغتتنا الفرحة رغم أنك تنتظره من زمن طويل. أليس ذلك عجباً يا جمال، أليس عجباً أن الفرحة يباغتتنا دائماً. أتعرف لماذا؟

ببساطة لأن الإنسان يشك في الدنيا، الإنسان شكاك يا جمال، واسمح لي أن أقول بأنه مراوغ، نعم مراوغ (..) الإنسان يراوغ، أتعرف لماذا؟ حتى لا يفقد الدهشة))<sup>2</sup>، ومن قولها هذا فإنها راوغت هي أيضاً حزنها بفرح مصطنع، لا من أجل النسيان، بل من أجل إيجاد حجة لمواصلة الحياة مع من فقدتهم بعدما أرهقتها فاجعة موتهم.

يتداعى حزن "آمنة" من فاجعة موت ابنها صالح، وزوجها جمال، وأخيها مصطفى، ولميس التي قتلت غدرا من قناص صهيوني وهي ابنة الثالث عشر... إلى أن يصبح أنس "آمنة" الوحيد هو حزنها، ليس قهراً، ولا وعناء فحسب، بل الموت مصير محتوم تواجهه أمة، وهي تحيا تحت عبثية الصهيونية، التي تريد أن تمسح وجود الفلسطينيين، وتقلعهم من "غزة" أرضهم المحصورة ضمن الشتات داخل فلسطين.

من أجل مواجهة هذا الموقف الاستعماري المجحف في حق الفلسطينيين، استطاعت "آمنة" أن تتعامل مع الموت، وأن تحوله إلى قوة غير مباشرة في استعادة الاتزان النفسي، والتاريخي لها، ولمن حولها - وهو سبيل كل من بقي داخل فلسطين - وأن تواجهه، وهي

<sup>1</sup> بول ريكور، الذات عينها كأخر، ص: 51، 52.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، أعراس آمنة، ص: 31، 32.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

رهينته، عندما تكبر مسؤوليتها أمام الآخرين، الذي عانوا من الأمرين مرّ الفقد، ومرّ ضياع الوطن، وهذا ما يستعيده البحث من النص، حين تصف "رندة" حال "آمنة" بعد عودتها من مركز تأهيل المصابين بقولها: ((غالبا ما كنا ننتظرها عند بوابة البيت، في وقت عودتها من عملها من مركز تأهيل المصابين الذي قادتتها شهادتها الجامعية في علم النفس إليه كمشرفة؛ من طرف الشارع تطل حزينة دائما، ولكنها ما إن ترانا، حتى تنتشر ابتسامتها التي عرفناها بها.<sup>1</sup>))، إن موقف "آمنة" من حزنها هو موقف لاخترق الوجود المضطرب على أرض فلسطين، والثبات على مقاومة الآخر الصهيوني تحديا له، بهويّة أكثر ما تجلت حين تأزم وضع فلسطين، وهو موقف أغلب الفلسطينيين الذين يعانون، ويكابدون في مواجهة واقع منتشر دم عبث به الصهيوني، إلى أن تحولت معه فاجعة الموت في يوميات الفلسطينيين، إلى حكاية الصمود، والمقاومة.

تنتعش حكاية "آمنة" في ظل موت الآخرين الذي أضحى تكويننا مجددا للحياة، فالموتى حاضرون، ويلحون عليها بفرض أحداث هي من صميم وجودهم؛ لأن "آمنة" عندما تختلي بنفسها، وتفتتح على ما بداخلها من حزن، وقهر، يتدفق حضور أقاربها الشهداء بماضيهم، وحاضرهم ليس توهما، وجنونا، وإنما لاستكمال ما بقي من أحداث لم يحيوها بعد بسبب الموت غدرا، تقول "آمنة" موجهة الكلام لهم: ((قلت لهم إن الشمس قد أصبحت في وسط السماء، قلت لهم هذا الكلام مائة مرة، لكن أحدا منهم لم يتحرك، قلت لهم، ما هذا الكسل الذي نزل فجأة عليكم، لم تكونوا هكذا من قبل، لا الزوج ولا الابن والأخ، لقد نمتم كثيرا، أكثر مما يجب، وعليكم أن تصحوا الآن، أن تروا الشمس، على الأقل، وأن تتحدثوا معي قليلا قبل أن أذهب.<sup>2</sup>))، إن حضور الموتى في مثل هذه الحالة هو حضور رمزي لواقع زهقت فيه روح الإنسان الفلسطيني، وأضحت تحت عبثية

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، أعراس آمنة، ص: 33.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 10.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

الاستعمار الصهيوني الاستيطاني بلا قيمة، فالصهيوني انتهج الفوضى في سبيل مسح الوجود من أرض فلسطين، ليتمكن من السيطرة وفرض سلطته على أرض ليس له. من هنا يتمكن قارئ النص من إمكانية فهم كيف يواجه الفلسطينيون واقعهم الطارئ، وهم تحت ضغط الاستعمار الصهيوني في غزة، وكيف يحافظون على هويتهم الفلسطينية أمام استعمار ليس همه سوى أن يقتلع الفلسطيني من أرضه، فالفلسطيني في غزة صامد، يعيش الموت من أجل المقاومة، والثبات على أرضه، ولعل هذا هو مجال التأويل الذي يتيح نص "أعراس آمنة" من خلال أحداث هي من صميم المأساة الفلسطينية، بها يعاد بناء إمكانات جديدة للفهم، والتواصل، التي توجه القارئ نحو مسار الإنصات لصوت فلسطين.

ولما كان الواقع الفلسطيني المأساوي قد برمج كتابةً، وسرداً، فإن قراءة نص "أعراس آمنة" في معاشتها للوجود الكائن في النص، والمزاحم للوجود الممكن والمحتمل، هي ((...موقف إشكالي مما نحن فيه وبحث عن حلول معينة، وهي في الوقت نفسه تواصل وتمايز))<sup>1</sup>، مع الأسئلة التي تحين الواقع الإشكالي، وتنقله من مرحلة الكتابة السردية، إلى مرحلة التأويل القرائي الذي يطرح بفضل مشاركة القارئ، في تثير دلالات النص؛ من حيث أن النص واقع في مرحلة الوجود بالقوة، وينتقل مع القارئ إلى مرحلة الوجود التاريخي، وهي مشاركة ذات فاعلية ثنائية -القارئ، والنص- تؤدي إلى ولادة نص القراءة، أو نص التأويل؛ أي النص الذي يتجاوز فيه الإنسان الفلسطيني وجوده المظلم، والمجحف، إلى حضور سردي يعاين فيه سؤال هويته، وتاريخه، وإنسانيته، ويصدر صوته من قلب المأساة.

من أجل معاينة سؤال الهوية ضمن حكاية فاجعة الموت، والفقْد، فإن مواجهة "آمنة" للحزن قامت على احتواء العناء الفلسطيني بأداء درامي عايش فيه القارئ تفاصيل المأساة في غزة، من قتل، وحرق، ومحايلة، واغتيال، وتشرّد. لتؤدي هذه المعيشة، أو القراءة

<sup>1</sup> محمود إبراهيم، صدع النص وارتحالات المعنى، ص: 7.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

إلى أن يبوح النص عن ضخامة، وبشاعة الفعل الصهيوني الإجرامي في حق الفلسطينيين، الذين صمدوا من أجل الأرض، والوطن، ولعل هذا ما يلمحه البحث في قول "رندة" حين تتوب عن "آمنة" بسرد القصة، حيث تحدثت عن الأسى الذي تحمله "آمنة"، بقولها: ((كان عليّ أن أنتظر زمنا طويلا كي أدرك حجم الأسى الذي تدفنه هناك في عتمة داخلها. ليس هناك أكثر إيلا ما من أن ترى طفلا يتألم، طفلا تعرف أنه لن يمشي))<sup>1</sup>، إن الخوض في تفاصيل مأساة فلسطيني "غزة"، أو فلسطيني الداخل، ومحاولة استيعابها على نحو من المقاومة التي قد تصل بالقارئ إلى أن يوضع نص "أعراس آمنة" موضع الحقيقة؛ كيف لا، وهو المقول الذي شكل دعائم وجوده النصي من العناء اليومي لفلسطين. بناء على هذا التشكيل المكثف للألم الفلسطيني، فإن ما يدعم هذه التجربة الفلسطينية في السرد، هو البعد الإنساني الذي يمنح إمكانات دلالية أكثر للقراءة، والتأويل وذلك بإعادة بناء حقيقة ما قيل تاريخيا<sup>2</sup>، وما عايشه واقعيا بنص تعلق بالواقع الفلسطيني، ليس انعكاسا لما يحدث في يومياته فحسب، وإنما تكتيفا لفاجعة الموت؛ وليس أي موت، وإنما موت الفلسطيني غدرا، وظلما، وقهرا على أيدي الاستعمار الصهيوني الاستيطاني، ليسير نص "أعراس آمنة" بقارئه، نحو الفهم الذي يبرر بدوره قوة الوجود النصي في البعد الإنساني المجروح، والواقع تحت سيطرة فوضى الصهاينة، وهو فهم يقوم على مشاركة القارئ في تفعيل آفاق هي من جنس أحداث فاجعة الموت.

بنا على ذلك فإن غاية كل قراءة تأويلية هي، بناء دلالات من صميم الوجود النصي المفجوع، الذي استثنى في طرحه لعوامله الممكنة، ويكشف بالقراءة، والتأويل عن دلالات تفصح عن واقع فلسطيني مظلم، ومغاير للوجود الطبيعي، والمعطى من الآخر الصهيوني المضاد لمسار تنتظم فيه الهوية الفلسطينية مقاومة وصمودا؛ فحين آنس نص "أعراس

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، أعراس آمنة، ص: 35.

<sup>2</sup> ينظر: إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية الذاكرة الجمعية مصدرا للسرد، مجلة تبين، العدد 33،

2020، ص: 94.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

آمنة" فاجعة الموت، عاين القارئ فيه واقعا غير إنساني مضطرب، يعيشه الفلسطيني بقهر شديد، وتنفر منه كل فطرة إنسانية، إلى أن انكشفت تلك الدلالة المفارقة الرهيبة التي تسربت من النص، وغدا معها الموت هو ذاته فرح الشهيد، وعرسه الذي اكتملت فيه مأساته حين امتدت فيه الحياة، حياة أخرى أضحي الموت هو الكمال الذي اتضحت معه الأسئلة الكبرى من وجود تشتت فيه الإنسان الفلسطيني، وتمزق على أرضه ووطنه، تقول "أم الشهيد" لـ "آمنة" حين أحييت عزاء ابنها الشهيد بالزغاريد: ((هل تعرفين من هو الذي يجبرنا على أن نزرع دغرد فعلا؟ لا ليس أهلنا وأقاربنا وجيراننا، لا ليسوا هم، الذي يجبرنا على أن نزرع دغرد في جنازات شهدائنا هو ذلك الذي قتلهم، نزرع دغرد حتى لا نجعله يحس لحظة أنه هزمننا))<sup>1</sup>، فالحزن قد تأجج في أنفسهم، إلا أنهم تبناوا الفرح، وأجلوا حزنهم ليوم الحرية مقاومةً، وصمودا في وجه الآخر، وحفاظا على الهوية الفلسطينية.

من أجل ذلك فإن "أعراس آمنة" تحققت في أماكن مفارقة للفرح، تمثلت أساسا في المستشفى، وبيوت عزاء الشهداء، والمقابر، وكأن هذه الأماكن، هي من يحقق هوية الفلسطيني المجروحة، التي يسعى إلى أن يثبت عليها، تقول "رندة" ساردة حال "آمنة" حين رأت أطفال غزة المصابين في عيونهم، التي فقأها الصهاينة: ((كان عليها الذهاب كثيرا إلى المستشفيات للالتقاء بالأطفال المصابين، وإقناع بعض الأهل الذين لم يكونوا، يقبلون وضع أبنائهم تحت رعاية خاصة. يفتلك أن هذا العدد من الأطفال لن يرو الشمس. الرصاصات التي كانت تطل عيون الأطفال بالذات، كانت تعذبها أكثر، وكانت الإصابات تزداد، وفي لحظات تتحدث كما لو أنها في مكان آخر، تقول: حين أسير في الشارع أظل ألتفت أمامي، وحولي، باحثة عنها: عيونهم. أقول لعل واحدة سقطت هنا، ويفزعني تناثر الألوان على الجدران، فأقول لعلها عيونهم.))<sup>2</sup>، إن معاشة النص للمأساة الفلسطينية في محاولة منه لفهم وضعية المفجوع في "غزة"، وما آل إليه من صدمة بعثرته، وشتت

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، أعراس آمنة، ص: 98.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 34.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

وجوده، وجعلت من أحزانه أفرحاً، لحجة سردية يمارسها النص باستمرار من أجل الخروج بمشاهد مأساوية، لا تستوعب إلا بقدر عميق من الإنصات، والفهم ضمن مرجعية تاريخية مرعبة عاشها الشعب الفلسطيني، ويعيشها، ولعل تلكم هي طبيعة النص الإبداعي، الذي ولد من رحم المأساة.

ومادام النص ينهض على هذه الصيغة من الفاجعة، فإن القارئ يفقد مع هذه التجربة الإنسانية ألفة الأشياء؛ لكونها جزء من فوضى مرعبة، وانهزامية ترفض أن تتحقق أمام بشاعة ورعب المشاهد السردية التي انحصرت في مستشفيات تحولت إلى مجازر، وبيوت عزاء أضحت مكاناً لأفراحهم يزف فيها الشهيد، ومقابر لم تستوعب أشلاء القتلى، وهذا ما يقوله الشهيد حفار القبور "عزيز" على لسان "آمنة": ((تعرفون هذا الولد معذب بحفر القبور، يقول لي دائماً، تعرفين يا خالتي آمنة: إنهم يفاجئونا، ويقتلون شبابنا كل يوم، ويجب ألا نفاجأ، يجب أن تكون هناك قبور جاهزة، أعرف أننا في الفترة الأخيرة حفرنا قبوراً أكثر، ولكنهم قبل أيام فاجأونا بصاروخ قتل ثلاثة، وحين تجمع الناس لإنقاذ من في السيارة والشارع أغارت طائراتهم وقتلت سبعة وأصابت خمسين. مجزرة يا خالتي. هناك شباب بقينا يومين نللم لحمهم عن الحيطان وسطوح البيوت، وحين جمعناهم في أكياس كنا نعرف أن أحداً لا يستطيع معرفة لحم هذا من لحم ذلك؟))<sup>1</sup> إن الفرع الذي تبثه المشاهد السردية من النص لهو التعاسة الكبرى لواقع فلسطيني معاش تذهب معه الإنسانية تفجعاً، وألماً، وجزعاً، وواقع مظلم اعتاد عليه فلسطينيو "غزة" في ثبات، وصمود، من أجل مقاومة مأزق وجوده، الذي أضحى مع وجود الاستعمار الصهيوني الاستيطاني أقلية تعيش مأزق الهوية، أين؟! على أرضها فلسطين.

ومن هنا تتسع المفارقة السردية لنص "أعراس آمنة" بين مأساة فلسطين، وملهاة الواقع، أو بين فرح لم يكتمل بعد، وحزن نخر عظام الفلسطيني، لتشمل ضمن هذه المفارقة إشكالية الهوية الفلسطينية أمام الفاجعة؛ أو الوجود المبعثر غير السوي الذي أقام

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، أعراس آمنة، ص: 56.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

النص دعائمه منه، أي من الوجود الفلسطيني المهّدّد من قبل الآخر الصهيوني، حتى يتهيأ السرد لاستيعاب الواقع ضمن التواصل الإنساني بتجربة تاريخية مرعبة؛ عندما أضحي فيها الإنسان الفلسطيني عنواناً للكفاح، والصمود أمام وضع غير إنساني.

إن المقاومة التي يدعيها نص "أعراس آمنة" هي سبيل انتظمت فيه الهوية الفلسطينية، وتجلت إلى أن صارت ضمن وسط إنساني كبير، ومفزع من مفردات الحزن، والموت، والقهر والتشرد، والإفلاق...مقاومةً، حين التصقت تلك المفردات بالفلسطيني إلى أن شكلت هويته ضمن فضاءٍ من الصراع بين الحياة، والموت، وبين المأساة، والمهابة، وبين القهر، والكفاح... وعليه تتجلى فلسفة البقاء على أرض فلسطين صموداً، ومكابدة في الزمن؛ لأن البقاء على أرض فلسطين ليس حدثاً تاريخياً مرّاً وانتهى، بل سيرورة زمنية من المقاومة المتجذرة في الأرض، وتجربة مستمرة في التاريخ؛ فحين اختار مصطفى الشهيد البقاء مع أخته آمنة كان يدرك أن أرض فلسطين هي التراب الذي خلق منه ويعود إليه، وهذا ما روته آمنة لمصطفى وهي تعيد ما قاله يوم رحيل إختها: ((قلت لهم: هناك أسطورة فلسطينية تقول إن الله يخلق الإنسان من تربتين، تراب المكان الذي ولد فيه وتراب المكان الذي سيموت فيه، لقد عرفت من زمان، أننا خلقنا من هذا التراب وحده، لأننا عليه ولدنا وعليه نموت، وقد يكون تراب أخوتي هو الذي يناديهم، تراب موتهم، أما نحن، فالذي ينادينا تراب حياتنا، هكذا، من الأول، ومن منا لا يستطيع أن يسمع نداء بهذا الوضوح؟))<sup>1</sup>، فالإنسان الفلسطيني ارتبط بأرضه ارتباط الروح بالجسد، لذا ففي حياته تناديه، وفي موته تناديه.

وبهذا الأفق من ارتباط الإنسان بالأرض، يقترب القارئ أكثر من النص، لكون نص "أعراس آمنة" ذلك العالم المتخيل المرن في طرحه التراجمي، والممتد في تمثيله لفلسفة انتماء الإنسان للأرض، باقتران روحي من الولادة إلى الموت، وعليه تتذكر "آمنة" -وهي في حوض غمار حوارها مع أخيها الشهيد مصطفى- هذا الارتباط الروحي الفلسطيني

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، أعراس آمنة، ص: 12.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

بأرضه، الذي لا تفسير له سوى أن الأرض تتاديه، نقول: ((أنت تذكر حكاية الشهيد محمد موسى أبو جزر، تذكرها طبعاً، إنها تصديق لكلامك الذي قلته، كيف يمكن أن تفسرها؟: رجل يغيب أربعين عاماً عن وطنه، ويشارك في معارك لا حصر لها خارج فلسطين، وبعد أن يعود يستشهد وهو يدافع عن (رفح)، هنا، قربنا. الله، الله يا مصطفى، لقد فهمت الآن، فهمت الآن كلامك الذي قلته لهم، فهمته يا مصطفى، الله كيف أشرق فيّ، فجأة كالنور، فهمت لماذا أشرت إلى التراب، كنت تسمعه، ولم تكن تخبرني))<sup>1</sup>، ليتسع لدى القارئ ذلك الفهم المبني على رؤية نص "المهارة الفلسطينية"، والتي توغلت في اقتران الأرض بالإنسان الفلسطيني المتجذر فيها، يسمعها ويلبي نداءها، لذلك فموته لا يعد موتاً بقدر ما يعد حياة، أو استجابة لنداء الروح، وعودة إلى الأم، أي أرض الوطن.

إن الموت على أرض فلسطين، ارتبط بالحياة مقاومةً، وكفاحاً للوجود المهتد، الذي اطلع إليه الآخر الصهيوني بالاقْتلاع، والتهجير القسري، والمسح الوجودي للفلسطينيين من أرضهم، فـــــــ"أمنة" تتذكر يوم تمسك مصطفى بالبقاء في فلسطين، أمام إخوتها الذين هُجروا عنوة من فلسطين، إلى اللّامكان، حيث قالت لمصطفى وهو شهيد: ((هل تذكر، حين راحوا يتطلعون للجهات، ويسمعون صوتها، قلت لهم: أعرف أن كل جهة تتادي واحداً منكم، وسيسمع صوتها وحده، (..) هكذا قلت لهم، كأنك فيلسوف والله، وحين قالوا لك ساخرين، وأنت يا أستاذ مصطفى، ما هي الجهة التي تتاديك ولا تسمع سوى صوتها؟ أشرت للأرض. قالوا لك: الأرض ليست جهة، الأرض مكان، أما الجهات ففوقها؟. قلت لهم: كل الجهات تلتقي هنا، فيها، ومن يملكها يملك الجهات جميعها.))<sup>2</sup>، فالانتماء إلى أرض فلسطين هو انتماء مختلف؛ حيث يدعو إلى المقاومة، والصمود، مثلما يدعو إلى تحدي المآزق التاريخي الذي أوقعه الآخر الصهيوني بسياساته الامبريالية

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، أعراس أمنة، ص: 12.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 11.

المتوحشة، فالغاء الوجود، وكبت الصوت الفلسطيني قد ضيق على الأرض مثلما ضيق على الإنسان أيضا.

بهذا الانتماء المجرّوح، والمقاوم، يقع نص "أعراس آمنة" على مدى جرم الصهيوني، ومدى عمق معاناة الشعب الفلسطيني على أرضه، التي ظلت ترتوي من دمه، تقول "رندة" وهي تحصي الشهداء في المقبرة: ((تركتهآ (آمنة) ورحت أسير بين الشواهد، عندما أحسست بذلك الهاجس، الذي خطر لي ذات يوم حول الشهداء، يسير في عروقي: هل ثمة يوم مرّ من هنا دون أن يستشهد فيه أحد؟<sup>1</sup>، إن نص "أعراس آمنة" قد اتخذ من مقاومة فلسطين مجالا، تجلى فيه عمق الصمود، بعمق الانتماء إلى الأرض، والتاريخ، ليدعم النص رؤيته بشخصية "آمنة"، التي أبت أن تعترف بموت أحبابها الشهداء حتى لا تنهزم؛ إذ هي افترنت بفاجعة الموت بعلاقة معقدة يفسرها تعاليها على الجراح، لكي تقاوم وجودا تبعثر فيه الإنسان الفلسطيني المقهور الذي تلاشت حياته الطبيعية، باستيلاء الاستعمار الصهيوني على أرضه، وتزييف تاريخه، وإلغاء صوته.

هكذا امتثل نص "أعراس آمنة" للمقاومة الفلسطينية، واصطنع لنفسه مسارا مختلفا لأفق المقاومة السردية المضادة للسردية الصهيونية، حين انتشلت الأشياء من ألفتها، وطوعتها وفق صمود الفلسطينيين أمام مأزقهم التاريخي، وعناء الاستعمار الصهيوني، من أجل ذلك استوعب النص فاجعة الموت، استيعابا أدى به إلى الانتصار على الواقع المهزوز، بتطويع أحزانهم إلى أفراح، تحقيقا لعنوان نص "أعراس آمنة"، ومعاودة للوجود المهذّب، والمتعثر الذي شحن الفلسطيني ثباتا وصمودا، وبالتالي أعاد تأمين علاقته بذاته وبالعالم، باستيعاب وتطويع الفوضى التي ألحقها به الصهيوني، من أجل الوصول إلى هوية فلسطينية مقاومة، وقادرة على العيش ضمن واقع من اكراهات الآخر.

ومن هذا الموقع التاريخي للمقاومة السردية، ووفق القراءة التأويلية، تتعدد أسئلة البحث بتعدد انفتاح نص "الملهاة الفلسطينية" على مسارات التأويل، الذي يتيح للقارئ

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، أعراس آمنة، ص: 76.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

---

ممارسة القراءة إنصاتا، ومعايشة، لوقع معنى المقاومة في السرد، وبناء دلالاتها فهما، وتأويلا، ليمتحن سؤال الحرية ضمن مقاومة سردية لنص الملهاة، فما هي المعركة الوجودية للهوية الفلسطينية؟

### المبحث الرابع:

#### الحرية في مواجهة التأويل.

الحرية قيمة إنسانية، ومقوم من مقومات الوجود الإنساني، ولا معنى للوجود الإنساني دونها؛ إن غيابها هو بتر للوجود، إذ يوقع الذات الإنسانية في مأزق الانمحاء، مثلما يضيق على الجماعة، ويعصف بكل مقوماتها، مما يؤدي بالجماعة إلى الغياب التاريخي، والافتلاع الجغرافي، وحتى إلى الانسلاخ عن الهوية والبعد عن الانتماء، وعلى العكس من ذلك فإنّ حضور الحرية يعني أن الإنسان يمارس حياته دون اكرهات أو تضييق؛ أي ضمن عيش إنساني كريم، يصنع فيه عالمه، ويحقق هويته دون صراع.

وعليه، فإن هذه القيمة الإنسانية للحرية توحى بأنه لا بديل عنها سوى الموت، الذي كان مسارا سرديا أقر به نص "الملهاة الفلسطينية" في غير موضع من تمثيلاته السردية، وعبر نصوصه المتفرعة؛ التي أقرت هي أيضا بدورها أن الموت هو مسار المقاومة السردية، حين احتوته من أجل الحرية نضالا، وكفاحا؛ فإذا انتظمت الهوية الفلسطينية مقاومة، فإن الحرية هي سبيل الهوية الفلسطينية، أو هي الهدف الذي أقامت عليه سردية "الملهاة الفلسطينية" عوالمها لما انطلقت من موضع تاريخي دفاعي، اشرع فيه الفلسطيني عن إرادة مقاومة الاستعمار الصهيوني، يبتغي بها الحرية من أجل تحقيق الهوية الفلسطينية، فـــــــ(ليست الهوية موضوعا ثابتا أو حقيقة واقعية بل هي إمكانية حركية تتفاعل مع الحرية. فالهوية قائمة على الحرية لأنها إحساس بالذات، والذات حرة، والحرية قائمة على الهوية لأنها تعبير عنها، والحرية تحرر أي أنها إمكانية لأن يكون الإنسان حرا. الهوية إمكانية على إمكانية. الهوية إذا ليست شيء معطى بل هي شيء يخلق.)<sup>1</sup>، ولما هي كذلك، فإن الحرية هي عقد هووي أبرمه نص "الملهاة الفلسطينية"، للأخذ بيد الفلسطينيين المشتتين إلى فضاء المتخيل، يمارسون فيه حريتهم التي سلبت منهم، وبالتالي فالحرية هي شكل من أشكال الوجود في السرد، والحياة أيضا.

<sup>1</sup> حسن حنفي حسنين، الهوية، ص: 23.

أما التأويل، فإنه ينصرف إلى فهم الوجود النصي، فهما يتأسس على مرجعية نصية عجائبية، تؤثت للوجود المختلف للحرية، التي تصنع الإنسان، وهو صانعها؛ وذلك بالبحث عن هويته ضمن إشكاليات الانتماء الفلسطيني، والصراع الصهيوني، فليس التأويل هنا سوى فعالية فكرية يتم بوساطتها اكتشاف رؤية جديد للحرية، التي تبناها نص "الملهاة الفلسطينية" باعتباره حاوي التجربة الفلسطينية، وحاميتها؛ أي التجربة الأكثر مأساة، ورعبا في التاريخ.

ولما كان الأمر كذلك، فإن مسار القراءة التأويلية التي تبتغي فهم الحرية فهما يتيح للقارئ المشاركة في بنائها، فـ((الحرية قيمة جدّ خطيرة إذا لم تتحول إلى فن للمشارك))<sup>1</sup>، ليتجه مسار القراءة التأويلية نحو النص، وينطلق منه للعيش في كنف الاختلاف، والمغايرة؛ أي ضمن خصوصية النص في طرحه للحرية حين تفرد بها عن باقي النصوص، فلنص هوية سردية تفرض، وتحدّد سبل القراءة التأويلية؛ كما أن القراءة التي تعتمد على مشاركة القارئ في استخراج الدلالة، تبقى على هوية النص قائمة على العالم الذي أفضى به النص إبداعا وتخيلًا، واستوعبه القارئ فهما، وتأويلا.

انطلاقًا من هذه العلاقة الجدلية التي تتيح للقارئ إمكانية الفهم، فإنّ ((كل قراءة تكتشف بعدا مجهولا من أبعاد النص، أو تكشف النقاط عن طبقة من طبقاته الدلالية))<sup>2</sup>، التي تعمق الفهم، وتبني أفق القارئ القابل للانساع بروية النص، التي تقوده نحو الفهم، فكلما تعمق الفهم اتسعت الرؤية؛ وإذا اتسعت الرؤية اتسع التأويل أيضا؛ لأنّ ((التأويل هو فعل كينوني نمارس من خلاله صلتنا بالعالم، والأشياء، فلا فهم يستوي، ولا حقيقة تتبدى ولا معنى يتكثّر، ولا إنسانا يولد إلّا وهو تأويل، وكأنه قدرنا الذي يحملنا ونحمله، فما من

<sup>1</sup> فتحي المسكيني، الهوية والحرية نحو أنوار جديد، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص: 10.

<sup>2</sup> بن الدين بخولة، نصية النص واستراتيجية القارئ، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، المجلد 4، العدد3، سبتمبر 2021، ص:32.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

صرح معرفي له أسس ومبادئ إلّا وله ثمرة نشاط تأويلي<sup>1</sup>، وعليه ينبغي على البحث أن يعقد الصلة بين التّأويل كروية منهجية تعيش النص، وتصاحبه في خصوصيته، وتقرده، وبين الحرية كطرح سردي يقيم الوجود الفلسطيني المقيد، والمبعثر، وبين الفعل السردي، والفعل التأويلي يرد الاستفهام حول الحرية انطلاقاً من النص، فبأي معنى يكون الفلسطينيون أحراراً؟، أو ما هو تصورهم عن الحرية؟، وكيف شكل نص "المهارة الفلسطينية"، وعيه بالحرية؟

قبل البدء في تحليل نص "طيور الحذر" -الممثل الأول للحرية نيابة عن النص الرئيس "المهارة الفلسطينية"-، يجب على البحث الإقرار بأن جوهر الفعل التأويلي هو التحرر والانعقاد، أي التحرر من الدلالة الأحادية التي تكسر النص، وتحصره في نمطية المعنى الجاهز، والمقرر سلفاً، فالتأويل وإن كان قراءة استكشافية تنطلق من النص، لتعود إليه فهما وتفهما، إلا أن بنية النص الافتراضية تمنح للقارئ إمكانات دلالية متعدّدة، واستراتيجيات قرآنية مختلفة تعدّل بهما أفق القارئ، وهو يترصّد المعنى خارج النصّ بدلالاته المختلفة، والمتعدّدة وبالتالي فإنّ فعل التّأويل، هو الانعقاد من أحادية القراءة، وجاهزية المعنى.

انطلاقاً من هذا الفهم النقدي الذي أقر بأنّ هناك علاقة جدلية تربط بين التّأويل والحرية فإنّ التّأويل ما هو إلا ((قراءة مرتبطة بالبناء والتفكير. بهذا المعنى، فإنّ القراءة الخلاقة تفتح النص الروائي على احتمالات دلالية جديدة، فتصير الممكنات التأويلية مشروطة بفرضيات القراءة وعمليات التّأويل واستراتيجياته، وبـ "قوة" فهم النص وبناء دلالات جديدة))<sup>2</sup>، والاحتمال الذي كشفه البحث في غير موقع من هذه القراءة هو علاقات

<sup>1</sup>ربوح البشير، عبد الغني بارة: المنظور التأويلي ثورة على الأنساق المغلقة، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، <https://www.mominoun.com/articles/3709>، ت ن: 15، يوليو، 2022، ت إ: 1/3 / 2023، سا:

9:45

<sup>2</sup>عبد الرحمن التمار، السرد الروائي ونظرية الاحتمال التأويلي، مجلة علامات، عدد 53، جامعة مولاي إسماعيل، موقع المجلة: <https://alamat.saidbengrad.net/?p=7272>، ص 49.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

تأويلية على ما أقامته الذات من كتابة إبداعية، سردية أو سيرة ذاتية، استدعت فيها تاريخها لمقاومة وجود متعثر لجغرافيتها المسلوقة وتاريخها المغيب، فلم تلبث الذات المبدعة أمام هذه العبثية الصهيونية إلا أن أعادت صوغ تجربتها بتأويل سردي، الذي ارتسمت معه حريتها من حرية إنسانية فلسطينية مقاومة لوجود المتعثر.

وهذا التحقق السردية يستدعي قارئاً متفاعلاً مع نص "طيور الحذر"، على نحو من رؤية قرائية تقبل على العجائبي، الذي تلاحم مع النص بشكل رمزي، وتجاور معه في بنية سردية تفتح على عالم مختلف، عالم اقترن بالسيرة الذاتية للمبدع تساؤلاً، وتأويلاً لوضعها الإشكالي المتمثل في الشتات، والاقتراع، والتهجير.. ، واقترن أكثر بأحقية الذات، والجماعة الفلسطينية في الحرية، لذا فالحرية من منظور نص "طيور الحذر" حقيقة تعاش، وتحقق بإنسانية الإنسان وبفعل مقاومة الوجود المنتكس، والمتعثر من قبل الآخر الصهيوني، وتصنع حريتها حين تستوطن الممكن والمحتمل من نص سردي يستدعي قارئه للتأويل، والفهم؛ لذلك ((الفهم، من منظور هيرمينوطيقي، ينبغي أن يعود إلى الأشياء ذاتها، أي أن يفسح المجال للنصوص كي تفصح عن حالها فندركها في غيريتها، بعيداً عن الرؤية النفسية التاريخية الساذجة، فالفهم يعني، أولاً وقبل كل شيء، أن يكون فهماً في شيء ما.))<sup>1</sup>، فحتى يتحقق الفهم بتجربة الحرية لنص "طيور الحذر" تفرض القراءة التأويلية على القارئ الانطلاق من النص بمعطياته، وممكناته السردية التي تعد استراتيجيات توجيهية للقارئ، إلى أن يتحقق لديه الفهم معايشة وإنصاتاً، فليس الفهم سوى نتاج قراءة تأويلية تفاعلية بين النص، والقارئ.

يروى نص "طيور الحذر" العناء الفلسطيني كتابة، وسرداً، وليس أي عناء، وإنما هو عناء المسح الوجودي الذي تلقته الأمة العربية الفلسطينية في السلب الجغرافي، والتغيب التاريخي بتهجيرها، واقتلاعها أيضاً، فكان للذات الفلسطينية أن تنتهي سردياً، للدفاع عن هويتها أمام الغزو الصهيوني، فالحياة المبتلات بالعناء تروى مثلما أقرها بول

<sup>1</sup> بارة عبد الغاني، الهيرمينوطيقا والفلسفة، نحو مشروع عقل تأويلي، ص: 272

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

ريكور\_ في البحث عن العلاقة بين الحياة، والسرد<sup>1</sup>، لذا فإن تجربة الحرية في نص "طيور الحذر"، هي تجربة استثنائية بدائرتها الزمنية؛ التي تحققت بين شهادتين، شهادة ولادة "الصغير" حرًا بإرادته<sup>2</sup>، وشهادة موته حرًا أي باختياره<sup>3</sup> وبينهما أرقام لفصول الكتابة الإبداعية من رقم 46 إلى رقم 1، وهي تتجه بمسار تنازلي تتصاعد فيه الأحداث، قد يتعاطى معها القارئ وفق هذا المسار الإبداعي، ويعتبر أرقام الفصول علامات تاريخية دالة، تشير شهادة الموت إلى فاجعة النكبة الفلسطينية سنة 1948 وشهادة الولادة إلى سنة 1947 تكملة لدائرة زمنية في تشكيلة سردية إبداعية واعية بحصار الزمن الفلسطيني في نكبة 1948، التي غيرت مجرى تاريخ الشعب الفلسطيني من حالة كان يسعى فيها إلى التحرر من الاستعمار العثماني، والبريطاني، مثل باقي الدول العربية، إلى حالة الصدمة التي سعى الاستعمار الصهيوني فيها إلى تثنيته، وتقليعه من أرضه.

ولعل ما يدعم هذا التأويل هو موت "الصغير" في نهاية القصة، وهي نهاية مفتوحة أعلن بها النص عن بداية جديدة صيغت عبر مشاهد سردية مكثفة تقر بموت "الصغير"، موتا عجائبيًا مبتكرا لحرية العصافير التي خرجت منه بعدما خلصها من الصيادين، يقول "الصغير" واصفا انتصاره حين أصابته قذيفة الصهاينة: ((..كنت فرحا لأن حنون تجلس عند رأسي. فرحا لأن القذيفة التي ألصقتني بأرض لم تصل لعصافيري. فرحا لأن عصافيري كانت ترتفع وترتفع...عصافيري، وعصافير أخرى لم أكن رأيتها من قبل..وكانت هناك رفوف سنونو، أيضا. فرحا، لأن حين وصلوا، لم يجدوا غير قميصي في المكان!!))<sup>4</sup>، فالمنطق الإبداعي الذي سار عليه نص "طيور الحذر" وفق رؤية رمزية فعالة يفصح بها، بقدر ما يبطن عن إرادة فلسطينية تصر، وتقاوم من أجل الحرية، يقول

<sup>1</sup>بول ريكور، الحياة بحثا عن السرد، ص: 52.

<sup>2</sup> نصر الله إبراهيم، طيور الحذر، ص: من 6، إلى 22.

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص: 309، إلى، ص: 321.

<sup>4</sup>المصدر نفسه، ص: 321.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

الصغير: ((سأظل أفكر بأجنحتي دائماً كي لا أنساها))<sup>1</sup>، وعليه يكون قول "الصغير" عن الأجنحة، وموته العجائبيّ من أجل بداية جديدة للعصافير، حجة سردية تقاوم الوجود الفلسطيني المنكسر في الشتات، كما تبعث بتجربة مختلفة عن الحرية في السرد؛ فعلاقة "الصغير" بالعصافير تحيل إلى مفهوم الحرية في بعدها الإنساني المحض، والعلاقة ما هي، إلا استراتيجية قرائية تفتح على أفق من الفهم أساسه التأويل، الذي يدفع القارئ إلى مجازاة أحداث النص في اختلافها، فيقع النص في موقع التأثير على القارئ بموقع المقاومة السردية من أجل الحرية.

من أجل ذلك يجب على القراءة التأويلية أن تسلّم مع نص "طيور الحذر" بأن الحرية هي الوجود الذي يستحق الفهم، فهو الوجود الذي تجلت فيه الحرية في كامل إنسانيتها، فما بين بداية استثنائية مغايرة لولادة "الصغير"، الذي أخذ يتعرف على الأشياء من خلال معانيها الأولى المنفتحة على الحرية، وهو في بطن أمه، حيث سرد "الصغير" بعض معالم وجوده في الرحم قائلاً: ((سمعت ذلك الغناء الذي لن أنساه، عصفور حقيقي كان يغني، لم يرتجف، لم يفزع وهو يرى ويسمع كل تلك الفوضى تحت الشجرة، وحينما هدأت عاصفة الضحك، سمعت خفقان أجنحة ترفّ، وتبتعد، وكانت المرة الأولى التي أسمعها عن هذا القرب، تلك الليلة قررت المغادرة.))<sup>2</sup>، وبين استشهاده العجائبيّ، وانفراج العصافير منه، يدرك القارئ عبر الفعل العجائبيّ هذا، أن معنى الحرية ينمو مع تصاعد أحداث النص، في حين العدّ التاريخي التنازلي يعود وفق الدائرة الزمنية إلى حادثة النكبة حين اقتلع الشعب الفلسطيني من أرضه وشرده وشتت في غير مكان من هذا العالم، هذا ما قد يطابق مع شهادة هلاك "الصغير"، حين وصل بموته إلى قمة حرية العصافير، فمادامت شخصية النص تقتضي الحرية، فالموت تساقق وفق إرادة الفلسطيني في بحثه عن الحرية، مثلما وصل إلى أن استيعابه للنكبة في تجاوزه لصدمة الفاجعة، ومحاولة منهم لخلق عالم

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 320.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 8.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

الممكن، والمحمّل، لذلك يفتح نص "طيور الحذر" على سردية شقاء الفلسطينيين المشتتين حريّة، وتحرراً.

إنّ تفعيل مضمون النص على هذا النحو يجعل القارئ يُقبل بحذر على فهم الحريّة و على الوعي الذي يقترحه النص، ضمن دائرة زمنيّة تاريخيّة تستعيد فيها الذات ذاكرة الفاجعة، أو الذاكرة الجماعيّة للشعب الفلسطيني، بإعادة ترتيبها وفق رؤية نصيّة إبداعية تقر بتجاوز الذات لصدمة 1948، وبالتالي يعد نص "طيور الحذر" انجازاً نصيّاً في الهوية الفلسطينية والمقاومة من أجل الحريّة؛ وذلك بتفعيل علاقة جديدة بين التاريخ، والإبداع، وربطها بالتأويل؛ لأنّ التأويل طريقة لفك الرموز، والرمز بطبيعته المكثف لدلالات النص، يحمل على التفكير<sup>1</sup> ويحمل القارئ على مسابرة النص بناء على نسقه الرمزي، والثقافي.

وبذلك يرتفع مستوى الجدل بين القارئ، والنص وبمعية القراءة التأويلية، إلى وصف حالة اللاجئين الفلسطينيين في مخيم "الوحدات"، وهو المخيم الذي قضى فيه المبدع "إبراهيم نصر الله" طفولته بعدما اقتلع الشعب الفلسطيني من أرضه، ((وفهمنا لنص أدبي لا يعني فهم تجربة المؤلف، بل يعني فهم تجربة الوجود التي تفصح عن نفسها من خلال النص، (ومنه فإن) عملية الفهم متغيرة طبقاً لتغيّر الآفاق والتجارب ولكن ثبات النص - كشكل - هو العامل الأساسي لجعل عملية الفهم ممكنة))<sup>2</sup>، أو عالم الشتات المرعب، والمرهق للفلسطينيين المضطهدين والمهمشين خارج بلادهم، وهي الفكرة التي يتحرك ويجري إليها نص "طيور الحذر" بكثافة رمزيّة تمثلت في العصافير المقيدة... العصافير التي تتحرّر حين يعلمها "الصغير" الحذر من شباك الصيادين... منتصراً بذلك للاجئين الفلسطينيين ضمن إطار فعال من قدرة النصّ على التقاط المعيش اليومي، وتلخيص

<sup>1</sup> ينظر: بول ريكور، بعد طول تأمل... السيرة الذاتية، تر: فؤاد مليت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006، ص: 51، 52.

<sup>2</sup> نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة، وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط1، 2014، الدار البيضاء المغرب، ص: 42.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

الكيونة<sup>1</sup> في عنائها، فما حركة هذا الفهم القرائي إلا كشف عن الوعي الذي يشغل النص في مستوى المقاومة السردية.

إنّ انفتاح نص "طيور الحذر" على المقاومة السردية من أجل الحرية، يحدثه النص بواسطة رمزية مكثفة تقر بوجود قهر فيه الفلسطيني خارج أرضه بعدما اقتلع منها، أي في الشتات، يروي السارد كيفية الحصول على الماء وهو يصف المخيم بقوله: ((شوارع ضيقة بظلال نحيلة. أزقة طويلة تعبرها قنوات بطولها. مياه آسنة بروائح كريهة ترف حولها حشرات من أشكال مختلفة. مطالب كثيرة رفعت، وعرائض وقعت، حتى أصبح بإمكان النساء الحصول على الماء من حنفيات عامة، خصص عدد منها لكل حارة، بعد أن كان الصراع للوصول إلى الماء الموزع بالصهاريج يكلف النساء كثيرا من الدم<sup>2</sup>))، ليربك النص بوصفه للعناء الفلسطيني في الشتات القارئ في تحديد سبل الدلالة، دلالات المقاومة ضمن حرية إنسانية قادرة على استيعاب الإنسان في عنائه، وإنسانيته المهمشة، ((وهي فكرة تجذرت في مجمل عناصر النسيج الروائي ككل، حتى أصبحت الكتابة الروائية في حدّ ذاتها فعلا للمقاومة<sup>3</sup>))، وفعلا تخيليا لرفع القيود والممانعة، وإعلانا تمثيلا عن الحق الفلسطيني المهضوم، فالنص تجذر في العناء الفلسطيني بوصفه لحالة المهجورين والمقموعين المغيّبين عن التاريخ.

في هذا الموقع من مقاومة سردية مضادة يستحوذ نص "طيور الحذر" على قارئه لا من حيث التأثير فحسب، وإنما من حيث المشاركة الفعالة التي تؤدي بالقارئ إلى الفهم الأفضل للحرية حين يعيها النص بوعي تاريخي إبداعي، تمثيلي لأحداث هي من عمق المأساة الفلسطينية التي اقتلع فيها الشعب الفلسطيني من أرضه، وكُكب إلى خارج مكانه الطبيعي إلى الشتات، أرض الحيرة والنشطي.

<sup>1</sup> ينظر: ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص: 7.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 110.

<sup>3</sup> عبد الله لحميمة، الرواية المغاربية المعاصرة، دراسة تأويلية، ص: 281.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

من أجل ذلك يهرع نص "طيور الحذر" إلى الحرية في معناها الإنساني، فهي من أولوياته حين تكفل به عبر تشكيلة سردية رمزية فعالة في بنية افتراضية قادته لمشاركة القارئ، والتأثير عليه، لبناء دلالات النص المضمر خلف شبكيته المنقطة برمزية العصفير.. التي توحى بثقلها الرمزي إلى الإنسان الفلسطيني؛ فالشخصية المحورية المتمثلة في "الصغير" مهووسة بهاجس الحرية تعتبر العصفير كائنات إنسانية تعادلها في إحساسها وفي معاناتها، ولعل مشهد لقائه بـ "سمير" صياد العصفير، وآكلها ما يوحي بذلك:

((قال: اسمي سمير.

وكان يحاول القبض على العصفور المتفلت من يده بصورة أفضل.

\_ لماذا لا تصنع لك شعبة وتصطاد العصفير معنا؟

تأمل الصغير الدم الأحمر، تأمل الكائن المتفلت.

- حرام. قال لسمير. من قال ذلك؟

أنا قلته لنفسي، الصغير يطير وأنا أمشي، هل تحب أن يكسر أحد رجلك؟ سأل الصغير. لا .. قال: والعصفور أيضا، هو يغني، ونحن نتكلم، هو لا يستطيع أن يقول لك إنه لا يحب أن تكسر له جناحه، لكن بدل أن يقول لك ذلك ينزف!!<sup>1</sup>، إنه مشهد يقارن فيه "الصغير" بين ألم الإنسان وألم العصفور، وفي المقارنة بينهما لا يوجد غير التماثل لكونه يتحكم في مفهوم الحرية عند "الصغير"، فالعلاقة بينه وبين الحرية نمت لديه بوعي طفولي، وببراءة إنسانية جريئة تمرد فيها على كل أشكال القيد، والمنع وهو يكافح من أجل الحرية منذ وجوده في الرحم، وهذا إحياء عن التجذر الذات الفلسطيني في أرضها، فمنذ الوجود الأول وهي حرّة، يقول: ((تناسيت كل ما مر بي أثناء ولادتي، وبدأت البحث

<sup>1</sup>إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 97.

عن حنون، والطائر، إلّا أن لقائي بهما لم يكن سهلاً<sup>1</sup>، وهذا ما يجري إليه الإبداع السردى مجرى الرهان من أجل الحرية.

فالحرية التي تكاثف وجودها السردى في رمزية الطيور قد عصفت بالقيود، واضمحل معها كل شقاء مع أحلام "الصغير" حين راح مزهوا بحرية، استوعب معناها مع الطيور، ومع حنون يقصد بنت الجيران، ومع القطعة الزرقاء أي السماء، ومع أم الضوء أي الشمس بحس فطري، يدفعه لخرق الموانع، ويزاحمه في ذلك إرادة تبتغي تصعيد السرد نحو أفق التحرر، يقول "الصغير" متسائلاً ومتعجباً عن حاله من وثاق القماط: ((...وأتساءل: هل يعتقدون أنني سأهرب إذا ما حلوا واثقي؟! لم ينتبهوا لي. وجاء الليل فحاولت أن أفك أسر نفسي، أحرر يدي، رغم أن هذا التصرف جعل أمي تحكم القماط علي أكثر، إلا أنني لم أياس، كنت أحاول ذلك مرة إثر أخرى، حتى صرت أنجح دائماً، فتجن أمي (...). استسلمت أمي أخيراً، بعد أن فقدت الأمل بأنني سأكون مطويًا داخل الحزام القطنى...))<sup>2</sup>، فتمثيلية نص "طيور الحذر" تعتمد على رمز الحرية "الطيور" في التعبير عن مكونات الذات الفلسطينية الموجهة، حين أخذت تتسع لتشمل الجماعة، ولا تتخلى عن واقع عناء الشعب الفلسطيني في الشتات، ومادامت ((الحقائق تبقى خلف الأشكال الرمزية<sup>3</sup>))، فإنّ المدهش في هذا التمثيل السردى أن النص يُبقي على العدة التاريخية لفلسطينيين من مقاومة وشتات وبحث عن الحرية، فلا معنى للحياة دون هدف تحدده حرية إنسانية يتحدى بها واقعا مظلمًا.

من أفق الفهم الذي يطرحه نص "طيور الحذر" بواسطة رمز الطيور فإنّ المسار الدلالي لحكاية "الصغير" قد تساوق مع تازم الهوية الفلسطينية بوجود الصهاينة على أرض فلسطين، إذ حضرت رمزية العصافير بقوة التأثير التاريخي لفاجعة النكبة على الشعب

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص: 10.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 12.

<sup>3</sup> فليب سارنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، تر: عبد الهادي عباس، دار دمشق، سورية، دمشق، ط1، 1992، ص: 499.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

الفلسطيني، فهي المحرك الفعلي للحكاية، وهي الدائرة الزمنية التي حصرت هوية الشعب الفلسطيني في الشتات وفي تشظيه في اللامكان؛ فلما أُرهب "الصغير" بالقتل الوحشي للعصفور كانت فاجعته فيه كبيرة، مثل فاجعة الشعب الفلسطيني في أرضه التي عبث بها الصهاينة. فكيف هي الحياة إذا اغتيلت البراءة، وسحب الحس الإنساني؟

ذاك هو حدث الصدمة الذي غيَّب "الصغير" عن أنظار الأطفال الصيادين، وأصبح هائماً في البراري يبحث عن المفقود، يقول السارد: ((تكاثرت الألباز حول الصغير فجأة، محاطاً بهالة من الغموض كان. الوجه الطالع من الضباب. وعلى بعد خطوتين خلفه تختفي تلال الأسرار. أحب المسافة فركض، المسافة التي لا تنتهي، ورأى الأرض أجمل حتى من أم الضوء.. ركض، تسلخت قدماه، وحين رأى الطيور تصعد، تقافز، مثل جدي فلم ينطح سوى الهواء، خيط ما سرّي لا يراه يثبتته بالصخور، وراح يركض والصخور آثاره..))<sup>1</sup> وبكثير من العجائبية يحيل المشهد السردى على عمق الفاجعة التي خلخلت الصغير بانتشاره في البراري، ومحاولته في القبض على معنى الحرية في السماء والأرض، وصفوف الطيور..، وإعادة حريتها في الطيران، ليتخطي "الصغير" بذلك فاجعة قتل العصفور، ويستعيد قدرته على الحرية، بتعليم الطيور أن تكون حذرة من الصيادين.

إن وظيفة النص ضمن موقع المقاومة السردية هي استدعاء القارئ، حتى يلقي به داخل دلالات الحرية التي تبني وتركب ضمن إشكالية الهوية في نص "الملهاة الفلسطيني"؛ فالحرية بالنسبة للفلسطيني هي إمكانية معلقة من وجهة نظر الآخر النقيض الذي قيّد الفلسطيني وسلب أرضه، وغيبه تاريخياً وجغرافياً، وأوقعه في أزمة إنسانية تاريخية عنوانها المأساة الفلسطينية وللحذر دور في إعادة تمكين الفلسطيني من استرجاع حقه في الأرض والحياة..، وما تعليم الحذر للعصافير إلا كثافة رمزية لرفع المأساة، واستبدالها بالمقاومة السردية، ولعل ما يصادق على هذا التأويل هو حوار الأستاذ خالد للصغير، بقوله:

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 104.

((سمعت أنك الأشطر في الصيد. قال الأستاذ خالد.

هز الصغير رأسه موافقا، لكنه لم يكن مطمئنا حتى الآن.

-أصطادها وأطيرها. قال بوجل.

-لماذا تصطادها مادمت تطيرها؟

-لأعلمها الحذر.

-تعلمها ماذا؟! !

-الحذر، حتى تصبح (حذرية<sup>1</sup>))، وهذا ما يدخل النص بتوجه مقولاته

واستراتيجياته السردية ضمن التحريض على المقاومة؛ لأنّ الفلسطيني اقتلع، ونفي في

مخيم كبتت فيه حريته بمنعه من أن يشارك مع الفدائيين، إلى أن أصبح ذنبا يعاقب عليه

القانون، وهذا ما حدث في مخيم "الوحدات" في الأردن، فتفاصيل الإلغاء امتثلت سرديا

باختفاء أب "الصغير"، وغيره من الفدائيين حين أعلنوا عن صوتهم، يقول السارد عن

اختفاء الأستاذ خالد: ((واختفى الأستاذ خالد.

كما اختفى أبوه.

وأحبه الطلاب أكثر من المعلمين.

هل يكون الحائط بلغ عنه، هو الذي وقف وسط الصف ورمى العصا بعيدا؟ هو

الذي قال: افهموا جيدا.. للإنسان بيت واحد هو بيته، ووطن واحد هو وطنه، ورسم

خارطة فلسطين كما لم يرسمها معلمون من قبل على السبورة، وحين لم تنتسح السبورة

واصل الرسم على الحائط وبالطباشير الحمراء. وقال: انظروا كم هي طويلة،

وجميلة...<sup>2</sup>))، وهي من أخطر القضايا التي تعرض لها المشتت، خارج فلسطين، فالإلغاء

والتهميش أديا به إلى أن يصبح شخصا للامرئي.

<sup>1</sup>إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 188.

<sup>2</sup>المصدر نفسه، ص: 233.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

بهذا التهميش فنص "طيور الحذر" ووفاء منه للهوية الفلسطينية قد اشرع عن إمكانية سردية تحول معها المعيش اليومي للفلسطيني بعد الاقتلاع وفي الشتات، إلى إشكالية نصية يتسع معها التأويل باتساع زمن المأساة، وامتدادها التاريخي نحو ضبابية مستقبل الفلسطيني فالفلسطيني أضحى عنوانا محايدا عن كل ما يحدّد هويته؛ لأن في تحديدها ما يهدّد الآخرين/العرب، وهو موقف العرب المتخاذل من وجود الفلسطيني في ممرهم، لذلك يقول السارد عن وضعية أسماء المدارس في المخيم: ((لكل مدرسة اسمها... الاسم الذي انتقته وكالة الغوث، الاسم المحايد الذي لا يشير لماض أو مستقبل، الاسم البارد كمعادلة رياضية: مدرسة مخيم عمّان الابتدائية الأولى، مدرسة مخيم عمّان الابتدائية الثانية، إناث مخيم عمان الإعدادية الثانية، الأولى، الثالثة، الرابعة.))<sup>1</sup>، وهذا نوع من الإلغاء والتغيب اللذين يهددان الهوية الفلسطينية للمشتتين.

وعلى هذا التغيب، والإلغاء وفي أجواء أكثر قمعية مما يواجه الفلسطيني من عناء، وقهر، وإلغاء، وتهميش... في الشتات، حملوه بأن يعلن كلمته ولو بصوت مقهور، لكنه لا ينضب أنيه وأمه، ولعل ما أحال عليه قول "مريم" خالة "الصغير"، من تحريض على رفع صوته، وبحذر ما يؤكد أن صوت الفلسطينيين غير مسموع، وغير مرغوب فيه أيضا، تقول: ((.. الشيء الذي علينا أن نفعله هو أن نعلي صوتنا، لا أن نخفضه، الحيطان الصماء تسمع صمتنا، ولا تسمع كلامنا))<sup>2</sup>، من أجل ذلك فإن هذه التجربة الاستبدادية التي عاشها، ويعيشها الشعب الفلسطيني تلغي، وتُقهّر، مما عمق أكثر تعلقه بالحرية، وقويّت إرادته في المقاومة والتحرّر، فكان نتاج ذلك فلسفة سردية تتحرى الحرية في الوجود المنكسر، والواقع المظلم حتى ترمّم وتعيد ذاكرة الأرض، والإنسان إلى واجهة التاريخ، لتصحيح مسار الغياب بحضور يدلي بشهادات هي من صميم التجربة الفلسطينية.

<sup>1</sup>إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 196.

<sup>2</sup>المصدر نفسه، ص: 170.

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

وعليه، فإن مفهوم الحرية الذي يسعى إليه النص، ليس مفهوما مطلقا لا وجود له إلا في ذهن، وإنما هو مفهوم سعى إلى بنائه وتركيبه، من تثير تجربة حياة استوطنت الممكن والمحتمل من أجل الاعتراف بحق الفلسطينيين، والحق في الحياة، والحق في الاعتراف، والحق في الحرية، وحقهم على الإنسانية أن تتصت، وبحذر للصوت الفلسطيني المقهور، وأن تصح خطأها التاريخي، حين استبدلت دور الضحية/فلسطين بدور الجلاد/الصهيوني، وخذلت الفلسطينيين بقهر شديد.

من أجل ذلك كانت الإمكانيات السردية لنص "طيور الحذر" تسير نحو الرؤية السردية المنبعث من عمق الأزمة الفلسطينية في الشتات، فـ"الصغير" الذي أحب الطيور والطيّران وانشغل بحذرهم، كان مثالا سرديا لروح الفلسطينية التي تعرف معنى الحرية، وتتوق إلى التحرر من قيود صنعها الآخر الصهيوني بقوته الاستعمارية، حين استغل الأرض والإنسان والتاريخ حتى يبقى الفلسطيني نسيا منسيا، لذا فالحرية مقوم من مقومات الهوية الفلسطينية، وأساس من أساسياتها، والفلسطيني شديد الحساسية من القفص، أو أي قيّد ممكن أن يحدّ من حريته، وتلك تجربة "الصغير" حين انهار لما كشف أن له قفصا صدريا، يقول السارد: ((...يركض كما لو أنه يريد إخراج عصفور من الفخ، لكنه تعثر، فسقطوا كلهم، صف كامل من التلاميذ انهار عليه.

- ربما انكسر واحد من أضلاع قفصه الصدري. قال المدير، وهو يتفقد صدره وآثار نزيه داخلي على جلده.

سأل الصغير: أي قفص؟

- قفصك الصدري، قال المدير.

- هل لدي قفص في الداخل؟! هنا بكى الصغير. - ألهذا لا أستطيع أن أطيّر؟ (..)

الصغير يبكي، ينفلت، يتحسس صدره برعب، والمدير يطمئنه: لا عليك سيصلح الطبيب كل شيء ويعيده إلى ما كان. والصغير يصرخ: أريد أن يبقى القفص مكسورا، لا أريد أن

## الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

أظل هنا، ويشير إلى صدره: أريد أن أخرج !!<sup>1</sup>، وهي تجربة سرديّة تؤول بمدى عمق حاجة الفلسطيني للحريّة، ولخصت أكثر ثقل مأزقه في هويّته المجرّوحة، بكثافة رمزيّة تروي تمرد الفلسطيني على كل قيّد، ورفضه لواقع مظلم استبدادي فرض عليه.

إن نص "طيور الحذر" هو صرخة فلسطينيّة امتثلت عبر تشكيلة سرديّة أعادت صياغة الواقع الفلسطيني في الشتات، صياغة لا تفسر دلالاتها إلا بفهم يعايش مأساة المشتتين من تشرّد، وضياع، وضبابيّة مستقبل بيد من هم أقوى، وفي صرخة سؤال أحد الصغار، بقوله: ((..إلى متى سنبقى هنا، في بالمخيّم؟!))<sup>2</sup>، ما يدل على أن حريّة الفلسطينيين معلقة، ولا أحد يجرؤ على الجواب...، لكن الاستثناء الذي يتيح النص المتخيّل "المهاة الفلسطينية" هو الانفتاح على الممكن؛ أي إمكانيّة التفكير في الحريّة، والمحتمل في إمكانيّة أكثر حرية، وهي أن تتحقق، من أجل ذلك يواصل البحث في طرح أسئلته وهي من صميم الهوية الفلسطينية المجرّوحة من أجل الفهم؛ فهم التاريخ، أي مرجعيّة الوجود الفلسطيني، وفهم لماذا الفلسطيني بقي معلقاً في الشتات؟

<sup>1</sup>إبراهيم نصر الله، طيور الحذر، ص: 154.

<sup>2</sup>المصدر نفسه، ص: 160.

## الفصل الثالث

الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

تمهيد:

1/ المبحث الأول: الهوية الفلسطينية العابرة لأزمة الشتات.

2/ المبحث الثاني: فلسطينيو الداخل، وجود غير سويّ.

3/ المبحث الثالث: الآخر النقيض، وظلال الذاكرة الفلسطينية.

4/ المبحث الرابع: حلم العودة إلى فلسطين.

تمهيد:

الشتات، من أخطر المقولات، وأفظعها على الشعب الفلسطيني، والتي لفظها وجود الاستعمار الصهيوني على أرض فلسطين، وهو وجود طارئ، ليس له أي علاقة بالواقع الإنساني الطبيعي، لما شرّد، وخرّب، واغتيل، ودمّر، وألغى كل ما هو فلسطيني...، على أرض فلسطين، وبالتالي فالشتات من أكثر الوجود تعسفاً، وقمعا في حق الشعب الفلسطيني، لأنّ الشتات هو ((..ذلك التاريخ المتحقق والكئيب الذي بدأ سنة 1948 وبذلك أصبح غير منسي...))<sup>1</sup>، وامتدّ إلى الراهن بثقل تاريخي، وامتداد جغرافي رهيب، ممّا يحسب دون شك أنه شكّل عنصراً أساسياً، ومكوّناً للهوية الفلسطينية.

ولما كان الأمر كذلك، فإنّ نص "المهارة الفلسطينية"، وهو الذي نذر نفسه للقضية الفلسطينية دفاعاً عن الهوية الفلسطينية، وحماية للذاكرة، وتصحيحاً لتاريخ المضطهدين، قد سكن منطقة الشتات بالتفاصيل الموجهة، والقلق الوجودي، ووصفه للرعب البشري الصهيوني الذي عبث بالشعب الفلسطيني تاريخياً وجغرافياً، ((فبعد النكبة تبعثر الفلسطينيون، حيث أقاموا في بلاد العرب كالعراق، ولبنان، والخليج، والأردن، وحتى في داخل فلسطين، أو ما يطلق عليه "دولة إسرائيل" غير أن ثمة مقاومة لذلك النفي...))<sup>2</sup>، مقاومة تمتدّ معها أسئلة الهوية سردياً، عن الوجود المضطرب الذي يلحق به التّأويل كروية فكرية تلتقط المعيش اليومي للفلسطيني في الشتات، ويبني دلالات الشتات من وحي حكاية المسح الوجودي، في سبيل فهم مأساة الإنسان الفلسطيني في منفاه التعسفي.

وتحت لواء البحث عن الهوية الفلسطينية، فإنّ البحث يستأنف في هذا الفصل، قراءة العالم الذي انفتح عليه نص المهارة بتشكيلات سردية تعمق الفهم لدى القارئ بفاجعة الشتات، وترتهن براهن فلسطيني أليم، لتبرهن للعالم مدى كارثية المأساة الفلسطينية؛ لأنّ

<sup>1</sup> رامي أبو شهاب، في الممر الأخير، سردية الشتات الفلسطيني، منظور ما بعد كولونيالي، ص: 146.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص: 147.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

الكتابة عن الشتات الفلسطيني تتخذ أهميتها أكثر من ارتباطها العميق بالهوية الفلسطينية المهتدة، والوجود<sup>1</sup> المبعثر، وغير السوي، من أجل ذلك توزع فصل الشتات، إلى مباحث أربعة:

المبحث الأول: الهوية الفلسطينية العابرة لأزمة الشتات.

المبحث الثاني: فلسطيني الداخل، وجود غير سوي.

المبحث الثالث: الآخر النقيض، وظلال الذاكرة الفلسطينية.

المبحث الرابع: حلم العودة إلى فلسطين.

<sup>1</sup> ينظر: رامي أبو شهاب، في الممر الأخير، سردية الشتات الفلسطيني، منظور ما بعد كولونيالي، ص: 23.

### المبحث الأول:

#### الهوية الفلسطينية، العابرة لأزمة الشتات.

يتمظهر الشتات الفلسطيني من خلال بشاعة الاستعمار الصهيوني المدعم من قوى استعمارية معادية لكل ما هو إنساني، ومناقضة لكل ما هو عدالة إنسانية، وحق شرعي، وتحت طائل سردية مضادة للوجود المقهور، ترفع سردية "الملهاة الفلسطينية" لواء التحدي بمحاصرة الزمن المبعثر، والمتشطي من الفعل الصهيوني، لتمتد إلى رواية الاقتلاع، والتهجير القسري للشعب الفلسطيني، وملازمة الفعل السردية للمشتت عبر فاجعة الرحيل، يجعل من سردية الشتات في نص "الملهاة الفلسطينية" سردية شفافة تحتوي العناء الفلسطيني في أصدق صورته وترفع عنه كل مجادلة قد تحيد به إلى مفاهيم صهيونية، تغيب، وتزيّف حقيقة الوجود الفلسطيني في ممرّ الآخرين.

من أجل فهم مسيرة الشتات الفلسطيني في نص الملهاة، فإنّ التّأويل يبدو حاجة إنسانية يفرضها تمثيل المتخيّل للشتات، ويمارسها القارئ للعيش في كنف دلالات التشرّد، والنتية والضياع، في غياب الوطن، ولأنّ القراءة التّأويلية، هي القراءة الممكنة للنص التي تعالين الوجود المضطرب في الشتات، وتكشف وتبيّن احراجات الهوية الفلسطينية، وما تعانيه من تضييق، وانسداد تاريخي، وجغرافي خارج فلسطين.

أو هي تلك القراءة التي تعبّر عن هويّتها عبر فعل التّأويل، حين ينطلق من البنية الافتراضية للنص، ليعود إليه في فهم العالم المحتوي فيه، والمسكون بفعل شرخ الواقع غير المأهول بالإنسانية، وهو الغاية التي تحرك التّأويل، بغية إيجاد مدخل قرائي مشروع يمكنه من التواصل مع النص، في اختلافه، وفي طرحه الإشكالي، لذلك فمسار التّأويل هو الانفتاح على النص في مستواه الجدليّ، الذي يجعله مناهضاً لكل معرفة مسبقة عن قراءة، قد تدخله في نمطية الجاهز، والمستهلك.

وعليه فـ ((التأويل هو فاعلية الفهم التي تحقق المعنى، فالمعنى هنا يصبح ممارسة، وفعالية أيضا، وأن التأويل هو شكل الفهم))<sup>1</sup>، الذي يتيح للقارئ فرصة للتكفل ببناء دلالات الشتات الفلسطيني من وحي النص، ومن خلال العيش في كنف عوالمه الممكنة، وتركيب دلالات الشتات أثناء المواجهة النصية، التي تُحدث فعالية تؤثر في توجيه القارئ بفعل استراتيجيات النص حين تتحرك نحو تحقيق دلالة الشتات فهما، وتأويلا.

سيرًا على مسار فهم العالم المقترح من النص، وتأويل سرديّة الشتات فيه، فإن نموذج الارتحال، والتهجير، والاقتلاع... من نصوص "المهاة الفلسطينية" حضر، وبقوة ذاكرة النص وتقل تاريخية الشتات الفلسطيني، وعمق صمود الشعب الفلسطيني على هويته أمام فقدان الأرض، ومحو الذاكرة، وتغييب التاريخ، وتزييف الحقائق، فنص "المهاة الفلسطينية" قد استوطن الذاكرة لفهم إشكالات الراهن العربي الفلسطيني، باحتواء واقع الشتات سردا مضادا يفك به مأزق وجوده على أرض الترحال، واللااستقرار.

تحقيقا لهذه العلاقة التأويلية التواصلية بين الماضي المتجذر في ذاكرة النكبة، والحاضر الفلسطيني الموجوع في هويته، يتوجه القارئ إلى البنية السردية بحثا، وتنقيا عن تشكيلات خطاب الشتات الفلسطيني، في مركز الشتات والمخيمات، والملاجئ عبر نص من نصوص المهاة، الذي شكل انعطافة كبرى في تمثيل الشتات لاحتوائه على تفاصيل هي من وحي تجربة الذات المبدعة، والشعب الفلسطيني، وهو نص "طفولتي حتى الآن"<sup>2</sup>؛ فالنص سيرة ذاتية، لكن في عمقها مسيرة الشعب الفلسطيني في منفاه.

<sup>1</sup> أسامة غانم، جدل التأويلية، الكتابة/النص، -القراءة/الفهم، ص: 13.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، المهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرون، الشارقة، الإمارات، ط1،

إنّ الغاية التي تجري إليها المقاربة التّأويليّة، هي: فهم خطاب الشتات في خضم محكي الذات، وبوصفه فعلا سرديا في المتخيّل، استنادا إلى البنية السردية للنّص، والتواصل بالمتخيّل ضمن إطاره المرجعي الثقافي، والواقعي، باعتبار الشتات الفلسطيني إستراتيجية خاصة للتمثيل السردى، لي طرح النّص سؤالا مهما مؤداه: كيف تروي لنا رواية "طفولتي حتّى الآن"، الشتات الفلسطيني؟ وكيف يعيش الفلسطيني منفاه؟، هل استطاع المتخيّل أن يقدم لنا صورة عن التيه الفلسطيني؟، ما هو الدور الذي يؤديه السرد إذا كان هو الحياة ذاتها؟، وهل كان الشتات وطنا بديلا عن فلسطين، حين بحث عن الاستقرار في منفاه؟

ينتهي نص "طفولتي حتّى الآن"، بصوغ أزمنة وفق تشكيلة سردية إبداعية يتشابه فيها الحاضر بالماضي، وتلتحم فيها الذاكرة مع الراهن، وتستحضر فيها أحلام الطفولة مع واقع أشدّ تعسفا وظلما، واقع الشتات، وكل ذلك من أجل صوغ ذاكرة المشتتين الموجوعين بفقد وطنهم، والمقيمين على أرض لا استقرار فيها، فالتراكمات التاريخية على هذا النحو قد تموضعت واستقرت داخل السرد، كفاعل مركزي يحرك أحداث النّص نحو الفهم الذي يُطبق معه وينسى معه القارئ كل فعل رحيم؛ ف الجريمة الشتات في حق الفلسطيني هي مجرد تلاعبات ساهم في إمدادها العربي مع الأجنبي.

فالفاعل السردى المقيم في تشعبات تاريخ الشتات، وجغرافيته المصابة بالوهن (الملاجئ والمخيمات)، لهو البرهان السردى على أن الشتات الفلسطيني هو فعل لا أخلاقي، معه تظهر ضعف وهشاشة العرب في مساندة الفلسطينيين، حتى أضحي فيه الفلسطيني يقاوم الوجود المنكسر وحده بعد هزيمة 1967، لذلك ظل الفلسطيني محاصرا بين فقد الوطن، وتخاذل العالم في الإنصاف له، وإنصافه، ليتحول من ضحية إلى جلد نصره للاستعمار الصهيوني الاستيطاني، الذي تكفل باقتلعه من أرضه، وتشويه حقيقة خروجه.

إنّ التحديّ الذي يواجهه نص "طفولتي حتّى الآن"، أمام حجم، وخطورة الفاجعة، هو نوع من المقاومة السردية تحت على الحضور التاريخي والواقعي في المتخيّل، استناداً إلى الخيال والحقيقة، يقول المبدع "نصر الله إبراهيم" في مستهل النص: ((عن الخيال الذي عشته، وعن الحقيقة التي عاشتني))<sup>1</sup>، وقد تظهر هذا التحديّ أكثر في قدرة النصّ السرديّ على تمثيل حقيقة ما حدث، ويحدث، حقيقة مصائر المشتتين الفلسطينيين سردياً بعد اقتلاعهم من أرضهم، تروي الأم على لسان السارد، حال المشتتين من الهون الذي وصلوا إليه بفعل التهجير، بقولها: (( "الحزن نصف الموت"، قالت أمي، "وإذا طال يصبح الموت كله. لم تكن نحب أن نعيش أمواتاً، لسنا نحن فقط، بل كل الناس، كل أولئك الذين هجّروا، الذين طردوا من أرضهم وبيوتهم، ولذا، يوماً بعد يوم، بدا الشوق للفرح يتسرب إلى أنفسنا، كنا جوعى ليوم لا نكون فيه موتى، أو نصف موتى"))<sup>2</sup>، فصوغ إشكال وجود الفلسطينيين في الشتات ضمن نص إبداعي تخيلي استثنائي، يبحث فيه عن التاريخ والواقع لصوغ ذاكرة هي جزء من الهوية الفلسطينية المجرّحة، يجعل القارئ في حال من الارتباك والرغبة، والتشويش من تزام الأحداث، وكثرة الشخصيات، وتشابك أزمنة الشتات بقصصهما لمنتقاة من مسيرة التهجير والاقْتلاع من الأرض، والوطن، لكن المكان واحد، هو: الشتات، والهوية واحدة، هي: مشتتون فلسطينيون في الملاجئ.

بهذا ينتقل نص "طفولتي حتّى الآن"، في تشكيلته السردية من بساطة اللغة التي تعتمد الوضوح في النقاط الأشياء من الذاكرة، وتفصيل حياة المشتتين من واقع الجوع، والتشرد، نحو طرح إشكالي إنساني كثيف، ومعقد لواقع المشتتين الفلسطينيين، وتاريخ خروجهم من فلسطين، فالمازق التاريخي الذي حاصر الفلسطينيين، وضيق عليهم سبل الحياة ضمن إلزامية التهجير القسري من الوطن، إلى فرض فوضى من العيش المشرد في الشتات، المحدد في المخيمات، والملاجئ، تروي الأم ساردة حكاية العيش في الخيام

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، طفولتي حتّى الآن، ص: 4.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 136.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

على أرض التيه والضياع، بعد روايتها عن تهجير أهلها الفلسطينيين بعد النكبة\*، قائلة: ((...في اليوم الثالث تغير الطقس؛ بدأت سرعة الرياح تزداد، تفقدنا حبال الخيمة وأوتادها. قبل العصر اشتدت الرياح، صوتها مثل صوت قطار يحمل موتى، لا أعرف كيف خطر لي ذلك، كانت الرياح تتوح كأنها بكاء الأرض علينا. لكن الرياح اشتدت، وفجأة راحت الخيمة تقلت من أيدينا. كل الخيام أفلتت من أيدي الناس القابضة على حبالها. طارت الخيام، كل الخيام طارت في الهواء، مثل مظلات الطيارين كانت، ..وانتظرنا في العراء...))<sup>1</sup>، للخيام حضور فعلي في واقع المشتت، حضور يستظهر معه كل ذلك الضياع الذي يرهق ويهدد وجودهم اليومي، وهويتهم، وكل ذلك التاريخ الذي أوقعه على حافة الهامش والطارئ، إذ التصقت مفردة الخيام بالفلسطينيين، وأضحت لا تعني سوى الارتحال الدائم، وفقد الوطن.. ولا بديل معها قد يغنيهم عن البيت والوطن، وبهذا العناء فالخيام لا تسقط من ذاكرة فلسطينيي الشتات، أو واقعهم ((... فثمة دائما تساؤل لدى الفلسطينيين عما ارتكبه من ذنب كي يبقى جزء من هوية الخيام...))<sup>2</sup>، التي تُعيّنه في فضاء محدّد من الإقصاء حتى تتمحي معه ذاكرته، والتهميش الذي يفقد معه قيمته الإنسانية.

لهذا يتحرك النص وفق حركة قلقلة بين الشخصية، والمكان من كل ما مضى، وما يأتي على أرض الشتات، فلم يكن الخيال هنا سوى تعلقا بالذاكرة ألما للهجرة، وامتدادا نحو مستقبل مظلم يعاد معه التاريخ في تراكمات سردية تروي معها تفاصيل المأساة من النكبة، إلى التهجير القسري، إلى الشتات، إلى... حتى أضحت عناوين تاريخية للهوية الفلسطينية، ولعل هذا ما وصلت إليه "الأم"، في آخر ما تروييه، بقولها:

\* تحفل رواية التهجير والصدمة، مساحة ثلاث صفحات: من 66 إلى ص 68، لذا تعذر إدراجها.

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ص: 67.

<sup>2</sup>رامي أبو شهاب، حتمية الفوضى... لكن لا شيء سوى الخيام، موقع القدس العربي،

ت ن: 26، فبراير، 2023، تاريخ الاطلاع، 25، 3، 2023، سا: 13:30. <https://www.alquds.co.uk>

((...رعب، عشنا الرعب، أكثر من الرعب، إلى أن نقلونا إلى عمان.

ماذا أقول لكم، أيام قاسية، الله لا يعيدها".

وصممت قليلا قبل أن تضيف: "ولكنه أعادها".<sup>1</sup>، إن للماضي حضورا قارا لا يغيب في ذاكرة المشتت، يتعلق به لفرط الظلم الذي تعرض، ويتعرض له بعيدا عن وطنه، والتماسا لحقيقة وجوده المنكسر والمضطرب، وبحثا عن فصول حكاية فلسطين التي لم تشهد فصلها الأخير بعد؛ فصراع الفلسطيني مع الصهاينة لازال قائما حتى بعدما أقصي الفلسطيني من وطنه، هذا ما يفسح المجال للسرد بأن يبرهن عن تاريخ النكبة، أو الصدمة والفاجعة...، الذي لم يسقط من ذاكرة الفلسطيني، ولن يمحي من وعيه، من أجل ذلك أخذ يشتد في مراهنته على الخوض في فهم إشكالية الشتات سرديا، وتخيلًا عن واقع لم يعد له؛ حين أخذ السرد يفتح على ماضٍ تبعثر فيه الفلسطيني في اللامكان، إلى حاضر المخيمات والملاجئ، والعيش المشرد الذي حول الفلسطينيين إلى غرباء، ومنسيين، وتحول معه سؤال الهوية، من نحن؟، إلى حاجة إنسانية فرضها واقع فلسطيني مظلّم.

إن المعرفة التي يتيحها سؤال الهوية على هذا النحو، وفي موقع المنفى القسري، والتهجير المبعثر للشعب الفلسطيني، لهو الإشكال الذي يراهن عليه نص "طفولتي حتى الآن" سرديا في محاولة منه لتمثيل تفاصيل المأساة، مأساة المبعدين عن أرضهم..، ومحاولة القبض على لحظات التفجع، والتقاط معاناة الشعب الفلسطيني في منفاه القسري، بتربق لحظات ترحالهم، ومواجهة الموت، وهم في طريق حياة الإكراه، وكأن السرد هنا يواكب الحدث الحقيقي، ويؤرخ له من منظور المحكي الذاتي، الذي استوطن السرد بحثا عن هوية سردية تعيد الاعتبار للمهمش، ولتجذره التاريخي، والجغرافي؛ ((وسواء اتخذ هذا الاستبطان عبر السرد طابعا ذاتيا خالصا، يللم لحظات التجربة المعيشة في هوية سردية متخيلة كما نجد في السيرة الذاتية والتخييل الذاتي حيث يعيد المؤلف بناء هذه

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ص: 68.

الهوية من خلال إنطاق أماكن الذاكرة، وعلاماتها المحفورة في وعي الذات، أو تبار حول التجربة الذاتية في عوالم الآخر وأبعاده الدنيوية، فإن أهميته تتحدّد ها هنا من خلال إعادة الاعتبار للتاريخ واليومي المغيب بشكل يتوغل إلى أعماق التفاصيل، وأدقها<sup>1</sup>، وهي تركز إلى مجاهيل حياة المشتتين الفلسطينيين سرديا.

يتهيكل نص "طفولتي حتى الآن" بمسارات سردية إبداعية، توحى بثقل التاريخ الفلسطيني على الذات المبدعة، والتحامها بالراهن الفلسطيني، كتابة وإبداعا، فالنص يتأسس ((...بشكل جوهري على مركزية الوعي بالافتلاع الذي ينشأ حينما يشرع الإنسان بتكوين هويته، وإدراكها في السياقات التي يحضر فيها، أو حينما يعي بأنه مختلف، لا ينتمي إلى البيئة، أو المكان))<sup>2</sup>، غير الذي لا يمثل سوى حقيقة الاستعمار في عبثية مستمرة في الزمن، وأكثر ما تجلى ذلك، حين تدبر النص علاقة الماضي بالحاضر، من خلال تشعب مسارات سردية توصل القارئ إلى العيش في عمق تفاصيل حياة المشتتون بعد إقلاعهم، وهي تفرعات أقل ما يقال عنها أنها متاهات سردية، تاريخية ترهب القارئ أكثر مما تؤنسه، بسبب تشظي سبل دلالاتها التي لا تتوقف، ولا تهدأ، من فرط تشتت أزمنتها بين ماضي الجدّ الذي عاش الافتلاع والنكبة، وماضي الأم، حين تحولوا إلى منسيين بعد التهجير، وماضي الحفيد في مخيم الوحدات، ووكالة الغوث الدولية المدعمة... وهذا ((التعاطي (مع) الأجيال التي اختبرت الخروج، فبعض الأجيال وجدت وعيها حاضرا في الشتات، فكانت بحاجة لإدراك الظروف التي أفضت بها إلى هذا الاختلاف، في حين أن هناك من اختبر الشتات في لحظة التكوين، أو الولادة))<sup>3</sup>، في حاضر سرديّ قد يحسبه القارئ من أول وهلة أن أحداثه في النص أنت متعاقبة لتاريخ وقوعها، لكن النص استوعبها بمنطق يخضع للإبداع، الذي لا يفصح بقدر ما يضمّر عن الوجود المدعم

<sup>1</sup> إدريس الخضراوي، سرديات الأمة، تخييل التاريخ وثقافة الذاكرة، في الرواية المغربية المعاصرة، ص: 283

<sup>2</sup> رامي أبو شهاب، في الممر الأخير، سردية الشتات الفلسطيني (منظور ما بعد كولونيالي)، ص: 167.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص: ن.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

لرؤية نصية ترافق القارئ في انجاز دلالات الشتات، وتعمل على توجيهه وفق استراتيجيات الوجود المختلف.

يبني النص من تلك البنية النصية اللغوية الساكنة والراكدة، والجامدة التي تنتظر قارئها لتسكن إليه قراءة وتأويلا، وحدها القراءة من تنقله من الوجود بالقوة، إلى الوجود بالفعل؛ لأنّ البنية النصية تحيل القارئ بفعل المشاركة، على عالم خارجي انطلقا من المعطي الداخلي للبنية السردية، التي تفتح على الخارج بفعل استراتيجيات نصية يقترحها النص، ويستوعبها القارئ، فيتعدّد النصّ بها نصوصا، وتتعدّد به القراءة فهما، وهذا الانفتاح على العالم الخارجي هو ما يجعل من النصّ الإبداعي منجزا ثقافيا بامتياز.

وعليه فنص "طفولتي حتى الآن"، عبارة عن رسائل الكترونية عبر "الواتساب/What Sapp"، بين شخصيتين محوريتين "نور، وإبراهيم"، هي تبعث له رسالة، وهو يبادلها ويبعث لها رواية عن طفولة أولى، وثانية، وثالثة، ورابعة\*.... ويحدث هذا في زمن كورونا، وإن كانت كل شخصية ذكرت في هذا النصّ والقصص المروية، كانت محورية بالنسبة لقصتها التي تروى حسب حاجة الإبداع، وهو محور حيوية النصّ، تتخلله روايات عن الطفولة، ولم يكن همّه في ذلك هو لملمة ما في جعبة ذاكرة المشتتين فحسب، وإنما مسارات السرد اتخذت تشعباتها تلتحم فيها كل أزمنة تاريخ فلسطين، من النكبة إلى الاقتلاع والتهجير، إلى المقاومة، إلى الشتات، والمخيّم... في تشكيلة إبداعية تدعو القارئ إلى أن يستوطن النص وفق استراتيجيات تتيح للزمن الماضي أن يكون في مواجهة التأويل، من أجل فهم موقع الذات والجماعة، ضمن نسق المنفى، والإقصاء، والتهميش.

\* الرسالة الأولى، ص: 95، الرسالة الثانية والثالثة: ص: 241، الرسالة الرابعة: ص: 299، الرسالة الخامسة: ص: 375. الرسالة السادسة: ص: 487. رسالة ليست أخيرة، بالتأكيد، : ص: 504.

من أجل ذلك يبدو أن القول السرديّ في السيرة الذاتية "طفولتي حتّى الآن"، قد اتخذ نسقا استرجاعيا في تمثيل أفق الهوية الفلسطينية، فلا يحيد عن هدفه، وغايته في استدراج، فضاء الطفولة، الذي تأسس ردّا على رسائل صديقة المبدع "نور"، وخوفا على هويّته الفلسطينية، من الآخر النقيض الذي يتربص بضمحلها وطمسها، ويتربص به في كل حين، وما الاستهلال الموضوع في بداية النص، إلّا إعلان عن ذلك الحذر الذي تكبده المبدع، في سبيل الحفاظ على هويّته الفلسطينية من همجية الآخر المتربص به، وقد استعاد ذلك بديوانه عواصف القلب، بقوله:

((لم أترك طفولتي، يوما، تبتعد كثيرا

إنّ الوحوش تتجولّ في الجوار

لذا...

لم أجد بدّا من الاحتفاظ بها...حتى الآن

من ديوان. عواصف القلب. (1989))<sup>1</sup>، إن إحساس الذات المبدعة بالخطر المحاط بها، حملها على الكتابة في صياغة ذاكرة الطفولة التي تبدو حاضر حضورا سرديا قويا، وواعيا -وبعمق- بإشكالية الوجود على أرض الشتات التي عاشها الجدّ، والأم، والأبناء..، حين اقتلع الشعب الفلسطيني، وطرد من أرضه، لذلك اتصل النص بالافتلاع عن طريق الذاكرة، والعيش في المخيم، ((وهكذا تعنى الرواية بنسق المتصل بالإخبار، أو بالماضي، والتوصيف، فنّمة مركز سردي (..) غير أنه مشتت على مستوى الإحساس، بين زمنين، أو أزمنة))<sup>2</sup>، هذا ما ارتسم في البنية الافتراضية لنص "طفولتي حتّى الآن"، الذي أوحى بالفعل السردي إلى القارئ بأن يستثمر معها إمكانات التأويل، لفك أزمنة

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، طفولتي حتّى الآن ص: 3.

<sup>2</sup> رامي أبو شهاب، في الممر الأخير، سردية الشتات الفلسطيني، منظور مابعد كولونيالي، ص: 168، 169.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

الحكاية، وتشعباتها التاريخية، فيستوعب سير الأزمنة السردية من صميم حاضر المبدع، وذاكرة المشتت.

من منطلق أفق النص العابر لأزمنة الشتات فإنّ السيرة الذاتية لإبراهيم نصر الله، في نص "طفولتي حتى الآن"، ارتسمت معها كل أطر الذاكرة؛ من ماضي بعيد، إلى ماضي قريب، إلى حاضر تم فيه ((إعادة تعيين الموقع الذي يتحدث منه النص ولمن وباسم من يتحدث وكل ذلك يجري في سياق (استعماري) ليس كإطار تاريخي فحسب وإنما كذلك بما يعنيه من مقاومات ونضال ضد الهيمنة وحوار بين الثقافات وتحديد الهوية))<sup>1</sup>، ضمن أكثر الأزمنة حضوراً؛ أي حضورها في الكتابة السردية التي تعلق بذاكرة ترفض أن تتهاوى، أو تسقط في النسيان، أو تتوارى عن رؤية المشتتين وهي رؤية لا تحيد عن السؤال المحوري، الذي تحرك معه الإبداع السرد في تشكيل "الملهاة الفلسطينية" بنصوصها المتفرعة عن الوجود العالق للفلسطيني، وهو ما معنى أن تكون فلسطينياً، بعيداً عن فلسطين؟

ذاك هو سؤال الهوية المؤرق للذات المبدعة والجماعة الفلسطينية معاً، حين سار النص مكافئاً بنقل سؤال الذاكرة عن الوطن المفقود، والوجود المضطرب، فأثار النص الجدل على نحو من مشاركة القارئ في أزمنة الشتات المتعاقبة، أو الزمن الفلسطيني العالق في ممر الآخرين بعد ما شرد واقتلع... من وطنه، وفي إعادة ذلك، وتكراره ما يستثمر البحث من عمق دلالات التفجع، في فقد الوطن والعيش في كنف اللااستقرار، يقول المبدع ساردا تعلق أمه بتاريخ التهجير: ((...أشهر الصيف كانت رحمة؛ باستطاعة كل واحد من النازحين أن ينام في أي مكان، في الخارج أو في الداخل. أما أمي فعادت إلى حكاياتها القديمة الحزينة، ولم يكن هناك ما هو أكثر حزناً من حكايات التهجير، عام

<sup>1</sup> إدريس الخضراوي، سرديات الأمة، تخييل التاريخ وثقافة الذاكرة، في الرواية المغربية المعاصرة، ص: 21.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

النكبة، قبل تسعة عشر عاماً...<sup>1</sup>)، فجيل الأجداد، والآباء، ومن عايش الفاجعة، قد تعلق بالماضي، ليس من أجل إعادة سرد فاجعة النكبة، والتهجير فحسب، وإنما من أجل تثوير ذاكرة الشعب الفلسطيني، وجعلها هي الماضي الحاضر، وهي الجرح الدامي في روح أي فلسطيني، وهي الهوية الفلسطينية التي لا تتوارى عن ذهنه، و بسرد حكاية الخروج، يدرك الأولاد، والأحفاد، أن لهم وطناً اسمه "فلسطين"، وما الشتات إلا مكان للطارئ، ومكان يشهد على عبثية جنس بشري اسمه الاستعمار الصهيوني، وفي عودة الماضي، وعدم استقرار دلالاته، لما يحمل من تلك العبثية المستمرة في الزمن الراهن في الصراع العربي الصهيوني.

وخلف كل حكاية من حكايات "طفولتي حتى الآن" منظومة ثقيلة من الإحالات على حيوات المخيمات، والملاجئ، وعلى مسار تاريخي امتد من النكبة إلى الاقتلاع، إلى الشتات إلى الراهن، يعاني فيه الشعب الفلسطيني من الجوع، والخوف، والتشرد، والانتهاك، والتهميش...، وبطريقة سلسة للأحداث، يصل النص إلى حاضر الكتابة السردية للمبدع، يقول فيه: ((...في المؤتمر الذي عقدته جامعة البتراء حول القدس في الرواية العربية، قدّمت شهادة حافلة بأحزان تلك الذكريات (...))

\* من الذي نعرفهم أكثرَ من الآخرين؟

\_ نعرف الشهداء.

\* ما الذي نعرفه عن المنفى؟

\_ نعرف الوطن.

\* ما الذي نعرفه عن الخيمة؟

\_ نعرف بيوتنا التي وراءنا.

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ص: 66.

\* ما الذي نعرف عن حريتنا؟

\_ نعرف أسرانا.

\* ما الذي نعرفه عن كهولتنا؟

نعرف طفولتنا. <sup>1</sup>، وحسبه من هذا الواقع المأساوي أنه فلسطيني في الشتات، ضريبة يدفعها كل من يحمل هوية فلسطينية، لينجلي هذا الأفق النصي، عبر أفق القارئ مما تخلفه ذاكرة المشتت، من ملامسة الوجود المضطرب في روح الفلسطيني، وتعلقه بالذاكرة حفاظا على وطن اسمه "فلسطين" العربية، وحقه الإنساني المسلوب، (( إن أفق القارئ يتعلق بهذا المدلول العميق، الذي يبدو أقرب إلى بحث، ولكن بصيغة المتخيل، وهكذا يعني خلق لافقة عامة بمقاصد ومسالك ودروب التخيل، نحو فرضية وجود الوطن، وأعني مستويات وجوده وتمثله وملامحه وأطره وسماته. <sup>2</sup>، التي لا تنفقت من ذاكرة المقتلع، وهي تسعى إلى الحضور السردي حضورا قويا يعادل فيه حقه في وجود طبيعي، من أجل مقاومة الصراع الصهيوني الذي استهدف الذاكرة الفلسطينية بالاحتلال، والمحو.

وبالاعتماد على التأويل الذي يغدو في هذه المرحلة من البحث، السند المنهجي لتحقيق الفهم؛ فهم النص ضمن حمله الثقيل للوجود المقترح من ذاكرة المشتت بالحفاظ على هويته الفلسطينية في السرد، وفهم من عايش المأساة، فهما يحمل القارئ على تتبع ما يعنيه النص ((ويصير ما يعنيه النص الآن مهما أكثر مما كان يعنيه المؤلف حين كتبه <sup>3</sup>، لأن للقراءة التأويلية مسارات مختلفة تتجدد باستمرار، لكونها تلتصق بالنص، والنص بطبيعته الإبداعية منفتح، ومتغير، وتنصت لوقع معنى دلالات الشتات، والنص قد استلهم

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، "طفولتي حتى الآن"، ص: 63.

<sup>2</sup> رامي أبو شهاب، "6000 ميل" للفلسطيني محمد مهيب جبر، ... ورحلة البحث عن الوطن، موقع القدس العربي، <https://www.alquds.co.uk>، ت ن: 19 يوليو، 2015، تاريخ الاطلاع: 6، 1، 2022، سا: 45: 12.

<sup>3</sup> بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ص: 61.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

شرعيته من قضية إنسانية ارتبط وجودها بتحويلات الواقع الفلسطيني المتشظي، وبذلك فإن سيرة الذات هنا عبر المتخيل الذاتي، هي مسير الشعب الفلسطيني الذي التمس كينونته، وهويته في سرد حكايات تاريخه.

إن أهمية الذاكرة المروية التي يطرحها المشتت هنا، وعبر حكايات الوجد، والبعد عن الوطن، تتبع من تقلبات التاريخ التي تعرض لها الفلسطيني بالاقتراع من أرضه، وإدخاله في مأزق الوجود الاضطراري المهان، أي الشتات، ((فالشتات لا يقتصر على قيم معنوية فحسب، وإنما يشمل منظومة حياتية يعانيتها المشتت حيث فقد وطنه، وكرامته))<sup>1</sup>، لذلك تغدو الذاكرة في السرد هي سنده في الحفاظ على هويته، وهي دعامة سردية رصينة يسترجع بها تاريخه، وواقعه المظلم، لا سيّما وإن ذاكرة المشتت الفلسطيني، أضحت تمس كينونته، ووجوده، وهويته، وما استحضار الذاكرة في مجابهة النسيان، إلا وعيا منه بحجم الإلغاء، والتهميش الذي يلاحقانه، ويتعرض له الفلسطيني بعيدا عن وطنه، وهذا الوعي امتثل أكثر، حين أوصت أم إبراهيم أولادها، أن يحفظوا ذاكرة ما حصل لهم، وما يحصل في المخيمات من جوع، وتشرد... بقولها: ((أريدكم أن تتذكروا ما حصل لنا، أريد أن أتذكر ما حصل لنا، كي لا نصاب ببلادة كيس الطحين الذي يتصدقون به علينا في مهانة كل شهر، وأريدك أنت، أنت بذات، أن تتذكر، أتعرف لماذا؟ لأنك الكبير، ووحذك الذي يمكن أن يذكر أخواته وإخوته بما عشناه إن حصل لي أو لأبيك لا سمح الله مكروه))<sup>2</sup>، لذا فذاكرة المشتتين، ما هي سوى إرث للهوية الفلسطينية، يشير إلى فلسطين الوطن، يورثه الآباء للأبناء عبر امتداد تاريخي، وجغرافي أيضا.

وعليه فـــــــ((إن فعل أعمال الذاكرة يأتي ليسجل في لائحة القدرات، الاستطاعات والإمكانات التي تخص مقولة "أنا أقدر" أنا أستطيع))<sup>3</sup>، أن أعلن عن هويتي

<sup>1</sup> رامي أبو شهاب، في الممر الأخير، ص: 149.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ص: 34.

<sup>3</sup> بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص: 103.

### الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

في أشدّ الأزمنة ظلما وجورا، وأعلن عن تمردني على الشتات، الذي لا يمثل سوى خطط استعمارية همجيّة، تحصر شعبي في اللامكان، وتعمل على الإطاحة بهويّتي العربية الفلسطينية، بحصرها في منطقة العطالة التاريخيّة والجغرافيّة.

هكذا يتحدّد شرط وجود نص "طفولتي حتى الآن" وفق سياق البحث عن الهوية، وتأكيدا أمام العيش الكئيب، وأمام قراءة تأويليّة تُفعل الحراك الجدلي بين النص وقارئه؛ ففي عمق النص وعلى حافة الهامش، وفي واقع أكثر ظلما وتعسفا على ما هو فلسطيني، يعلن المبدع عبر ذات الكتابة، ويتحد، عن اجترار عالم يستوعب كل عهوده بذاكرة فقد الوطن، ويستوعب حتى الأحلام المجهضة، أمام المأزق المخترق لكل ما هو إنساني فيه، بقوله: ((أما أنا، فبدأت أعاني في تلك الفترة من ذلك المأزق الذي عبر عنه شكسبير، قبل أن أسمع بشكسبير: أكون أو لا أكون)).<sup>1</sup> في عالم تبدو فيه الذات المبدعة متماسكة بواسطة دلالات هويتها الفلسطينية من فاجعة النكبة، والتهجير، والمقاومة، والشتات...، وامتداداتها التاريخية، والجغرافية أيضا، عبر فضاء الكتابة السردية، أو في فضاء أكثر مشاركة للآخرين، ((لذلك تتعين الكتابة وطننا نصيا بديلا يقف البطل فيه على مسافة مما عاناه وكابده من تناقضات))<sup>2</sup>، ومن الفوضى الصهيونية، التي اخترقت فيهم كل ما هو إنساني.

ولعل أهم نتيجة يمكن أن يصل إليها البحث، مع الأقوال السردية التي تعد بحق نوعا من الاستراتيجيات النصيّة يمنحها النص للقارئ لتوجيهه مسار تأويل النص إلى عالم أكثر استيعابا لهواجس الذات، والجماعة الفلسطينية، فنص "طفولتي حتى الآن" استثنائي في تشكيلته السردية، إذ تمثلت في تشتت الذات ضمن أزمنة لا يمكن القبض عليها ألا وهي

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، طفولتي حتى الآن، ص: 106.

<sup>2</sup> إدريس الخضراوي، الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2012، ص: 286.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

سائرة نحو انسداد تاريخي لفلسطين، في مقابل ذلك فتحت سردية النص أفقا من التحدي، والصمود في تمسك الفلسطيني بهويته في مكان أكثر ظلمة، وقهر الشتات خارج فلسطين.

وإذا كان الفلسطيني ينتمي إلى الشتات ولا حق له في وطنه فلسطين \_ على حدّ قول رامي أبو شهاب\_ فما هو حال من بقي داخل فلسطين؟، وكيف استوعب نص "الملهاة الفلسطينية" بسرديته المضادة لكل أشكال القهر، والظلم شتات الفلسطينيين، وهم داخل وطنهم، وعلى أرض فلسطين؟

### المبحث الثاني:

#### فلسطينيو الداخل، وجود غير سويّ.

استوى نص "الملهاة الفلسطينية" نسا إبداعيا متفردا بنشعب نصوصه، وتعدد طرحه للوجع الفلسطيني الذي بدأ بالسكنى في الذاكرة الجماعية، لتجذر الإنسان في جغرافيا تمتد إلى عمق تاريخ غارقا في أزمنة غابرة، ويتجاوز بنصوصه صدمة الفاجعة، برواية نكبة 48، وعن المفجوع في وطنه، وبيته، وأهله، وعن المفتاح الذي ينتظر العودة إلى بابه، وعن الحرية المعلق بين الماضي، والحاضر المظلم، وصولا بعد رحلة الاقتلاع، والإبادة الجماعية، والتهجير القسري إلى منطقة العطالة، والانسداد التاريخي، حيث تمثل كل ذلك في الشتات، الواقع الذي هضم الفلسطيني، وأضحى معه هوية معلقة؛ ((فالهوية الفلسطينية يكتنفها التعقيد الشديد فهي تبدو أشبه بمعضلة حقيقية للإنسان الفلسطيني في حله وترحاله الشتاتي، ومع أن الفلسطيني قد فقد أرضه بكل ما يحمله هذا الفعل من تداعيات، إلا أنه بقي حاملا معه صخرة سيزيف، ولعنة الهوية الملتبسة أينما حلّ وارتحل)).<sup>1</sup> وفي الشتات أبشع، وأشرس واقع عاشه الشعب الفلسطيني، ويعيشه في رهن تخلى فيه عنه العربي قبل الأجنبي.

إن النص الملهاة استمد وجوده من تراكمات تاريخية طويلة المدى، وإشكالات واقع استعماري اشتد ظلما وجورا على الشعب الفلسطيني، معلنا بذلك عن رهن قرائي يستحث فيه قارئه على فهم سؤال الهوية الفلسطينية من منظور سردي، يخوض في الشتات خارج فلسطين وما تداعيات وجوده في المتخيل، إلا تأكيد على وجود الشعب الفلسطيني وجودا طبيعيا تاريخيا وجغرافيا قبل النكبة، وما وجوده في الشتات سوى نتيجة لخلل تاريخي، تسبب فيه الوجود الخطأ المدعّم، للاستعمار الصهيوني على أرض فلسطين.

<sup>1</sup> رامي أبو شهاب، في الممر الأخير، سردية الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالي، ص: 87.

على هذا النحو من الأصل المرجعي التاريخي للشتات الفلسطيني، يتحرك فعل القراءة ويُفَعَلُ في النص استراتيجيات نصية في تشكيل هوية سردية فلسطينية تفيض من الواقع المأزوم والقلق، وتقاوم الوجود المتعثر، وتروي حكاية فلسطين التاريخية التي غدر بها في عقر دارها ومن أكثر أجزاء الحكاية الفلسطينية رعبا هو الشتات داخل فلسطين، يوسع به نص "الملهاة الفلسطينية" من تفعيل مجريات أحداثه، ويمدّد بذلك في مأساة الشعب الفلسطيني حين أضحى غريبا في أرضه، ((وهنا يبدو الخطاب الفلسطيني واقعا في مجال ردة الفعل، فلا غرو أن تنهض الكتابة الفلسطينية في الداخل، والخارج على محاولات تحليل، وتصوير هذا الفتق في خاصرة الشعب الفلسطيني الثقافية والحضارية))<sup>1</sup>، وعبر مسارات سردية أكثر تشعبا في أزمنة الشتات الفلسطيني، يلتقط نص "الملهاة الفلسطينية" خصوصية الوجد الفلسطيني، من داخل فلسطين، ولكن عبر فضاء هش تصارع فيه الهوية الفلسطينية وجودا مختلفا عن الوجود خارج فلسطين.

من منطلق التمايز بين شتات الداخل، والخارج من حيث المكان، لا من حيث التأثير على الهوية الفلسطينية، والتضييق عليها؛ لأن التأثير على كليهما قد يكون واحدا إذا ما أخذ بعين الاعتبار أن الهوية الفلسطينية مهدّدة في الخارج بالنسيان، أما الداخل قد يصل تهديد الهوية إلى حدّ طمسها، بفعل سعي الصهاينة إلى محوها وإلغائها، ولكن الحقيقة المؤكدة أن مصدر التشويش الرئيس على الهوية الفلسطينية واحد، وهو الاستعمار الصهيوني وسعيه الدائم إلى محو كل ما هو فلسطيني.

لذلك، فالشتات داخل فلسطين هو امتداد للشتات خارج فلسطين من حيث المفهوم، إذ أكثر ما يلتصق مفهوم الشتات بالوعي؛ أي وعي الفلسطيني بمأزق وجوده على حافة هامش التاريخ، أكثر من ارتباطه بالمكان، وبمدى عمق معاناة هويته في وجود مضطرب،

---

<sup>1</sup> رامي أبو شهاب، مقال: نحو خطاب فلسطيني للشتات، الكتابة في أزمنة الارتحال، ضمن كتاب: قضية فلسطين، ومستقبل المشروع الوطني، الجزء الأول: في الهوية والمقاومة والقانون الدولي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، ط1، 2015، ص: 584.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

وطارئ، لا يمت للواقع الطبيعي الإنساني بأي صلة، وعليه ((فالشتات ببساطة شعور جمعي يتمركز علي مفهوم القومية))<sup>1</sup>، وهذا الوعي هو ما شكل توحيدا بين هوية فلسطينية داخل فلسطين، وخارج فلسطين.

إن الوعي بالمأزق التاريخي للهوية الفلسطينية، الذي تكفلت به الكتابة السردية عبر نصوص تسعى إلى صوغ تجارب حيّة من عمق معاناة فلسطينيي، غزة، والخليل، ونابلس والقدس، ورام الله...، صياغة تدعو بها القارئ إلى الإنصات لوجع الشعب الفلسطيني من داخل فلسطين، ولعل أهم ما يميّز الكتابة عن الشتات داخل فلسطين أنّها ((تتميّز ..)) بمحاولة البحث عن تواصل تاريخي مع الأرض والوطن.<sup>2</sup> والإنسان الفلسطيني المقهور في أرضه لتغدو الكتابة السردية هنا وساطة فعالة تربط بين الوجود الفلسطيني خارج فلسطين، وداخلها لتفعيل فعل المقاومة، على النحو الذي يُثوّر الهوية الفلسطينية في وجه الصهاينة رفضا وتمردا على كل ما يبعده عن كينونته الفلسطينية.

إنّ نص "الملهاة الفلسطينية" بتوجه نصوصه، يقع في محل المرافعة التاريخية، التي قد يصل معها القارئ بفعل مشاركة النص في صياغة دلالات الشتات على أرض فلسطين. إلى منطقة تمثّل هوية فلسطينية سرديّة صامدة أمام الصهيونية تقاوم الوجود المتعثر، ولعل في تكرير هذا المسار عبر نصوص "الملهاة الفلسطينية" المتعدّدة، ما هو إلّا إضاعة للحق المسلوب، ودعوة للمشاركة في الإنصات إلى ذلك الفضاء من زمن، ومكان استوعبا فيه الفلسطيني، وهو على أرضه، وقد انعكس ذلك في وقوفه أمام الصهاينة دفاعا عن وجود متجذر في الأرض، والتاريخ، وتذكير الاستعمار بجرمه الذي لا يقبل الصفح، ((ويشكل العرب في إسرائيل، أو الأقلية الفلسطينية، حلقة كانت مفقودة لفترة

<sup>1</sup> رامي أبو شهاب، مقال: نحو خطاب فلسطيني للشتات، الكتابة في أزمنة الارتحال، ضمن كتاب: قضية فلسطين، ومستقبل المشروع الوطني، الجزء الأول: في الهوية والمقاومة والقانون الدولي، ص: 600.

<sup>2</sup> عزمي بشارة، دراسات، الأقلية الفلسطينية في إسرائيل مشروع رؤية جديدة، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 3، العدد 11، صيف 1992، ص: 15.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

طويلة في هذا التاريخ جعلتهم يمثلون مفهوم البقاء على أرض الوطن والارتباط به.<sup>1</sup>، ارتباطا لا يفسره سوى ذلك التجذر التاريخي الذي أبقى الفلسطيني داخل أرضه، ورغم مضايقة الصهاينة، وتفنّنهم في إذلال الشعب الفلسطيني، بقتلهم، وحرقتهم، وتخويفهم، وإبادتهم جماعيا، وإرغام من بقي على قيد الحياة على ترك بيوتهم، وأراضيهم... وغيرها من فوضى مرعبة شنتوا بها الفلسطينيين عن أراضيهم، مثلما فعلوا في تاريخ النكبة 1948، بإرغامهم على الهجرة القسرية.

لأنّ الفلسطينيين داخل فلسطين استطاعوا أن يستوعبوا هذا التاريخ الفلسطيني المنقطع عن مجراه الطبيعي، وذلك من حيث إصرارهم على تحمل عنف الصهاينة، والبقاء في فلسطين التاريخية، والعيش مع اللؤم الصهيوني الدخيل على أرض فلسطين، ((ليصبحوا أجنب في بلادهم ومحاطين باليهود والثقافة اليهودية مشاهدين بأب عيونهم عملية تهويد أراضيهم)).<sup>2</sup> وحجتهم في ذلك أن للأرض أصحابها، وللحق صدى زمني/ تاريخي، ومكاني/جغرافي، يعلن عن رغبة الفلسطيني الثابتة في استرجاع أرضه، ومحاولته الدائمة في استرجاع هيكله الاجتماعي، والثقافي، والإنساني الذي هدمه الاستعمار الصهيوني سنة 1948، وهي حجة أقوى بكثير من حجة الهولوكوست الصهيونية التي تبنتها إسرائيل لكسب الاستعطف، والدعم من القوى الاستعمارية لإنشاء دولة إسرائيل على أرض فلسطين، وبهذه الحجة ((يصبح الحلم اليهودي سرديّة عظمى، والأرض الفلسطينية سرديّة صغرى، حيث تلاعبت هذه الحداثة بمنطق الضحية والجلاد، واستبدلت الأدوار لحل أزمته بصفة نهائية))<sup>3</sup>؛ إذ انبنت حجة الصهاينة على التلفيق، وتزييف التاريخ، وادعاء حق ليس لهم، بينما حجة الفلسطينيين حجة مبنية على التجذر التاريخي.

<sup>1</sup> عزمي بشارة، دراسات، الأقلية الفلسطينية في إسرائيل مشروع رؤية جديدة، ص: 15.

<sup>2</sup> لونغ يالينغ، ذاكرة النكبة وتأثيراتها في تبلور الهوية الفلسطينية، ص: 22.

<sup>3</sup> جويده غانم، ضحيوية الفلسفة والوعي بالهولوكوست، ص: 88، ص: 89.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

إن ما يتيح نص "المهاة الفلسطينية" بهذه الخلفية التاريخية للأرض، وللإنسان، وللتاريخ وللهوية الفلسطينية، من دلالات العيش في وطن يحيا تحت تهديد الاستعمار الصهيوني، لجدير بالقارئ أن يفتح على النص ليس فقط من أجل الأصل المرجعي الذي أثبت به النص عوالم الممكنة لتمثيل حكاية فلسطيني الداخل فحسب، وإنما على القارئ أن يفعل مشاهد سردية أكثر حيوية توحى بمرارة العيش الفلسطيني في فقدته للأمن والاستقرار، وهو في وطنه، وعلى أرضه الفلسطينية.

يتفاعل القارئ مع النص على نحو من الاستراتيجيات النصية التي تستقطب كل ما من شأنه أن يروي تفاصيل معاناة الشعب الفلسطيني في وطنه، بسردية أكثر تحفيزاً لوجود هوية فلسطينية مقاومة وما تواجهه من تحديات على أرض الوطن، وتعمل الاستراتيجيات النصية على توجيه القارئ نحو تحقيق الفهم الذي يوصل إلى الكينونة<sup>1</sup> الفلسطينية، حين تتحقق بواسطة هوية سردية عابرة لأزمنة تاريخية تعقد فيها الوجود الطبيعي لفلسطيني الداخل.

فالتفاعل بين النص، والقارئ هو الفعل التأويلي الذي ينتشل النص من منطقة الكمون كان فيها بنية لغوية ساكنة، إلى وجود تاريخي، تكون فيه القراءة التأويلية المحفز على أن يكون فيها النص سيد نفسه؛ لأن ((فهم النص أو تأويله يعتمد على إدراك العالم الذي يحيل إليه النص. فالنص هو الذي يحقق المعنى من خلال قوانينه وتقاليد، فإن القراءة التأويلية، تقتحم عالم النص، بقصد تفسيره وتأويله، تأويلاً يتماشى مع شمولية القراءة التي يشكلها واقع النص))<sup>2</sup> وهو واقع حضر فيه الإنسان الفلسطيني، وتاريخه، وأرضه، وهويته

<sup>1</sup> ينظر: بول ريكور: صراع التأويلات، دراسات هيرمنوطيقية ص: 41.

<sup>2</sup> أسامة غانم، جدل التأويلية، الكتابة/ النص، القراءة/ الفهم، ص: 45.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

حضورا إشكاليا؛ أي يدعو إلى التساؤل، وفي السؤال ما يمكن القارئ من معرفة فضاء الممكن، والمحمّل في المتخيل وللمعرفة مسافات للاختلاف<sup>1</sup>، والتعدد أيضا.

ولعل في تحديد مسارات تأنيث نص "المهاة الفلسطينية" من انتفاضة كبرى على واقع فلسطيني طال أمده من العبث، والتكيل الصهيوني، وإصرار الفلسطيني على البقاء على أرضه تحديا ومواجهة، ما يدعم القراءة التأويلية في اتخاذ قرار التوجه نحو أكثر نصوص "المهاة الفلسطينية" استقطابا لفلسطيني الداخل، وهو نص "أرواح كيمنجارو"، أو رحلة الأرواح الفلسطينية إلى أفق من حرية إنسانية لا تعترف بالمستحيل إلا كونه تحديا للآخر الصهيوني الذي نهش التاريخ، والإنسان معا.

بناء على ذلك، ففعل تصعيد المقاومة السردية، والمضادة للصهاينة يستمر في أكثر النصوص تفردا، وخصوصية، من حيث ذلك يتباين الشتات خارج فلسطين، عن واقع المشتتين داخل فلسطين، وهو تباين لا يختلف إلا من حيث المكان، وفلسطينيو الداخل أكثر تفجعا في وطنهم. من أجل ذلك تكون مقاربة سؤال، ماذا بقي لفلسطيني الداخل من "فلسطين"، بعد النكبة 1948؟، من أكثر الأسئلة حيوية، وتحركا نحو تأويل سرديّة الهوية الفلسطينية، لما يفتح النص من تشكيلات سردية تلتقط فضاءها من التاريخ، والواقع، ومن تخيل اصطنع لنفسه هوية سردية أكثر قدرة على تمثيل فلسطيني الداخل تمردا على الآخر، وإعادة لحكاية نحو مسارها التاريخي الصحيح. فكيف استوعب نص "أرواح كيمنجارو" الهوية الفلسطينية عبر سردية حكايات داخل فلسطين؟

إن أول منطوق للقراءة، يمكن أن يكون هاديا إلى سبيل معاينة هذا السؤال، ضمن نص "أرواح كيمنجارو"، هو منطوق فهم محتوى النص لا على أنه عالم استوحى وجوده

<sup>1</sup> ينظر: يمنى العيد، مرفأ الذاكرة، مجلة العربي، الكويت، عدد: 507، صدرت: 1، 2، 2001، موقع مجلة العربي: <https://alarabi.nccal.gov.kw/Home/Article/3684>، ت: 12، 3، 2022، سا: 45: 14.

### الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

السردى من عالم أكثر مازقا وإشكالا فحسب، وإنما فهم عالم سرديّ يستقل بوجوده عن الواقع، من أجل ترفيع، وإعادة بناء تلك الهوية التي تخلقت بفعل حقيقة ما جرى في التاريخ، وما يجري الآن على أرض فلسطين، مقابل رواية صهيونية تتحو نحو تزييف الواقع الفلسطيني، بادعائها الدائم على تمثيل دور الضحية.

فالنص على هذا المسعى ((...يمثل محاولة لا تتوقف عن التجدد لكي تعبر عن المفكر فيه، وما يمكن قوله في تجربتنا))<sup>1</sup>، أي تجربة نص "أرواح كليمنجارو" هي تجربة فلسطينية صيغت بسردية أكثر احتواء لواقع أضحى فيه الفلسطيني غريبا وهو على أرضه، ولعل ((هذا الإحساس بالوجود هو الذي يدفع الشخصيات إلى التمرد معلنة أن المكان الذي يحقق حريتها هو وطنها الحقيقي))<sup>2</sup>، لذا ترفض الخضوع للإرادة الاستعمارية الصهيونية في إبعادها عن فلسطين، وما بقاؤها على أرض الوطن إلا دليلا تاريخيا على ذلك التجذر العميق الذي ربط الفلسطيني مع أرضه .

وعليه فنص "أرواح كليمنجارو" بتعدد قصصه، وحكايته عن فلسطينيين الداخل يرفض أن يتحدد في جنس أدبي معين، إذ تبنى في تشكيلاته سيرا غيرية متعددة، مثلما كان سيرة ذاتية متخيّلة؛ أي اعتمد النص على التخيل في صوغ تجربة معاشة، مع تحرر ذات المبدع في كتابته، حيث توارى خلف نصه فاسحا المجال للشخصيات أن تروي تفاصيل ما حدث في فلسطين.

وإلى جانب ذلك فنص "أرواح كليمنجارو" نص رحلي بامتياز، لذا فالغاية التي تجري إليها القراءة التأويلية ليست في تحديد هوية النص الإبداعية، وإنما غايتها هي إيجاد ألفة بين النص، والقارئ لأجل إثارة التفاعل نحو قراءة ((.. نشطة ومنتجة حين يكون بمقدور القارئ أن يفهم النص، أو يرفضه، ويعرف كيف يصغي فيسأله، ويقراً أسئلته

<sup>1</sup> بول ريكور، صراع التأويلات، ص: 130.

<sup>2</sup> إدريس الخضراوي، الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، ص: 280.

ويرى احتمال الأجابة<sup>1</sup>، التي ترفع النص السردي إلى مستوى من المشاركة الإنسانية، في قضاياها العالقة، ضمن فضاء لا إنساني، أبيح فيه دم الفلسطيني على أرضه.

يستفرد النص في تلقي منظور شخصياته من وحي سردية ترحل إلى عمق دافع الرحلة وهو مساندتهم، ودعمهم للأطفال الفلسطينيين الذين أفقدهم الصهيوني بعض أعضائهم، وهذا ما أعلنه المبدع في مستهل النص بقوله: ((حين سمعت أن المتطوعين في طريق الصعود إلى واحدة من أعلى القمم في العالم، أعلى قمة في إفريقيا، سيرافقون أطفالا فلسطينيين بترت سيقانهم أدركت أن المشروع أكثر ضرورة وأكثر أهمية، وانتابني أحاسيس عميقة التأثير في حزنها وفي فخرها أيضا، إذ ثمة أطفال فلسطينيون سيحملون رسالتهم ويرسلونها إلى العالم كله من فوق قمة ذلك الجبل))<sup>2</sup>، ومن وحي حقيقة ما جرى، وما يجري في فلسطين، يتوارى المبدع خلف كل شخصية من شخصيات النص، ليطلع قارئه عما أخفي من حقيقة عبث الصهاينة بالفلسطينيين، ويفسح المجال بذلك لمنظور شخصيات النص التي عايشت الموقف المرعب داخل فلسطين، بأن ترحل إلى تجاربها، ويسرد هويتها المتصارعة مع الآخر الصهيوني من تكفل بالمحكي سردا وتأويلا، ليربك النص قارئه بحقيقة اتخذت من الخيال مسارا لتشكيل مسعاها، وليس تخليا عن واقع ما جرى فعلا في فلسطين، وإنما صوغ الحقيقة بالكلمات هو تمثيل آخر للواقع، ودعوة لتأويل رؤية النص بأكثر جدلية يحضر فيها القارئ وفق ما يمليه النص من استراتيجيات نصية تتولى توجيهه، نحو دلالات النص.

يقيم نص "أرواح كليمنجارو" فسحا دلالية من تعدد الرحلات، التي تجوب بها أرواح الشخصيات عوالم الوجود داخل فلسطين، ف——((بمجرد أن راحوا يتقدمون في البرية الصخرية بدا كل منهم ينسحب إلى ذاته، فقد كانت مخاوفهم مما هو أمامهم أقوى بكثير

<sup>1</sup>إمنى العيد، الراوي: الموقع والشكل، بحث في السرد الروائي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص: 13.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمنجارو، ص: 9.

من الحنين إلى ما خلفهم. وسيمر وقت طويل قبل ان يلتقوا بأرواحهم، ويتذكروا ما قاله صوول عن ذلك الذي يريدونه من الجبل وذلك الذي يريده الجبل منهم.)<sup>1</sup>، فرحلة جبل "كليمنجارو" هي حدث الإطار الذي انتظمت فيه قصصهم نصا إبداعيا متعدد بتعدد وجهات نظر الشخصيات، وما رحلة كل شخصية من شخصيات النص إلى حياتها التي تستعرض فيها آلامها ومعاناتها في فلسطين إلا دعما، ومساندة لأطفال فلسطين.

هذا الموقع من قراءة بنية النص الافتراضية، يفرض على القارئ أن يستوعب الرحلة في بعدها الرمزي، ولعل هذا ما نوه به السارد بقوله: ((هنالك رحلات كثيرة يقوم بها الإنسان بعضها إلى داخله، وبعضها إلى مناطق لم يحلم بالوصول إليها من قبل، بعضها في الحاضر بعضها في الماضي، وبعضها في المستقبل، وسواء كنت كاتباً ينتقل بين هذه الأزمنة، أو حالما، أو واقعيًا، فلا يمكن أن تمر روحك في مكان ما، دون أن تبث بطعم هذه الأسفار وروائعها. كل واحد مضى بعيدا في رحلته الخاصة به))<sup>2</sup>، فالرحلة رمزية في معناها الإنساني وما إدراج النص ضمن الفعل الرحلي إلا إظهار لقدرته الإبداعية والرمزية أيضا في استيعاب القصص المحتواة في الحياة، وهي قصص بحضورها السردي المتميز، تطرح دلالات المشاركة الإنسانية في مصاب أطفال فلسطين، بدعمهم، والإنصات لوجعهم، وآلامهم، وفي تتبع البعد الرمزي لرحلة قمة جبل "كليمنجارو"، ما يستولى على هدف القراءة التأويلية، بما أنها السبيل إلى تحقيق فهم النص فهما ينبئ عن انتفاضة فلسطينية سردية أبطالها أطفال فلسطينيون هم ضحايا الاستعمار الصهيوني الذي تولى بتر أعضائهم.

إنّ رمزية الرحلة الغارقة في إعادة تشكيل واقع ما جرى من حيث تمثيل الحياة، تمثيلا إشكالياً، يرفع به صوت المظلومين نصرة لهم، واعترافا بحق الفلسطينيين في

<sup>1</sup>المصدر نفسه، ص: 66.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمنجارو، ص: 76.

أرضهم، وفي الحياة ليجعل من النصّ في حالة من الحراك الذي يثير التفاعل بينه، وبين قارئه لاستحداث دلالات من عمق رحلة كانت سكنا لهم في مسعاهم نحو تحدي الاستعمار الصهيوني ((إذ ثمة أطفال فلسطينيون سيعملون رسائل ويرسلونها إلى العالم كله من فوق قمة ذلك الجبل، وسيقولون إلى ذلك الجيش الصهيوني الذي أفقدهم أجزاء من أجسادهم بأنهم لم يهزموا ولن يهزموا، وسيثبتون أنهم بما تبقى لهم من أرجل، قادرين على أن يقولوا للبشرية: نحن أبناء هذه الحياة، أبناء شعب يقاوم من أجل حريته منذ أكثر من مائة عام، وإننا لن نهزم)).<sup>1</sup>، وقد اتّقدت روحهم بإصرار على بلوغ قمة جبل "كليمنجارو"، رغم ضعفهم الجسدي بسبب غياب أعضائهم، وفي مسار سردي، حدّد هدفهم. تكون الانطلاقة بالتحدي للوصول إلى القمة، والأصل فيها أن يصل الفلسطيني إلى ذاته، ويرفع العلم الفلسطيني في سماء الحرية على قمة جبل كليمنجارو وينتفض على ظلم الصهاينة عندما كبل فيه كل شيء، وحصره مع الظلم الذي يقع عليه كل يوم بفوضى صهيونية مرعبة وشرسة.

إن نص "أرواح لكليمنجارو" بتشكيلته تلك ينفرد في طرحه للهوية الفلسطينية، طرحا يتعلق فيه الفلسطيني بتحدي كبير ضمن فضاء المحتمل، والممكن، فقد كان هؤلاء الأطفال الفلسطينيون مدركين، وبوعي أن —((..كلّ إنسان قمة عليه أن يصعدا وإلا بقي في القاع..مهما صعد من قمم))<sup>2</sup>، وعليه، كان تحديهم لظروفهم الصحيّة الصعبة، وبلوغهم قمة جبل لكليمنجارو، هو في حقيقته تحدي للصهاينة الذين أخذوا أعضائهم، وحاصروهم عن العالم، على ضوء هذا الموقع السردية من دلالات تفيض بما أوحى به النص من دلالات التحدي، والإصرار الروحي لدى أطفال فلسطينيين في بلوغ قمة من قمم التحدي، فإن همّة الأطفال الفلسطينيين كانت متحمسة للحرية وما صمودهم إلا من أجل فلسطين،

<sup>1</sup>إبراهيم نصر الله، أرواح لكليمنجارو، ص: 9.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 5.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

لذا يتحرك القارئ نحو الإنصات لأحداث هذا التحدي المنغمسة في واقع فلسطيني أليم، وعلى أرض فلسطين.

من أجل ذلك ظل نص "أرواح كليمنجارو" على مسار زمني طويل المدى يتحرك في فلسطين، في مسعاه نحو تشكيل هوية سردية فلسطينية تقاوم الوجود المتعثر، وتحفظ ذاكرة فلسطينية جريحة بكثافة رمزية لا تستغني عن واقع التفاصيل، وتفاصيل الواقع، من هنا يلتفت البحث حول سؤال يقترن بالنص أكثر، من أجل الفهم، والتأويل، وهو: إذا كان الفلسطيني يعيش حالة من الحصار الصهيوني، والانعزال عن العالم مما فرضه عليه الاستعمار، فكيف تمكن من تحدي الواقع؟، أو بسؤال أكثر عمقا وهو: لطالما كان الفلسطيني رمزا للمقاومة، والصمود والتحدي، فكيف امتثل النص السردى لهذا الرمز من التحدي، والمقاومة؟

إن من طبيعة النصوص السردية حين تطرح انشغالات الإنسان من يومياته إلى هواجسه إلى آماله إلى تحديه... وتصوغ موقعه ضمن منظومة تاريخية، تتحمل عنه ثقل المآزق في رواية تفتح على حياته، حتى تغدو عالما كثيفا من المعاني يتبناه القارئ، وفق رؤية نصية يتحقق فيها أفق المعنى الذي تكفل به السرد فهما، وتأويلا للحياة ذاتها، ومن وجهة نظر سردية متخيّلة؛ ولأن السرد ((.. يدرج التجربة الحياتية ضمن زمنية هي الشاهد الوحيد على وجود خبرة إنسانية قابلة للتبليغ.))<sup>1</sup>، فإن ما يبيح لهذه التجربة من أن تكون شاهدا على معاناة الشعب الفلسطيني داخل وطنه هي قراءة تأويلية تتلقف معانيها من مباني سردية أشد كثافة في تعمقها لتفاصيل الصراع الفلسطيني مع الصهاينة.

إن سردية حكايات "أرواح كليمنجارو" عن المأساة الفلسطينية، تجعل من تجسيدها السردية في حالة من الجدل الذي يستدعي القارئ لانتقاف حول حكاية فلسطينية لما يثيره الجدل داخلها من ارتباك بمشاهد مرعبة تحكي عن وحشية الصهاينة؛ فقصة "غسان"

<sup>1</sup> سعيد بنكراد، سيميائيات النص، مراتب المعنى، دار الأمان، الرباط المغرب، ط1، 2018، ص: 133.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

الفلسطيني مع المستوطنين اليهود. يروي السارد من خلالها تفاصيل الظلم الذي يتعرض له الشعب الفلسطيني وهو على أرض "الخليل"، يقول واصفا اعتداء المستوطنين على "غسان" وأخته وهما داخل بيتهما: ((الباب مغلق، فالمستوطنون اليهود الذين لا يفصلهم عن بيته سوى جدار تسللوا بهدوء ليلا أمام أعين الجنود تتقدمهم سارة التي أشعلت الفتيل وألقت بالزجاجة الحارقة عبر النافذة داخل الغرفة، ثم انسحب الجميع بهدوء، لكنهم بدل أن يتواروا داخل البيوت التي استولوا عليها سعدوا إلى سطح أحدها لمراقبة المشهد.))<sup>1</sup>، إنّ الفلسطيني بالنسبة للإسرائيليين دخيل لذا يجب الحذر منه، وقصفه، وملاحقته بكل وسائل الرعب، والتربص به في كل مكان، ومعاملته معاملة الغريب الذي يجب أن يجرد من كل شيء حتى من بيته، وكل هذا من أجل محو الهوية الفلسطينية على أرض فلسطين.

وعلى نحو من سياسة استعمارية صهيونية، ترهق الإنسان، والأرض، والتاريخ، وتسلب من الفلسطينيين شعورهم بالأمان، يواصل السارد ساردا تفاصيل حكاية "غسان" الفلسطيني مع المستوطنين، وسياسية الجيش الإسرائيلي، وهو يكتب حريته، ويحاول القضاء عليه وعلى أخته بقوله: ((لم يسمح الجيش الإسرائيلي لأحد بأن يتقدم لينقذهما، وقد ارتفع الصراخ عاليا، واستغاثات والد غسان وإخوته الذين كانوا يحاولون فتح باب الغرفة المحترقة دون جدوى. وحين استطاعوا كسر الباب لم يسمح لسيارة الإسعاف بالوصول إلا بعد ساعة))<sup>2</sup>، تعسفا بالفلسطينيين، وخنقا لحریتهم، في حصرهم بسياسة صهيونية تسير بالفلسطينيين نحو الهلاك ((لاسيما أن الاستعمار أشدّ ما يتضح بما يخلف من آثار، ونتائج، تطل الإنسان بتكوينه المادي والثقافي، ناهيك عن آثاره على المكان، والجغرافيا بفعل

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمنجارو، ص: 28.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمنجارو، ص: 29.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

الممارسات العنصرية، وجرثومة العنف<sup>1</sup>، وهو مسار الصهاينة في تربصهم بالشعب الفلسطيني، وسعيهم الدائم في محاولة القضاء عليه.

إن في تكملة مشهد حرق بيت "غسان" من طرف المستوطنين الصهاينة، ما يفصح عن تلك العبثية التي تنتهجها الصهيونية في سحق الشعب الفلسطيني الذي بقي على أرضه، فهذا مشهد يحمل بشاعة الصهاينة في شراسة حقدهم على الشعب الفلسطيني، وإرادة قوية في تحطيم بنيته النفسية والاجتماعية لمحاولة جره إلى الاستسلام والرحيل، فقهر النفوس هوايتهم، وهذا حالهم مع "غسان" حين قرر البقاء على أرض "الخليل"، يقول السارد واصفاً حاله، وحال أخته بعد حرقهم: ((انفجرت عين غسان مثل بالون، هل فقأها جسم حاد؟ هل صهرتها النار؟ لن يعرف أبداً. أما شقيقته الصغيرة ابنة السنوات الخمس، فقد ظلت تتقلب في النار حتى بعد أن وضعوها في سيارة الإسعاف. كان الدخان يتصاعد من جسدها، فتحت عينيها بصعوبة، وحين رأت الجنود الإسرائيليين لم تقل سوى تلك الجملة المنفحة على ما تبقى من رماد شفيتها: انتو بتفتكروا إنه الله مش شايف إللي بتعملوه فينا! وعادت إلى غيبوبتها، وفي المساء أخبروه أنها لن تستيقظ.))<sup>2</sup>، وأمام بشاعة المشهد أضحت اللغة السردية أكثر ثقلاً وتريثاً في رواية مرارة العيش مع الصهاينة على أرض فلسطين، فالأفق قد عتم ليحث القارئ على أن ((ينفصل عن اللحظة التي يعيشها لكي، يعيش تجربة النصّ. معنى هذا أنه ينتقل من تجربة إلى تجربة أخرى إنه يتحول عن عالمه لكي يعيش عالماً آخر خيالياً))<sup>3</sup>، لكن هنا التحم بواقعية أكثر مأساوية، لما أفرزته من أحداث مؤلمة ومظلمة، و((..كلنا يعلم أنّ الحياة هي مجموعة كبيرة من أحداث متعددة ومتنوعة وأنّ الحدث قد ينتهي في اللحظة التي ينشأ فيها. ولكنّ ثمة من الأحداث ما يكون

<sup>1</sup> رامي أبو شهاب، سردية الشتات الفلسطيني في ضوء الخطاب مابعد الكولونيالي رواية "غريب النهر" لجمال ناجي، مجلة مشارف مقدسية، مجلة فصلية ثقافية عربية، شتاء 2016، ص: 39.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمنجارو، ص: 29.

<sup>3</sup> مليكة دحامية، هرمنيوطيقا النص الأدبي في الفكر الغربي المعاصر، ص 132.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

تواصلها في الزمن ممكنا من حيث ثقل الحدث، أو من رمزيته.<sup>1</sup> ليصبح النص ذاكرة أمة تروي تفاصيل ما حدث وما يحدث للفلسطينيين على أرضهم من عبثية، وعنف صهيوني متمرّد.

ومن موقع هوية الأرض الفلسطينية، وبشاعة الاستعمار الصهيوني، يقف الفلسطيني حائرا، لكنه في مقابل ذلك الألم مصر على مواصلة البقاء على أرض فلسطين؛ فـ"غسان" بطل "الخليل" يرفض أن يغادر أرض فلسطين لرحلة جبل كليمنجارو، والسبب هو تربص المستوطنين الصهيونيين لأخذ بيته، وهكذا كان حوار مع طبيبته "أروى"، فـ((..كلما يصل الحوار إلى هذه النقطة، كان غسان يختصره بصمت. لا أستطيع. أنت تعرفين أننا نتناوب على حراسة البيت كي لا يستولوا عليه (...)) وهل بقي في الخليل جبل يمكن أن أصعده مع كل هذه المستوطنات؟<sup>2</sup>، إن العيش مع الشخصية الفلسطينية في كنف النص السردي، قد يجعل القارئ يحصي ظلم الصهاينة من جهة، لكنه في مقابل ذلك يصطنع للنص فهما للمقاومة السردية يتجاوز بها ضيق الصهاينة للفلسطينيين، وهذا ما أفصحت عنه شخصية "غسان" فقد ((..كان مسألة أخرى، شغلت بال الدكتورة أروى أكثر من أي إنسان آخر، إذ ليس هناك من أسباب تمنعه جسديا من السير، لكن جرحه الداخلي وكوابيسه وقلقه المرعب على ما ترك خلفه في الخليل، كانت كلها مصدر خوف حقيقي))<sup>3</sup>، وهذا الوجد يقدمه السارد ليس من منظور ذاتي (شخصية غسان) فحسب، بل من منظور جماعي، يشمل فلسطيني الداخل، وكيف امتثلوا لتحدي، ومن منطقة "نابلس" تحضر "نورة" طفلة فلسطينية أفقدها الاستعمار رجليها، لكنه ينس من روحها.

<sup>1</sup> فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، الدار المتوسطة للنشر، تونس، ط1، 2009، ص61.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمنجارو، ص: 32

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص: 55.

من أجل أن يعايش القارئ قوة روحها، وإرادتها في رفع العلم الفلسطيني على جبل كليمنجارو، عليه أن ينصت لأحداث روايتها من منبع الجبل، جبل الأرواح؛ فالنص المنتخب ينبغي على القارئ أن يختبر فيه واقع التبعر، والمشئت عند فلسطيني الداخل، وكيف يواجهون استعماراً متصلباً، وأمام هذا الرعب الصهيوني، تغدو القراءة التأويلية منفذاً يتخطى به القارئ واقعا مظلماً، إلى أفق المتخيل، وهو ((ليس عالماً متعالياً عن المعيش، بل إنه منبثق عنه. فإذا كان التخيل يعتبر أساساً بنائياً هاماً لقياس شعريّة الخطاب السردي عامة، فإنه، بالمقابل، يقوم على إبطال مرجعيّة الخطاب العادي، وبناء مرجعيّة دلالية جديدة نابعة من هذا الواقع الخارجي نفسه.))<sup>1</sup>، ولذا وعلى حد قول بول ريكور فـ((..المرجعيّة ليست سوى قدرة التخيل على إعادة وصف الواقع))<sup>2</sup>، وصفا ينبثق منه المأزق، أو الإشكال الذي ساهم في خلق النص، وهو واقعي بامتياز.

من منطلق هذا الفهم النقدي لحقيقة المرجعية الواقعية في المتخيل، فإن مسار القراءة التأويلية يتجه نحو استقطاب واقع شكله المتخيل، ضمن رؤية النص الفكرية، والمقاومة للوجود الصهيوني على أرض فلسطين، لذا فحكاية "ثورة" الفلسطينية تتدرج ضمن كفاح فلسطيني طويل الأمد، وهو صراع أكثر خطورة في سياسات الاستيطان انتهجها الصهاينة للقضاء على الفلسطينيين في أرضهم، لذا فأما "ثورة" منعت ابنتها من الذهاب إلى جبل كليمنجارو، وحاولت إقناعها بجملة أكثر ما يسري فيها تاريخ الشعب الفلسطيني وما عاناه من تشتت، واقتلاع تقول: ((..يا بنتي، يا حبيبتي، هل هناك عاقل يترك سريره ومدرسه وبيته وأصحابه وأهله لكي يصعد جبلاً في آخر الدنيا؟ وينتشر في الخيام؟ هل تعرفين ما معنى الخيام؟ أنا التي أعرف! في كل حرب كانت خيمة، ويوم هدم الإسرائيليون دارنا، وأنا حامل بك، كانت لي خيمة أيضاً.))<sup>3</sup>، إن معاناة الشعب الفلسطيني تاريخية؛ أي لها

<sup>1</sup> عبد الله لحميمة، الرواية المغاربية المعاصرة (دراسة تأويلية)، ص 173.

<sup>2</sup> بول ريكور، من النص إلى الفعل، ص 152.

<sup>3</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمنجارو، ص: 22.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

أجل طويل المدى، والجيل الذي عايش الاقتلاع، والتهجير أحدثت له فاجعة النكبة صدمة شوشت عليه في مستوى بنيته الاجتماعية، والنفسية وجعلت مخاوفه تزداد كلما ذكرت كلمة رحلة، فتهجير الفلسطينيين و((...الاقتلاع، وفقدان المنزل، وعدم القدرة على العودة، يشي بأن الأمر أقرب ما يكون إلى شيء غير مفهوم، أو غير منطقي، بحيث يكاد يقترب من المعنى السريالي نظرا لحجم المأساة.))<sup>1</sup>، لذا فذاكرة نكبة 1948 بالنسبة للفلسطينيين هوية تاريخية، لا تمحى، فقد شئتوا في غير مكان من هذا العالم، وجعل الاستعمار الصهيوني بنية المجتمع الفلسطيني غير طبيعية في مستوى ثل حركتهم، ونسف أي مقاومة بخلق أجواء من الشتات، والتبعثر بين أفراد المجتمع الواحد.

من أجل ذلك تبدو ذاكرة النكبة حيوية بحضورها القوي في ذهن الفلسطيني، فهي هوية فلسطينية تاريخية، يسترجعها لا من أجل الوقوف على الأطلال، وإنما من أجل ألا ينسى أن له وطنا مسلوبا؛ لذا ف—((استخراج قيمة مثالية من الذكريات الصادمة المؤلمة، وهذا لا يتم بحق إلا عن طريق تحويل الذاكرة إلى مشروع. إن كانت الصدمة تحيلنا إلى الماضي من أجل الذاكرة فإنّ القيمة المثالية توجّهنا نحو المستقبل))<sup>2</sup>، الذي تبدو معه النكبة هوية تاريخية فلسطينية، يستند إليها الشعب الفلسطيني في مقاومة وجود غير سويّ.

لذا يقيم النص حوارا، بين الأم وابنتها، على أساس تحدي استثنائي، تردّ به "نورة" بجواب فريد، وتفتن أمها للذهاب إلى رحلة التحدي، ولكن بتاريخ أكثر مرارة، عاشته هي على أرض فلسطين، تقول: ((حين كنت صغيرة، كنت أسألك دائما، يمة؟ أين رجلي؟ ما ذا كنت تقولين لي؟ كنت تقولين لي إن رجلك على رأس جبل، وحين تكبرين قليلا سأصعد بنفسي وأحضرها لك من هناك. لكن لم تقولي لي مرة واحدة، هل تقصدين عييال أم

<sup>1</sup> رامي أبو شهاب، سردية الشتات الفلسطيني في ضوء الخطاب ما بعد الكولونيالي رواية "غريب النهر" لجمال ناجي، ص:47.

<sup>2</sup> بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص144.

جرزيم؟ يمة، لقد كبرت كثيرا. لم تأت رجلي، ولا أنت أحضرتها، يمة لن أنتظر أكثر مما انتظرت، أنا ذاهبة إلى هناك لكي أحضرها بنفسى. لقد اكتشفت منذ زمن أنها ليست فوق قمة جبل عيبال، ولا فوق قمة جبل جرزيم، هل تعرفين أنها كانت طوال الوقت فوق كلمنجاو، ولا أنت عارفة ولا أنا عارفة.))<sup>1</sup> إن التحدي يقيم في روح الفلسطيني، وانبعث وجوده في نفسية الفلسطيني التي تجرعت المرارة والألم، من تاريخ طويل من الرعب، والمجازر.

وإذا كانت مدينتا "نابلس"، و"الخليل" امتثلتا عبر سرد حكاية "تورة"، و"غسان"، ومعاناتهما داخل فلسطين في مواجهه رعب الصهاينة، فإن يوميات التحدي، والمقاومة، والإصرار على البقاء في أرض الوطن، امتثلت بأكثر جرأة لدى فلسطيني داخل غزة، وكانت حكاية "يوسف" هي الوساطة السردية، التي تكفلت برصد واقع كبل فيه الفلسطيني، ويعيش في شتات، وتبعثر على أرضه، يقول السارد واصفا حصار "غزة" بقوله: ((لم تكن غزة ذلك المكان الذي يمكن أن يضحك فيه المرء طوال الوقت، فالطائرات دون طيار وبطائرات تملأ السماء بطنينها ليلا نهارا باحثة عن أهدافها، والشوارع والبيوت تبدو أكثر ضيقا في كل لحظة تمر مع تزايد شدة الحصار.))<sup>2</sup>، هذا ما تسببت فيه سياسة استعمارية صهيونية ممنهجة، تبتغي من خلال تعطيل المكان، والتضييق على الفلسطينيين، لصناعة أقلية فلسطينية يمكن التحكم فيها، وتوجيهها نحو مغادرة المكان، وفي مقابل ذلك أسقطت من ذهنها أن للإنسان الفلسطيني جذورا تاريخية وجغرافية يقترن بهما في هوية غير مستقرة، ((هوية الحصار في منفى الداخل، أو هوية الشتات والتيه في منفى الخارج، أو هوية الازدواج بين الداخل/الخارج أو منفى الوجود))<sup>3</sup> إلا أنها هوية فلسطينية تاريخية،

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمنجاو، ص: 23.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، أرواح كليمنجاو، ص: 25.

<sup>3</sup> محمد الشحات، سرديات المنفى، (الرواية العربية بعد عام 1967)، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006، ص238.

معينة بجغرافية تبتغي رفع المأزق عن نفسها، بإعادة حكاية فلسطين إلى مسار تاريخي طبيعي.

إن السرد فيما يحمل من برهنة على أن وجود فلسطيني الداخل على أرضهم وجوداً غير سويّ، وغير مستقر، إلا أنه وصل بمعية الشخصيات السردية، إلى قمة مقاومتهم في تحديهم للخطأ التاريخي، عبر سرد يوميات، وتفصيل صراهم مع الصهاينة، فكلما اشتد عليهم الصراع اشتدت أكثر مقاومة وصمود الفلسطينيين، لتتداخل في ذلك قصص الذاكرة في بناء متماسك، أفص به نص "أرواح كليمنجارو" من حيث خلق مساحات من فهم واقع من الاكراهات يمارس على الشعب الفلسطيني، من طرف الصهاينة.

بناء على هذه النتيجة، يمكن أن يواصل البحث في طرح أسئلته، لما يثيره نص "الملهاة الفلسطينية" عبر استراتيجيات قرائية، تتيح للقارئ التعرف أكثر على عوالم ممكنة التحمت بواقع فلسطيني مأزوم، وفتحت بذلك مسارات تأويل النص ضمن رؤيته الفكرية. من أجل ذلك يكون السؤال: إذا كان الفلسطيني متمسكا بأرضه، والصهاينة في تعاليهم عن هذا الاعتراف، في تعنت مستمر. فهل يمكن الحديث عن العيش المشترك، ضمن هذا الصراع التاريخي المظلم؟

### المبحث الثالث:

#### الآخر النقيض، والسلام المستحيل.

ينكشف سؤال الآخر الصهيوني ضمن نص "الملهاة الفلسطينية" بغياب سردي؛ فمنذ القراءة الاستكشافية الأولى يتجلى للقارئ غياب الآخر الصهيوني في أغلب نصوص "الملهاة الفلسطينية"، لكنها اتخذت من حضور آثاره المرعبة على الإنسان، والأرض، والتاريخ، والهوية بفاجعة النكبة، ونسفه للمقاومة، وكسر الوجود الطبيعي للفلسطينيين وخلق فضاء مرعب من الشتات داخل، وخارج فلسطين فكك به بنية الشعب الفلسطيني، كل هذا كان مسارا تشكليا لانتفاضة فلسطينية متخيلة، غيّبت الآخر الصهيوني، واكتفت

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

برسم جرمه، ومجازره، وهي استراتيجية نصية تعمدت غيابه لبشاعة مجازره، وكارثة حضوره، لعلها تبعده، وتغيبه عن الأرض الفلسطينية، وهو الأصل في حكاية الصراع، وأمام مهمة التأويل في سعيه إلى ((إثارة التساؤلات بدلا من الإجابة عنها))<sup>1</sup> كان عليه أن يبادر بفهم الآخر الصهيوني سرديا، بما أنه جزء من إشكالية الشتات الفلسطيني، وطرف فاعل فيه.

من أجل فهم الآخر الصهيوني ضمن منظور سردي استثنائي، يبني هوية سردية مقاومة، فإن نص "ظلال المفاتيح" من أكثر نصوص "الملهاة" جرأة على مرافقة الآخر في البحث عن إمكانية التواصل الإنساني معه، وذلك حين طرح رؤيته النصية في تعقب الآخر الصهيوني، ضمن علاقات جدلية جمعته بالذات الفلسطينية، ووفقا لمسارات تأويل الحكاية؛ فإن القراءة التأويلية تسعى إلى تقفي أثر تلك العلاقة بين الذات والآخر في بعديها الرمزي، والتخيلي قصد ملاحقتها للأننا وهي تواجه الآخر فهما، وتفهما، وضمن هذا المسعى كشف النص عن أساس علاقة الذات بالآخر الصهيوني، وهو لا يخرج عن صراع تاريخي، وسردية غيبت الفلسطيني عن أرضه، وزيفت تاريخه؛ لذا فـ((...التفاعل بين الفلسطينيين والإسرائيليين يتسم بالكراهية والعداء بمنتهى الوضوح، لكنهم يتواجدون فيزيائيا معا في المكان نفسه))<sup>2</sup>، وهي إشكالية فرضت على البحث أن يطرح سؤالا لمرافقة استراتيجيات نصية، عن قابلية العيش بسلام على أرض فلسطين، أو العيش المشترك بين الصهاينة، والفلسطينيين وسعيهما إلى السلام، وهذا ما ادعته تلك اللقاءات السياسية التي كانت تدعي الوفاق بينهما عبر تاريخ تواطؤهما مع الصهاينة، ليعاد قراءة، وخلخلة هذه العلاقات بفحصها، ومعاينتها على أرض السرد، قصد استيعابها في حالة من الحركة التاريخية التي أفضت بقراءة فاعلة أخذت بتلابيب علاقات الأننا، والآخر من موضع محاكمة تاريخية سردية نصية تجلت فيها، وعبرها، وبوساطتها

<sup>1</sup> هيو سلفرمان، نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، ص 59.

<sup>2</sup> ادوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، ص: 20.

إمكانية تقبل الآخر، والاعتراف به على نحو مغاير، حيث يبعده عن الشر، و يقربه من الخير، ودعوة الفلسطيني إلى العيش بسلام، فما مدى قابلية الأنا، والآخر لهذا النوع من العلاقات؟

إن أهم ميزة يمكن للقارئ أن يلاحظها عبر قراءة استكشافية أولية لنص "ظلال المفاتيح" أن السرد في خوضه لمعارك الإنسان مع الحياة يشجعنا على مغادرة مواقع ألفناها بنمطية التكرار، نحو التعرف على جوانب القوة في الذات في علاقتها بذوات أخرى، ضمن مقارنة بين الذات الفلسطينية، والآخر الصهيوني في عالم تتجلى فيه علاقة غير متكافئة مبنية على الهيمنة، والسلطة، والانمحاء، لتتأسس ضمنها ثنائيات ضدية، الأنا المهمش/والآخر المركز، المستعمر/والمستعمر.

ونفياً لهذه الثنائيات التي تهدد الأنا الفلسطينية في وجودها، وهويتها، وأرضها، وتاريخها بترفع الآخر إلى مقام القوة والحق والمركز، يلجأ النص السردى بما أنه ((فضاء للمتعة والمعرفة (إلى) تقديم عناصر ومحكيات، تتيح قراءة ملامح من الواقع المتشابك الذي يحتاج إلى التخيل واللغة النافذة ليُسلم بعض أسرارها))<sup>1</sup>، في كسب هوية فلسطينية سردية تصارع وجوداً طارئاً على حياتها الطبيعية، بمسار سردي ينفي عنها الموت، أو الغياب، ويبني كينونة فلسطينية مقاومة وفق حركية تاريخية مستمرة، فـــــــ((الهوية (..) كما يزعم ريكور مسار تكويني يصاغ بفن سردي وبحركة تفاعلية بين الأنا والآخر تأسيساً للوجود))<sup>2</sup>، من أجل ذلك تمت مسابرة اللحظة التاريخية التي تفاعلت فيها الأنا الفلسطينية، مع الآخر الصهيوني، عبر نص "ظلال المفاتيح" الذي شكل تجربة سردية داخل اللغة، والمتخيل، حين أحالت إلى كثافة زمنية تجلت فيها صلة الأنا بالآخر من خلال مسار تاريخي يمتد قبل 1947 إلى ما بعد 1987، وهي فترة

<sup>1</sup> محمد برادة، الرواية العربية ورهان التجديد، الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، دبي، الإمارات العربية، ط1، 2011، ص127.

<sup>2</sup>حاتم الورفلي، بول ريكور الهوية والسرد، ص6.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

مفصلية في تاريخ فلسطين، وعلاقتها بالصهاينة إذ تمثل ذاكرة الانكسار/النكبة، والحصار/النكسة، والانتصار/الانتفاضة، التي تجري هنا إلى إعادة فهم التاريخ بروية سردية متخيلة تتوغل في الذاكرة المجروحة لاسترجاع ما تم انتهاكه، وسلبه، وإعادة محاكمة التاريخ للوجود الصهيوني على أرض فلسطين، وإلزامه بالاعتراف بالشعب الفلسطيني.

لأجل ذلك يستعيد نص "ظلال المفاتيح" أحداثًا ضمن معترك السرد، والتاريخ، وما يتيحان من استراتيجيات تخيلية عبّرت بمنطق النص عن ثلاثة لقاءات جمعت بين الفلسطينية "مريم أو أم جاسر"، والصهيوني "ناحوم"، عبر ثلاثة لقاءات كانت برمزياتها توحى بتاريخ النكبة والمقاومة، والشتات لينطلق النص بقارئه إلى عالم البشاعة الذي استوطن قلوب الصهاينة ويصور ذاكرة موجوعة/مجروحة، ونفسيات مهزوزة، مهزومة، فيغدو النص نمطًا من زمن معاناة الأنا الفلسطينية، في مواجهة الآخر الصهيوني.

إنّ الزمن المروي في رواية "ظلال المفاتيح" هو الحاضر السردى، وهو الماضي الغائب أيضا الذي ((يستجوبنا ويردّ علينا، إلى درجة نستجوبه ونردّ عليه))<sup>1</sup>، فالسرد يفتح على الماضي بغية إعادة إحياء ما لم يكتمل بعد الآن من إمكاناته<sup>2</sup>، فتنبعث منه استراتيجية قرائية توجه القارئ نحو النقاط مشاهد مهيمنة تحرك، وتُثوّر حاجة الأنا، والآخر إلى تجاوز الصراع المرهق تاريخيا، برغبة في السير نحو تقبل الآخر، والاعتراف به.

يتمظهر ذلك في مشهد "ناحوم" الصهيوني وهو يودع "مريم" الفلسطينية بالدموع بعدما أنقذته، وأغاثته، واحتوته وهو الذي أتى لقتلها، وقتل أهلها، يقول السارد عن تفاصيل اللحظة: ((هز رأسه وهو يراقبها مبتعدة. وقبل أن يستدير، سمعها تقول له: سلم

<sup>1</sup> مجموعة من الباحثين، الوجود والزمان والسرد، ص: 96.

<sup>2</sup> ينظر: المرجع نفسه، ص: 92.

لي على إيمك، وقل لها لا تبعث أولادها مرة ثانية ليقفلوننا. عند ذلك بكى ناحوم، وقال لها بعربية مكسرة: ناحوم مش راخ ينسى أنتم أبدأ<sup>1</sup>، ولكن للسرد مآرب أخرى إنه يلتف حول الواقع، والتاريخ بحثا عما يجب أن يروى؛ إذ يتيح للقارئ وعبر استراتيجية نصية، التعرف على أزمنة تاريخية فارقة في الخصوصية، يتطور بها المشهد الذي جمع "مريم" بـ"ناحوم" إلى مصوغ سردي يشهد على وجود رابط إنساني جمع بين "مريم" الفلسطينية، و "ناحوم" الصهيوني تحت شرط تاريخي مرير وهو الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، فكان اللقاء الأول الذي جمع بينهما في 1948 عام الانكسار، أي النكبة.

يستمر السرد في نص "ظلال المفاتيح" بتركيز محوري على لقاءات "مريم" بـ"ناحوم" ليمتد التفاعل بحركية توترية بين الطرفين في تصاعد لمشاهد سردية أكثر حيوية، وتعبيرا عن حاجة كلاهما للاعتراف بالآخر، وتقبله بسلام، وبما أن العيش المشترك لا يعني سوى ((قدرة الإنسان على تغيير طبيعته الاجتماعية وتحويلها إلى طبيعة اجتماعية عقلانية وواعية...)) وهي أروع شكل للكينونة والوجود مع الآخر<sup>2</sup>، فإن الحاجة إليه تكون أشد عندما يكون الإنسان في موقع الضحية، لذا فحاجة الفلسطينيين إلى الاعتراف والسلام، لا تكون بذات المستوى عند الصهاينة؛ لأن الخلاف تأصل بينهما على أسس صراع تاريخي بشع، إذ يتموضع كل واحد منهما في إطار من خصوصية ذاتية، أو هوية يتفرد بها كل واحد عن الآخر؛ فإذا كانت رغبة الفلسطيني في الاعتراف بحقه في الأرض، فإن الصهيوني رغبته في الحرب، والسيطرة لنسف الفلسطيني من أرضه أشد، وهذا ما تحمله ذاكرة "ناحوم" الصهيونية.

إن "ناحوم" لما اشتدت عليه الأزمة أصبح إنسانا لا يتذكر من ماضيه سوى أخطائه المرعبة في حق الفلسطينيين، فأضحى فريسة صحوة الضمير الإنساني، يقلب أخطائه

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، ظلال المفاتيح، ص:36.

<sup>2</sup> فتحي تريكي، جمالية العيش المشترك، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، مجلد 41، عدد

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

خوفا منها، ويهذي بماضيه الدموي، إذ يقر مذهبه الصهيوني أن قتل الفلسطيني البريء هو شرف يجب أن يناله حتى يستقر على أرض فلسطين، هذا ما يقر به حوار ه مع قائده في معسكرات الإسرائيليين ما يقر بذلك، يقول السارد: ((لم يجرؤ ناحوم على قتل الطفل، حين طلب منه قائد القوة أن يفعل ذلك.. انتزع القائد الطفل، وأطلق النار مباشرة في صدر الطفل، في قلبه، والتفت إلى ناحوم، يلزمك الكثير من الوقت لتتال شرف قتل عربي، منذ الآن عليك أن تفهم أن شرفا كهذا يحتاج منك أن تبذل كل ما لديك لتتاله، لأنني أراك حتى الآن مثل كثير من اليهود الذين يحلمون بالقدوم إلى هنا؛ لقد باتوا على يقين من أن فلسطين أصبحت لهم، لمجرد أن بلفور منحهم إياها، (..) لم يفهموا أن عليهم أن يسفكوا الكثير من الدماء كي يحققوا ذلك الوعد. احمل هذا العربي الصغير وألقه في الوادي.))<sup>1</sup>، مشهد سردي مرعب، يشهد بحق على سياسة الإجرام، والتكثيف التي تعمل عليها إسرائيل منذ أن وطأة أرض فلسطين، لتذهب بفعلها الشنيع بأي نية صادقة في الاعتراف بإنسانية الفلسطيني، أو الاعتراف بحقه في الحياة؛ لأن السبب متأصل في أنفسهم، بقناعة أن الفلسطينيين لا حق لهم في أرضهم، لذا وجب إبعادهم، وتغييبهم بتفكيك بنيتهم الاجتماعية والتاريخية، والجغرافية، وبالتالي يتحقق لهم مسح الأرض من الفلسطينيين.

وعليه، فمنطق النص بتأول سردي يسير نحو برهان حقيقة الفلسطينيين، والصهاينة حول قابلية الاعتراف بحق الآخر في العيش الكريم، وقد عبّر عنها النص بسردية تمثلت في علاقة "مريم"، و"ناحوم"، وتجلت أكثر تلك العلاقة من خلال مسار تاريخي كشف به نص "ظلال المفاتيح" عن خبث الصهاينة؛ فالفلسطيني يعترف للآخر الصهيوني بإنسانيته، في حين الصهيوني كان وفيا للشر المتأصل في ذاته، وحفده المستمر على الفلسطينيين؛ لأن علاقة "مريم" بـ"ناحوم" علاقة إنسانية يحمل فيها "ناحوم" دينا أخلاقيا لـ"مريم" لما أغاثته، وانتشلته من مصيبة الموت، وبناء على المرجعية المرعبة التاريخية لـ"ناحوم"، فلا يستغرب القارئ في انقلاب مشاعر الامتتان لدى "ناحوم"

<sup>1</sup> إبراهيم، نصر الله، ظلال المفاتيح، ص: 20.

إلى نقيضها؛ فخان "مريم" بتدمير قريتها "رأس السرو" وقتل، وهجر أهلها، وهي التي رأت فيه صورة لابنها، من هنا يقطع "ناحوم" دابر صحوة ضميره، وهو إذ يقدم تعليلاً يشهد على انتقامه من سكان القرية، حيث يهمس لنفسه: ((لو لم يكونوا مذنبين، لو لم يستحقوا العقاب، لما أرسلهم القدر إليّ لأنتقم منهم.))<sup>1</sup> ليواري "ناحوم" بذلك إنسانيته لحظة تذكره لما قدمت له "مريم" من حماية، وعون وهي تتحدى الوجود المضطرب في لحظات تصادم الفلسطينيين بالصهاينة.

إن لحظة وقوع "ناحوم" في بيت "مريم" هي لحظة ضعف شديدة عليه، لكن "مريم" احتوته بشعور إنساني لما أدركت ضعفه، وما زاد في عظمة هذا الفعل الإنساني هو الظروف الاستثنائية التي أحاطت بالمكان، هذا ما جعل "أبو جاسر" زوج "مريم" يتساءل عن "ناحوم" وهل تحتفظ ذاكرته بالامتنان للفلسطينيين، وهو سؤال يوازي سؤال العيش سوياً، يقول السارد عنه: ((ظل أبو جاسر في المكان يراقب ناحوم حتى رآه يخلع العقال والحطة، والقمباز، ويدسها تحت الصخرة، وهو يتساءل، هل سيجرؤ على حمل البندقية ثانية ليعود لقتالنا بعد ما قدمنا له من حماية؟))<sup>2</sup>، بخاصة أن الموقف الذي تعرض له "ناحوم" أمام "مريم" وزوجها "أبو جاسر" لا يتطلب سوى الوفاء سبيلاً للاعتراف بجميلهما.

وبما أن قابلية العيش بسلام بين الطرفين تتابعها القراءة التأويلية عبر استراتيجيات نصية تدلي بمنطق النص الفعال في انجاز هوية نصية فلسطينية قادرة على الاعتراف بإنسانية الصهيوني، وبالتالي ترفع عن ذاتها تلك الشوائب التي علق بها من طرف الصهيوني الذي نعت المقاومة الفلسطينية بالإرهاب، وبما أن العيش المشترك يعد ((سلوكاً

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، ظلال المفاتيح، ص: 56.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص: 37.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

إتقياً قيماً، وفعلاً حضارياً راقياً لتحقيق المواطنة الجديدة))<sup>1</sup> فإنّ سؤال التعايش بين الفلسطينيين، والصهاينة يبقى رهين الاعتراف بحقوق الغير.

ولعل المنحى القرائي الذي كشف به نص "ظلال المفاتيح" عن طبيعة الشخصية الصهيونية في إنكارها للحق الإنساني للفلسطينيين، امتثلت إليه شخصية "ناحوم" بنماء يتطور بفعل الرؤية النصيّة السردية التي تسعى إلى صوغ الفرق بين الجراد، والضحية، أو بين إرادة الحق، وإرادة تريد للظلم أن يظل قائماً ما دام يحقق لها السيطرة الاستعمارية على الإنسان والأرض، والتاريخ.

إن موقف شخصية "ناحوم" أمام الفعل الأخلاقي الذي احتوته "مريم" بقناعة، وحس نبيل كان موقفاً امتدادياً للأصل الصهيوني في تشريعهم للقتل، والتنكيل بالشعب الفلسطيني، لذا فاللقاء الثاني الذي جمع "ناحوم" بـ"مريم"، وإن كان لقاء شكر، وامتنان إلا أنه اكتفى بمجيئه عبر دبابة، لتقديم هدية لـ"مريم"، وكان ردها بقولها: ((أنت تأتي إلى هنا يا ناحوم حاملاً هداياك، ربما كنت سأفكر في قبول هديتك، لو أنك جئت تقول لي: يا أم جاسر، شكراً لك لأنك أنقذتني من ذلك الشخص الذي كنته، لأنني منذ ذلك اليوم فهمت معنى الحياة، ولم تمتد يدي لتلمس بندقيّة منذ ودعتك على مشارف قرينتك، ربما كان يمكن أن أقبل هديتك لو جئت تقول لي هذا يا ناحوم، ولكنك أتيت لتشكرني على ظهر دبابة، أنقذت حياتك وأنت أعزل، وجئت تشكرني على ظهر دبابة مدفعها موجه إلى صدري وظهور كل هؤلاء الذين قتلتم ألف مرة))<sup>2</sup> وعليه، فالصهيوني لا يتعظ بأخلاق لتحسين نظرتة للآخر؛ لأن أصله، ومنهجه الصهيوني يأمره بسفك الدماء الأبرياء، وفتك أرواحهم. —((الصور الأساسية المتواترة تصويرهم على أنّهم شياطين، فالشر لصيق بطبيعتهم، فهم يخربون أي مجتمع يعيشون في كنفه، وهم

<sup>1</sup> بن يمينة كريم محمد، أخلاقيات "العيش المشترك" وجدل الثقافات، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، ص 9.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، ظلال المفاتيح، ص: 89.

يحيكون المؤامرات عبر التاريخ للقضاء على الجنس البشري، ربما مثل إبليس منذ أن خرج من الجنة<sup>1</sup>. فهل بعد هذا يمكن أن يقول البحث بقابلية العيش المشترك بين الفلسطينيين، والصهيونيين، في ظل غطرسة الآخر الصهيوني؟

إن مسعى الشخصيتين في تكلمة مسارهما المتصارع؛ نحو حماية الذاكرة من النسيان بالنسبة للفلسطينيين، وأمام محو الصهيوني للفلسطينيين، ووفقا للأصل المرجعي الذي احتواهما كشخصيتين سرديتين تقومان بفعل تمثيلي رمزي لشعبين متصارعين، من أجل ذلك يواصل النص بمنطق المقارنة بينهما في صورة أكثر تفجعا لـ "مريم" في شتاتها بعد أن فقدت بيتها، وأهلها، وقربتها فـ ((من أكثر الأمور قسوة وغبابة، أن تشعر أنك بعيدا عن وطنك، في الشتات وأنت مازلت تعيش في ذلك الوطن))<sup>2</sup>، لكنها في مقابل هذا التشرد لم تفقد "مريم" ذاكرتها، وقدرتها على التذكر، واسترجاع معالم قربتها، وإعادة هيكلتها، ورسم معالمها، وبتحدٍ؛ فـ ((في مشهد عصي على التصديق))<sup>3</sup>، أكدت سردية نص "ظلال المفاتيح" من خلاله على مواصلة المقاومة الفلسطينية في حمل ذاكرة الشعب الفلسطيني، ليسخط الآخر الصهيوني، وينهار أمام عودة ذاكرة بيوت المشتتين الفلسطينيين، رغم أن "ناحوم" قضى على قرية "رأس السرو" منذ أربعين سنة بقتل أهلها، وتهجيرهم، ومحو معالمها، وكان حوارهم مع قائده بهستيرية جنونية، يقول: ((يبدو أنك لم تستطع تدمير هذه القرية تماما قبل أربعين عاما، يا ناحوم! (... ) لقد محتها كما رأيت بعينيك!\_ لكنك لم نستطع، كما يبدو، أن تمحوها من ذاكرة تلك العجوز! ناحوم، يبدو أنك لم تقم بأفضل ما لديك، فما هي ظلال البيوت، الأشجار، الأسوار، وها هو يخرجون\_ كما توعدون دائما\_ من ظلال مفاتيح بيوتهم التي طردناهم منها، البيوت التي نسفناها، ألم أقل

<sup>1</sup> عبد الوهاب المسيري، اليد الخفية، دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 2001، ص: 45.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، ظلال المفاتيح، ص: 63/62

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص: 135.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

لك: إن وجود ظل واحد، لبیت أو شجرة، أو لواحد منهم، سيكون بمثابة منارة ترشدهم، إذا ما فكروا في العودة ثانية؟ أرأيت يا ناحوم، هاهم يخرجون من ظلال مفاتيحهم، ويعيدون بناء كل شيء من جديد))<sup>1</sup>، قد يكون الصهاينة استولوا على الأرض الفلسطينية باغتصابها، وتكثيف شعبها واختراق التاريخ بتزييف حقيقة وجودهم على أرض لم تكن لهم، لكن ذاكرة الفلسطيني قائمة بظلالها التاريخية، وظلالها الجغرافية المتجذرة في أرض لم تطمس هويتها العربية، ولن تمحى حقيقة أن المأساة على الأرض الفلسطينية هي نتاج وجود خطأ تاريخي ساهمت في ترسيخه قوى استعمارية.

ضمن سردية "الملهاة الفلسطينية" يواصل نص "ظلال المفاتيح" في استيعاب هويته الفلسطينية المقاومة بطرح علاقة غير إنسانية جمعت الفلسطينيين مع الصهاينة؛ فـ"ناحوم" الذي لم يتقبل الجانب الإنساني للشعب الفلسطيني، ولم يعترف بحقه في الحياة، إلا أنه استوعب في لقاءه الأخير بـ"مريم" أن مسح الظلال أمر آخر لا تدرك جرافته، ولا دبابته، يقول السارد ميرزا انهيار "ناحوم" أمام ظلال ذاكرة البيوت الفلسطينية، التي قضى عليها منذ أربعين سنة: ((هياي لناحوم أنه يسمع قائده يصيح: الظلال يا ناحوم، عليك بالظلال. ثانية عادت الجرافة إلى الخلف، فرأى هناك ظلال تتكاثر، وعندما، أدرك ناحوم للمرة الأولى في حياته، أن دفن الظلال أمر آخر.

\_ قد تقتل شخصا ما، لكن لن تتمكن أبدا من أن تدفن ظله معه، كان يهمس لنفسه برعب، ويعيد.))<sup>2</sup>، إن النظر في مسألة تقبل الآخر بالنسبة للفلسطينيين، والصهاينة يجعل مسألة العيش مع الآخر في سلام مسألة واهية؛ لأن علاقتهما بنيت على تاريخ من الاستعمار والاعتصاب، وسحق الفلسطينيين، فتحقق عيش السلام بعيدا عن اعتراف الآخر الصهيوني بجرمه، يجعل المسألة مبتورة في غياب عدالة إنسانية تعترف بحق الفلسطينيين

<sup>1</sup>إبراهيم نصر الله، ظلال المفاتيح، ص: 135، 136.

<sup>2</sup>المصدر نفسه، ص: 136.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

في أرضهم، وحقهم في تقرير مصيرهم، لذا فحياة الفلسطينيين بدت أكثر شرفاً، وحرية في ظل المقاومة ومحاولة استرجاع الأرض، عبر سردية "الملهاة الفلسطينية".

من أجل ذلك يتراءى للقارئ أن العودة إلى وطن فلسطيني جزءاً قيماً في بناء هوية فلسطينية تريد أن يستقيم لها وجود بعثره الصهاينة، ويبدو سؤال العودة إلى الوطن الفلسطيني قد تمكن من سردية "الملهاة" وهي الساعية إلى بناء هوية فلسطينية سردية مقاومة، وبمعطيات نصية تاريخية أفرزت حلم العودة، فكيف كان سبيل النص إلى العودة؟، أو كيف رسم النص السردى العودة إلى فلسطين العربية، عبر متخيل مضاد؟

### المبحث الرابع:

#### حلم العودة إلى فلسطين.

يعد حلم العودة إلى فلسطين العربية بالنسبة للفلسطينيين معطى وجوديا، يتحرك ضمن أفق من الاحتمالات الممكنة سرديا، إذ تتكاثف من خلاله رؤيتهم إلى الهوية التي تتأسس بالذاكرة، والتاريخ، والمقاومة؛ فالهوية الفلسطينية، وإن كانت مأزومة تعيش مرحلة من التضييق التاريخي، وانسداد أفق الحرية سواء بالنسبة للمشتتين داخل فلسطين، أو خارجها، إلا أن حلم العودة إلى فلسطين يعيشه الفلسطيني في شتاته بيقين تام، أن هويته الفلسطينية ستري الانفراج، وأن الانسداد التاريخي سيرفع بعودته إلى وطنه فلسطين؛ ولأن الحلم إنساني كهذا يتأطر بفعل المقاومة التي تعمل على تصحيح مسار حكاية فلسطين التاريخية بكسب سردية قوية عن الهوية والذاكرة.

من أجل ذلك تكفل النص السردى "الملهاة الفلسطينية" ضمن بنية متخيلة بالمأساة الفلسطينية التاريخية، عبر مراحل من التشكيل الإبداعي تساق فيه مع تاريخ النكبة، والمقاومة، والشتات الفلسطيني، ليدعو النص قارئه إلى تتبع سردية الهوية الفلسطينية التي تبنى، وتتمو بفعل قرائى تأويلى لتاريخ الفاجعة، والمقاومة السردية، والوجود غير العادل لفلسطينى الشتات داخل، وخارج فلسطين.

إن معايشة أزمة الهوية الفلسطينية بالمنطق الإبداعي لنص "الملهاة الفلسطينية" يجعل الهوية الفلسطينية لا تكتمل سرديتها إلا بانفتاح النص على مشهد العودة إلى فلسطين، وهو مشهد انسل من أرواح الفلسطينيين قبل الكتابة السردية، ((وفي مستوى آخر تبقى الكتابة رهينة التعلق بأمل، أو لحظة العودة إلى الوطن (..) فثمة نسق ملازم من الحنين Nostalgia، والنظرة الماضوية للمكان، والزمن مازالت تكمن في وعى المنفى، أو المشتت.))<sup>1</sup>، وما دامت الكتابة السردية تنفتح على الممكن، والمحتمل من سرد الوجود، فإن السؤال النصي الذي يفصح عنه البحث في منعطف آخر من سعيه إلى قراءة سردية

<sup>1</sup> رامى أبو شهاب، في الممر الأخير، سردية الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالى، ص:25.

الهوية الفلسطينية، هو: كيف امتثل النص إلى حلم العودة إلى فلسطين، في خضم المأساة، والعناء؟

وحتى يتحقق للبحث ملامسة حلم العودة إلى فلسطين سردياً، لابد من تأويل يُفعل أحداث النص بما توحى به إشارات من حمل يومئ إلى هوية نصية تستقطب ثقل فواجع التاريخ، والمآسي الفلسطينية، ليس من أجل البكاء على الأطلال متحسراً باكياً على فقد الوطن، وإنما تجاوزاً لصدمة النكبة، والاقتراع، والشتات، أو لأجل استعادة الحكاية في فسح من السرد المقاوم التثويري والتحريضي؛ أي استعادة الهوية الفلسطينية سردياً، لفهم حكاية فلسطين التاريخية خشية الاستسلام، أو النسيان فـــــــ((هناك شيء إيجابي أساسي يجب ألا يتناساه أحد، لقد شرعت الضحية في الكلام، واستعادت حقها في السرد حاضرها، هكذا تبدأ الأشياء وتعود فلسطين إلى تاريخ العالم الذي طردت منه))<sup>1</sup>، وما القول السردي سوى تفعيل لتاريخ تم تغييبه، وتأويله بمنهج صهيوني يخدم مصالحه الاستدمارية، ولأجل استرداد الذاكرة الفلسطينية من مخالب الصهيونية كان لا بد من إدراج حلم العودة، ومعاينته ضمن تلك العلاقة الحميمة بينه، وبين الهوية الفلسطينية، من خلال تشكيلات سردية تصح مسار حكاية فلسطين، وتحمي الهوية الفلسطينية من عبث الصهيونية.

إن أغلب نصوص "المهاة الفلسطينية" مرت على حلم العودة بسبل سردية أفرزت نوعاً من التعبير عن حاجة واحدة للشعب الفلسطيني سواء داخل فلسطين، أو خارجها، وبوضعياته السياسية المختلفة، إلا أن حاجته في استرداد حقه بالعودة إلى فلسطين وحدت هويتهم، فالشعب الفلسطيني يرى في عودته إلى وطنه الذي ولد فيه، أو قريته التي نشأ فيها، أو بيته الذي اقتلع منه، ولا زال يحتفظ بمفتاحه في شتاته، هوية يجب استرجاعها، وهذا عماد وجودهم كجماعة تفعل هويتها بحلم العودة واسترجاع فلسطين، لينكف السرد عبر نمط من علاقات بين الفلسطيني، وحلمه تخلقت في أجواء من الظلم، والجور في

<sup>1</sup> الياس خوري، سؤال النكبة: الصراع بين الحاضر والتأويل، إدوارد سعيد و(مسألة فلسطين)، ص: 55.

المتخيل، ((فما يميز السرد ليس هو كونه صيغة للتلفظ، ولكن بالأساس، طبيعته عبر اللسانية. إنه يمثل خطاب الذات إلى العالم، يقوم بوظيفة الوساطة الرمزية))<sup>1</sup>، التي تطرح رؤية النص الفكرية في مستوى من التعبير المكثف، يفرض على القارئ التمييز بين الرؤية النصية المبنية على الصيغ المباشرة، والصيغ غير مباشرة وهي تمنح له مواصل البحث عن كيف تحرك النص ضمن فضاء العودة إلى فلسطين.

وبناء على هذا المسعى من قراءة نص "الملهاة الفلسطينية" في بناءه للحلم الفلسطيني، يستطيع البحث أن يرصد شهادات متابينة الموقع، والأداء من بعض نصوص الملهاة تمثيلاً للحلم الفلسطيني الموعود، والوضعيات التي اتخذها من موقع المقاومة السردية، فالحلم يبدو عند الفلسطيني أشبه باليقين الذي يستبعد معه كل ضعف، في مواجهة الانسداد التاريخي، والانتهاك الصهيوني؛ لأن النص استثنائي في تطلعاته لحلم العودة، فإذا قال البطل الخالد: ((أنا لا أقاتل كي أنتصر، بل كي لا يضيع حقي. لم يحدث أبداً أن ظلت أمة منتصرة إلى الأبد. إنما أخاف شيئاً واحداً: أن ننكسر إلى الأبد، لأن الذي ينكسر إلى الأبد لا يمكن أن ينهض ثانية، قل لهم احرصوا على ألا تهزموا إلى الأبد))<sup>2</sup>، فمن نبرة التحدي يتحدد موقف الفلسطيني من واقعه المظلم من خلال مقاومة حالات الانكسار، والانهازم التي يتعرض لها يومياً، وفي إصراره على مقاومة مستمر من تاريخ التحديات، وبالتالي يمهد للاستعادة حقوقه المسلوبة.

يضع نص "الملهاة الفلسطينية" هويته السردية ضمن مسار تأويلي يتشكل حول فهم حلم العودة إلى فلسطين من خلال علاقات المقاومة السردية بالأرض المسلوبة، وبالهوية المبتلات بالشقاء الصهيوني، وكل هذا يأتي في سياق السرد، أو الاعتراف النصي بحق الفلسطينيين في أرضهم لأن نص الملهاة لم يصغ عالمه إلا من ذلك الوجد الفلسطيني

<sup>1</sup> محمد بوعزة، سرديات ثقافية، ص: 33.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، زمن الخيول البيضاء، ص: 371، 372.

الممتد من مساحات شاسعة من وجود الاستعمار على أرض فلسطين، ابتداء من الاستعمار العثماني، إلى حاضر فلسطين الممزق.

وعبر هذا الطرح الاستثنائي حين تشبث النص بتاريخ يكشف به عن مأزق الهوية الفلسطينية المتمثل في سلب الأرض، ومسحها باقتلاع الشعب من جذوره الفلسطينية، كان على المقاومة أن تتفجر لدفع ضريبة حلم العودة إلى فلسطين، يقول البطل "ياسين": ((أفكر أحياناً، فأقول، كان يمكن أن نتخفف من كل هذا الموت، لو أن العالم يسمح لنفسه بين حين وآخر أن يكون أكثر عدلاً، يؤرقني أن فكرة جميلة كالحرية لا تتحقق سوى بجمال موتك، لا بجمال حياتك، وهو جمال يكفي ويفيض؛ يؤرقني أن البطل يصبح بطلاً أفضل كلما ازداد عدد الأموات حوله أو فيه، وأن أم الشهيد تصبح أكثر قدسية وبطولة حين يستشهد لها ولد آخر، يؤرقني أننا تحولنا إلى سلالمة لجنة هي في النهاية تحتنا، ولو كان الوطن في السماء لكننا وصلنا إليه من زمن بعيد))<sup>1</sup>، وما دام الوطن قد علق بين سيطرة الصهاينة، والحرية المأمولة لدى الفلسطينيين، وبين جغرافية الأرض المتجذرة تاريخياً، فإن سردية الملهاة تستوطن التاريخ لاسترجاع ما غيبه الآخر، في تمثيل سردي تبتغي من خلاله طرح سؤال العودة إلى فلسطين بما أنه سؤال الهوية الفلسطينية المأزوم، ————— ((تبرز مشكلة الهوية الفلسطينية بوصفها الأشد تعقيداً والأغنى إنسانية، والأعمق قومية، في التمثيل الأدبي، وذلك لعوامل عديدة من أخطرها المؤامرة الصهيونية المخططة لتذويب الهوية الفلسطينية العربية))<sup>2</sup>، بسحق الإنسان الفلسطيني، على أرضه، ومسح ذاكرة المكان.

وحتى يتحقق للملهاة الفلسطينية شرعية حلم العودة إلى فلسطين بطريقة تراجيدية إبداعية، فإن مفاعيل الحكي تستوطن الممكن، والمحتمل من حكاية فلسطين، وتسرد علاقة الإنسان بأرضه لإبراز هوية متجذرة في الأرض والتاريخ، مقارنة بالآخر الذي فقد أهلية

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، تحت شمس الضحى، ص: 62.

<sup>2</sup> حسام الخطيب، "عربسك" وبعض إضاءة لإشكالية الهوية الفلسطينية، ص: 8.

التعرف على خصائص المكان، ولعل هذا ما تكفل به نص "سيرة عين" في حوار جمع بين جاسوسين صهيونيين "ليفي، وموشيه" حينما تأمرا على أخذ صور للأمكنة الفلسطينية مع تغييب الإنسان، تمهيدا لدخول اليهود إلى فلسطين، أما المشهد فقد كان تشكيلا رمزيا إبداعيا يشهد بحق أن الصهيوني غريب عن الأرض الفلسطينية، وهو لم يألف ريحها أو ترابها.

يروى السارد: ((سمعوا غناء شحرور، وبدأت رائحة الورود أكثر وضوحا،

\_ هل تعرف هذه الرائحة، أعني هل تعرف رائحة أي ورد نشم الآن؟ سأل ليفي وقد اطمأن.

استنشق موشيه حفنة من هواء ملأت صدره، وصمت قليلا قبل أن يجيب:

\_ أهذا امتحان؟ لا لا أعرف. وأنت هل تعرف؟

\_ لا أعرف. قال ليفي وهو يضحك.<sup>1</sup>) وهذا ما يصب في غطرسة الصهيوني،

وهوس الغلبة التي لا تقهر في تحايله على العالم باستحواده على مكان ليس له.

وبهذا المستوى من الفهم الذي تفاعل مع الحكى نحو تأويل الماضي سرديا، لتعريف ما زيف الصهاينة من تاريخ وجودهم على أرض فلسطين، وبدخولهم المريب إلى فلسطين فـــــــ(إن فعل الروائي وهو يحاكي الفعل في الحياة يؤسس لعملية سردية ويؤلف توافقا وتتافرا بين الزمن والسرد اللذان تقع بينهما الهوية السردية مكونا جوهريا للإنسان.<sup>2</sup>)، الذي لجأ للسرد للاستعادة وطنه المفقود، وتعبيرا عن هويته المأزومة في صراعها مع الصهاينة حتى يدفع عن نفسه الطمس الذي لحق بها على أرضه، وبذاكرة تاريخية فلسطينية.

وعليه فدور السرد في تفعيل هوية فلسطينية تبتغي وجودا مستقرا، وحياة طبيعية على أرض الوطن، هو دوره في تفعيل لهوية ((كانت (..) موقعا داخل الذاكرة السردية

<sup>1</sup> إبراهيم نصر الله، سيرة عين، ص: 100.

<sup>2</sup> حاتم الورفلي، بول ريكو الهوية والسرد، ص: 137.

في المقام الأول، أي سيرورة تبنى ضمن إمكانات الفاعل، الفردي أو الجماعي<sup>1</sup>، ليشترك القارئ ضمن مفاعيل الحكى في بناء هوية سردية مقاومة على أساس فهم مقوم من مقوماتها، وهو فهم حلم العودة إلى فلسطين، فهما انطبع به نص "الملهاة الفلسطينية" بسعي فلسطيني نحو سردية لذاكرة تاريخية، ولنكبة 1948، وشتات فـــــــ (أي شيء يمكن أن يقال لياسين عن تلك الأيام لا يمكن إلا أن يصدقه، فقد كان مثله مثل سواه ممن وجدوا باب الوطن فجأة مفتوحا، فلم يصدقوا أنهم عادوا.)<sup>2</sup>، إلى وطنهم الأم فلسطين.

وبهذا المسار السردى نحو تفعيل المحتمل في حكاية فلسطين، وتأسيسا على ارتباط سؤال الهوية الفلسطينية، بالعودة إلى الوطن ارتباطا يفعل معه سرد لحظة اللقاء بالوطن، فإن الفعل السردى الذي احتوى الهوية في مشهد تاريخي هيا لها أن تكون العودة إلى فلسطين شرعية تتحقق ضمن سرد الذاكرة، والمقاومة السردية، يقول "ياسين": ((حين وصلنا إلى "عمان"، كان كل شيء فيّ يسبقني إلى هناك، إلى الجسر، وحين وصلنا إلى الجسر، رحت أبحث عن وجه أمي بين الناس، رغم أنني أعرف أنها رحلت منذ أكثر من عشرين عاما، وحين لم ألمحها، قلت سأراها في البيت امرأة بعمرها، لم يكن بإمكانها الوصول إلى هنا. قليلون هم أولئك الذين يقفون في حياتهم موقفا كهذا، أن يعودوا إلى أوطانهم، وهو يعرفون أنهم يعودون إليها ناقصة))<sup>3</sup>، ولذا فلم العودة إلى فلسطين وبناء على ما تحمل نص "الملهاة الفلسطينية" من مآسى، وعناء فلسطيني في برمجة لاستراتيجيات نصية تعتمد التاريخ والمتخيل، وتغوص في واقع المشتتين، فإنه (الحلم) يبقى معلقا في وجدان المشتتين الفلسطينيين بحنينهم إلى وطنهم، واسترجاع ذكرياته، والاحتفاظ بمفاتيح بيوتهم، لأن ((الشعب الفلسطيني له عشق خالص وحنين شديد لوطنه

<sup>1</sup> سعيد بنكراد، السرد ومعنى الحياة، مجلة علامات، العدد: 52، 2019، موقع المجلة:

<https://alamat.saidbengrad.net/?p=7246> ، ص:5.

<sup>2</sup> إبراهيم نصر الله، تحت ضحى الشمس، ص: 42

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص: 42، 43.

### الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

وأرضه، وهذا ما مثل أبرز الخصائص للذاكرة الجماعية الفلسطينية، بحيث فاضت ذكريات الفلسطينيين بالرغبة والشوق إلى ديارهم وأرضهم قبل النكبة، ومهما مضت السنوات استطاع الفلسطينيون أن يتذكروا بسهولة بيوتهم والشوارع حولها بجميع تفصيلاتها، كأنهم لم يفترقوا أو يبتعدوا منها أبداً<sup>1</sup>، وهنا تمثل حلم العودة في ذاكرة النص مقاومة سردية انتشلت هوية الفلسطينيين من النسيان، أو الاستسلام لخطرسة الآخر الصهيوني.

وفي مجمل حديث النص، وما قاله عن حنين المشتتين إلى ديارهم، وقراهم، وحلم العودة إلى الوجود الطبيعي الذي انطبعت به فلسطين قبل النكبة، فإن النص وبقوة ما حدث، وما يحدث على أرض فلسطين من ظلم، وقهر، وانتهاك ((يقوم بفرض تمثيلاته على الآخر، ينهض في مواجهه خطاب مضاد، ينزع إلى التحرر من إطار التمثيلات السيئة، وذلك بإعادة امتلاك قوة التمثيل، التي تتيح له بذل سرديات بديلة))<sup>2</sup>، ترفع المقاومة الفلسطينية إلى مجال أوسع، وأكثر قوة هو مجال الوعي بالحرية، ووعي الفلسطينيين بإنسانتهم، وتاريخهم المغيب.

لأجل ذلك فلم العودة تشكل في النص "الملهاة الفلسطينية" ضمن مقومات تاريخية للهوية الفلسطينية؛ حيث امتثلت للقول السردى في الذاكرة الجماعية للشعب الفلسطيني، والتي تعينت أكثر في فاجعة النكبة 1948، والمقاومة التي اتخذت من الكتابة السردية مجالاً لمعاينة وفحص ما حدث من مآسى، وكوارث غير إنسانية على أرض فلسطين، فكانت حرية الفلسطيني لا تكتمل إلا بموت استثنائي يحيا فيه شهيداً، وأمام فوضى من التاريخ المرعب الذي اخترق فيه الصهاينة كل حس إنساني، تعلق المشتتون الفلسطينيون بأمل العودة إلى الوطن تمثيلاً لهوية قائمة في أرواحهم، وتجاوزاً لصدمتهم، وإصغاء لوطنهم فلسطين .

<sup>1</sup>لونغ يالينغ، ذاكرة النكبة وتأثيراتها في تبلور الهوية الفلسطينية، ص: 23

<sup>2</sup>محمد بوعزة، سرديات ثقافية، ص: 59، 60.

## الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.

---

خاتمة

## خاتمة:

تهياً نص "الملهاة الفلسطينية"، بنصوصه المتعدّدة، والمختلفة لصياغة عوالم متخيّلة تسقى من عين الواقع الفلسطيني المأزوم، ومن إشكاليّة الوجود المتعثر، ما أوحى للتأويل بأن يكون السند المنهجي في قراءة إشكاليّة نصيّة تخلّقت من التحام المتخيّل بالواقع، والتاريخ بالراهن، مما دفع التأويل بالسؤال النصّي إلى التجلي بناء على الأصل المرجعي التاريخي، والجغرافي، بحثاً عن سياق انبعاث إشكاليّة الهوية الفلسطينية، التي أوحى بها النص من جذورها التاريخية و جغرافيتها المفقودة، وفقاً لرؤية سردية، انبثقت من حركيّة النص نحو تشكيل سردية مضادة لسردية استعمارية صهيونية.

وضمن حركيّة السرد تتصاعد حيويّة تاريخ الهوية الفلسطينية، من الفاجعة والاقْتلاع والشتات، إلى مواجهة الآخر النقيض، إلى حلم العودة، اندرجت ضمنه مقاومة سردية أفضت إلى وجود هويّة فلسطينية غير مستقرة إلّا في روح الفلسطينيين، سواء داخل فلسطين أو خارجها بسبب الشتات الذي أخرجهم من الوجود الطبيعي؛ فالشعب الفلسطيني قد توزع في غير مكان من هذا العالم، بعد الاقْتلاع ونكبة 1948؛ بين عرب إسرائيل لازالوا يكافحون من أجل البقاء على أرض فلسطين، وسكان "غزة" و"الضفة الغربية" وما يعانونه من صدام يومي مع الاحتلال الصهيوني، أما الذين هُجروا خارج فلسطين فوضعيتهم تختلف من بلد إلى بلد، ومن ملجأ إلى آخر، وهذا ما جعل الهوية الفلسطينية غير مستقرة لوضعيات مختلفة بين الشعب الواحد، وضمن هذا الشرط التاريخي المعاش، تنبثق الهوية الفلسطينية كسؤال إشكالي وجودي نافذاً في مواجهة الإحراج الذي أحدث فاعليّة في مفهومها، بدل طمسها، أو مثلما خطّ لها الصهاينة فأضحت مفهوماً إنسانياً، وتاريخياً وجغرافياً، مستمراً في حاضر الفلسطينيين مثلما كان في ماضيهم.

وعلى أساس وجود الهوية الفلسطينية وجوداً متعالقاً بالسرد، والمتخيّل أقام النص مع قارئه علاقات تفاعليّة، تحركت ضمن حراك جدلي لإثارة أسئلة النص، التي تكفل بها

التأويل في مهمة لفهم أصل حكاية فلسطين، حول موقعها السردى، وتشكيلاتها الإبداعية، فكانت استراتيجيات نصية توجيهية لعملية الفهم، وهي لم تحد عن رؤية النص الفكرية في سرديته للهوية الفلسطينية، هوية سردية متماسكة بتاريخها، وبجغرافيتها المعلقة بمصائر الفلسطينيين داخل، وخارج فلسطين، وعليه كانت جملة النتائج التي انتهى إليها البحث، ضمن مسار القراءة التأويلية، فيما يلي:

1\_ اتسمت مفاهيم هذه الدراسة ("الهوية"، و "الهوية الفلسطينية"، "الهوية السردية"، "السرد والتأويل") بحركة زمنية تاريخية، أملت عليها عدم الاستقرار، وعدم الثبات في أسس معرفية محددة في تعريف معين، من أجل ذلك حدت المفاهيم وفق شروط تاريخية، وفي علاقات جدلية تخلقت ضمنها:

أ\_ كان مفهوم "الهوية" في تدفقه وحيويته مفهوما معلقا بشرطه التاريخي، والمعاش، وهو سياق التآزم الذي بعث به إلى وجود منعش لمفهومه كسؤال إشكالي وجودي نافذا في مواجهة الإحراج الذي أحدث فاعلية فيه، وانتقل به من حدّ الوجود الساكن إلى حدّ الوجود التاريخي، وما تمايزه إلا لارتباطه الحاسم بتجربة إنسانية شديدة الخصوصية، هذا ما جعله مفهوما حيويًا متفردًا فذًا، يستمد أصالة وجوده من المعيش اليومي لتلك التجربة.

ب\_ إن "الهوية الفلسطينية" لم تتحدّد إلا وفق شرط تاريخي أحيى المفهوم على نحو جدلي تراكمت فيه السياقات التاريخية؛ فالفلسطيني أضحي يعرف بالنكبة، والمقاومة والشّتات والحرية، وهذا وجود تاريخي جعل "الهوية الفلسطينية" في حالة مستمرة في الزمن، قابلة للإضافة من النكبة، إلى النكسة، إلى المقاومة، إلى الشّتات، إلى الانتفاضة، إلى حلم العودة.... إن التجربة التاريخية هي التي طغت على الهوية الفلسطينية، وهي لا تعرف إلا من خلالها، لذا فالهوية الفلسطينية تاريخية بطبيعتها الإنسانية والجغرافية، ولم تفقد بعد أسباب وجودها، فهي تعاني من أزمة وجودية، لا من أزمة فقدان في علاقة إشكالية أساسها الصراع مع الآخر الصهيوني الذي أبدع بحق في أزمة الهوية الفلسطينية.

ت\_ إن السرد يكون الهوية، بإعادة تحبيك التجربة الإنسانية للجماعة، وإن الهوية تتكون من خلال السرد، فإذا تم للتجربة الإنسانية أن تتشكل سردياً، فإنها تخرج من دائرة التحقق المجرد، إلى دائرة التحقق المجسد الملموس، ليتجلى وجود الجماعة بوساطة سردية تقوم على التاريخ والخيال معاً، محققة بذلك هوية سردية قائمة على السرد، وهي مرهونة بوجوده؛ أي كلما كان السرد فاعلاً في زمن الجماعة كانت الهوية علامة على حضورها حضوراً داعماً لوجودها وتماسكها، وتكون الجماعة أكثر تحكماً في مصائرهما كلما استمر سرد حكاياتها، وتبقى هويتها ما بقي سردها التاريخي والمتخيّل قائمان.

ث\_ امتثل السرد للتأويل في علاقة تفاعلية انتشلت النص من منطقة الكمون إلى منطقة القراءة التأويلية، وهي منطقة يغدو فيها السرد ممارسة تأويلية للإنسان والوجود معاً؛ فتسريد الحياة بوساطة اللغة فعل تأويلي بامتياز، والذي فرض التأويل قراءة للنص هو التحام السرد بالواقع التحاماً كسر به الإنسان كل الحواجز، أو كل ما من شأنه أن يزيّف تاريخه، أو يلغي هويته، هكذا تخلق السرد ضمن سيرورة تأويلية تجمع بين العالم الواقعي بإشكالاته وأزماته... واللغة الإبداعية بإشاراتنا وإيحاءاتها...، والمنتج هو عالم النص، أو "البنية الافتراضية" التي تتطلب قارئاً يكشف معناها ويخرجها إلى الوجود، بناء على ذلك تغدو القراءة التأويلية فعلاً إبداعياً، مشروطاً بمدى معايشة، ومشاركة القارئ للنص في بناء المعنى الذي يبقى قيد التأجيل وحسب كل قراءة أن تحقق منه دلالة ما احتمالية ممكنة يقبلها النص إلى حين، لتتجلى غاية المقاربة التأويلية في السرد، في كونها ليست استحواذاً ولا امتلاكاً للنص، بل غايتها هي مصاحبة النص في اختلافه، والإصغاء له بوصفه الآخر الذي يحدث التواصل بين الذات وذاتها، وبين الذات وعالمها، وبين الذات وذوات أخرى مغايرة عنها، فالقراءة التأويلية محتملة، وفي احتمالها ما يقر بأنّ النص منفتحاً على الإنسان والعالم معاً.

2\_ وبناء على علاقات مفاهيم البحث؛ التي بنيت على علاقة تاريخية بمعية الهوية، وعلاقات تاريخية تأزمت فيها الهوية الفلسطينية بالصراع الصهيوني على الأرض، إلى

علاقات تفاعلية جدلية انتظم فيها السرد بإشكالات التاريخ، والراهن الفلسطيني فهما وتأويلا، انطلق البحث في مقارنته لإشكالية نص "الملهاة الفلسطينية" ضمن هوية سردية تشمل مساحات تاريخية طويلة المدى انتظمت وفق رؤية النص الفكرية، فكان مسار القراءة التأويلية يجري نحو بناء أجوبة لأسئلة طرحها النص، وتكفل بها كل فصل حسب مهامه التي أوكلت إليه، ضمن رؤية نصية فرضت استراتيجيات توجيهية لعملية فعل القراءة، ومن جملة النتائج التي توصل إليها البحث في مقارنته لسؤال ذاكرة النص بين التأويل التاريخي، والتمايز السردى، كانت كالتالي:

أ\_ حقق عنوان "الملهاة الفلسطينية" هوية نصية إبداعية، تجلت أكثر من خلال ذاكرته التاريخية التي عدت بحق كينونة سردية تسربت إلى النص بعلاقات قرآنية جدلية بين النص والقارئ لما أشار إليه العنوان من كثافة تركيبية أومأت إلى القارئ بذلك الزخم من العلامات والدلالات التي احتواها النص في عوالمه الممكنة، وكشف العنوان بتركيبته اللغوية عن معطيات دلالية منحت للقارئ أفقا معرفية مكنته من فتح مسار تأويل النص وقراءته قراءة تتأسس على اكتشاف علاقات جدلية نتيجة لاقتران العنوان بالنص تسميةً، وتعريفاً واقتران النص بالعنوان اختزالاً، وتكثيفا.

ب\_ يتخطى العنوان "الملهاة الفلسطينية" المؤلف، بارتباطه سرديا بالقضية الفلسطينية ويستفرد بدلالات تقرها كلمة "فلسطين"، وتبعث بإشارات تؤكد على تلاحم الأضداد، ضد كل أشكال التكرار، والاختزال لكلمتي "الملهاة"، و"المأساة"، حيث تمثلان واقعا مؤلما يرغب في الانتفاضة ضد كل أشكال القهر، والنسيان، ضمن سيرورة تاريخية استرجاعية احتواها السرد بتخيله، وفي سياق تأويلي يقر بهوية النص الفلسطينية.

ث\_ تحرك عنوان "طيور الحذر" ضمن فضاء فلسطين، فضاء الإكراهات والمآزق متقلا بدلالاتها التاريخية المتخيلة؛ إذ يغدو ارتباطه بفلسطين عنوانا مسكونا بالنعاء

والصراع والعبء الثقيل، وتغدو فلسطين معه في منطقة الخطر والحذر من الآخر الذي يقف بينها وبين حريتها.

ج\_ تكفل عنوان "ظلال المفاتيح" بفتح النص على إشكاليات واقعية وتاريخية تتعلق بالإنسان الفلسطيني المعذب الذي أبعد عن أرضه وتشتت في وجوده، وسعى للاستعادة صوته وهويته، و ثمة أفراد لرمزية "المفتاح" المنقل بكثافته التاريخية عن الوجود المسلوب ليعلن به النص عن علاقة جدلية بين حق عودة الفلسطيني إلى وطنه الذي سلب وسرق منه أيام الاقتلاع، ومفتاح بيته، فيما أضحى كل واحد يفضي إلى الآخر "المفتاح وحق العودة" في علامة مطلقة تؤرخ إلى ذلك الحق المسلوب، فأضحى عنوان "ظلال المفاتيح" صرخة تسمع بالوصول الممكن والمحتمل إلى فلسطين من منطلق النكبة، والشتات، والمقاومة... إلى الحق الشرعي بالعودة عبر ظلال المفاتيح.

ح\_ إنَّ فاجعة النكبة هي الصدمة التاريخية الفاعلة في اللحظة السردية لنص "الملهاة الفلسطينية"، فالنص بقدر ما كان تمثيلاً لفاجعة النكبة كان تأويلاً لذاكرة الفلسطينية وللتاريخ، وتجاوزاً للتزييف السردية الصهيونية. وإذا كانت فاجعة النكبة هي اللحظة العنيفة التي فتكت بالشعب الفلسطيني وقطعت عنه مجرى حياته الطبيعية بتغيرات درامية انمى معها كل ماضي سعيد، بحاضر عنيف، إلا أنها فرضت بتجلياتها السردية المختلفة ذاكرة جمعية قوية، توغلت في نفسية كل فلسطيني حتى أضحت ذاكرة تسري في عمق التاريخ، وتبحث بنهم شديد عن المصير المرعب للفلسطينيين، تحملاً واحتمالاً، قصد سرده، وتأويله برؤية لا هم لها سوى الاعتراف بالوجود التاريخي لشعب الفلسطيني.

خ\_ ورغم أن النكبة هي سؤال الرهبة، والرعب، وشناعة الفعل الإنساني... إلا أنه يعد سؤالاً للهوية أيضاً الذي لا يكف عن العودة مجدداً، بأشكال متعددة سردياً، وما عودة نص "زمن الخيول البيضاء" إلى ما قبل النكبة لدليل سردي على التراجيديّة الفلسطينية التاريخية، التي امتثلت سردياً وفق منعطف تاريخي هياً لحدث الفاجعة باعتباره الحدث المحوري للسردية الملهاة والمأساة الفلسطينية، بأن يمهد للحظة الخروج،

والاقتلاع، بوصفها لحظة الوعي الأساسية التي ثورت الهوية الفلسطينية من ذاكرة الوجد، واندفعت به إلى لملمة شتات الفلسطينيين، وانتظمت مقاومة في مواجهة الآخر.

د\_ امتثلت أهمية النكبة في تحقيق الهوية الفلسطينية كفاحا وليس انكسارا، وتجاوزا وليس بكاء، وما عودة نص إلى ما قبل النكبة إلا لاستعادة الشعب الفلسطيني قدرته على قول الفاجعة سردا وتاريخا، وبالتالي تخطى الجرح الغائر، وتجاوز صدمة الاقتلاع حين تحولت الحكاية إلى ذاكرة سردية تاريخية جماعية، تبني الهوية الفلسطينية وفق سيرورة إمكانات الفرد والجماعة. بخاصة إذا كان كل ما يخوض فيه نص "الملهاة الفلسطينية" هو سؤال الوجود الإنساني في بحثه عن الهوية بما أنها الهم الذي يحدّد وجود الفلسطيني على أرضه بسؤال إشكالي لا يكف عن معاودة الظهور مجددا خوفا من المسح والنسيان.

ذ\_ اقترن السرد بالتاريخ في سياق البحث عن الهوية الفلسطينية، تفعيلا لأحداثه كتابة، للتجربة الإنسانية؛ لأن وجود التاريخ في ضيافة السرد، وجودا لإعادة تصوير التجربة الإنسانية في سرد تاريخي متخيّل أشكل براهن مأزوم، بغية استعادة الأرض والإنسان وهويته، وهذا الوجود السردى للتاريخ تحدّده القراءة التأويلية أكثر مما تحدّده حقائق تاريخية بعدما أعيد تهيئتها، وتشكيلها وفق حبكة سردية استدعت قارئها، لإعادة اكتشافها، والتفاعل معها وفق استراتيجيات نصية تقترح مسارات القراءة والتأويل. فنص "قناديل ملك الجليل" غطى أكثر من 250 سنة من تاريخ فلسطين، ومن زمن الإبادة، والاقتلاع والحرق، والنهب، امتدادا للنص الرئيسي (الملهاة) الذي تشكل ضمن مسوغات سردية دينامية نافذة في معضلة الشعب الفلسطيني وواقعه اليومي، محققا بذلك هوية سردية فلسطينية تستقي متخيّلها السردى من التاريخ.

ر\_ تلك هي علاقات التواضع بين السرد والتاريخ، وأكثر ما اتضح هذا التعالق في انتعاش التجربة الإنسانية المسكونة بالمتخيّل والمحمولة على التاريخ، والتي قيلت بالخيال الذي كان سبيلا لقول حقيقة أن فلسطين متجزرة وموجودة تاريخيا، وعلى هذا النحو تنتظم هوية سردية دفاعية ضمن نص "قناديل ملك الجليل" يعود بها الإنسان الفلسطيني

إلى ذاته لكتابة تاريخه ك لحظة امتلاك بعدما غيبه الآخر، ويرفع بها همته لمواصل انجاز سردية فلسطينية مقاومة للسردية الصهيونية.

ز\_ إن محكي الذات في نص "طيور الحذر" هو النموذج الأمثل لبناء هوية سردية قادرة على ترميم واكتشاف أغوار النفس والغوص في عوالم تجربة ذاتية مختلفة عن ما ألفناه عن السير الذاتية. فالقارئ لا يعثر في النص على هوية المبدع بقدر ما يجد هوية سردية ذاتية تجاوزت حدود الفرد، إلى تمثيل رمزي عن عناء الجماعة في نزوحها وفي بعدها عن الوطن وعلى أرض التيه والشتات، تسرد الذات عناء الشعب الفلسطيني المحروم من الإنسانية ومن الاعتراف، لتكون بذلك منبعاً للهوية، التي تحدّد انتمائها الفلسطيني في محكي استعادي، تبتغي من وراءه فهم وضعيتها حيال راهن فلسطيني مأزوم، وتكشف به عن تاريخ شعب تم حذفه واختزاله وفق رؤية صهيونية استعمارية. وعليه فنص "طيور الحذر" وإن كان سيرة ذاتية إلا أنه سيرة للشعب الفلسطيني، أساسها سرد الذاكرة الجماعية، التي حملت في ثناياها صوراً للقهر والمعاناة في الشتات والمخيم بعد الاقتلاع.

3\_ وبناء على هذه النتائج ولد سؤال المقاومة الذي احتوى الهوية الفلسطينية ضمن سردية انتظمت من خلالها كفاحاً ومقاومة، فكانت نتائج الهوية الفلسطينية من أفق السرد إلى أفق المقاومة. كالاتي:

أ\_ تكفل نص "تحت ضحى الشمس" بالمقاومة الفلسطينية التي انتظمت فيها الهوية وغدت هوية سردية تتطلب فهماً وتأييلاً، وعلى النحو الذي لا ينهي الحكاية، ولا يعدمها بل ليضعها في موضع المابين؛ بين نهاية أرهقت الإنسان الفلسطيني، واستنزفت روحه، وبداية ولدت من رحم الهزيمة والانكسار، لتحيا حكاية فلسطين بفعل المقاومة كفاحاً، وقراءة يتبناها السرد لا بما إنها ردة فعل على الصهيوني فحسب، وإنما مرحلة حياة، يحيا فيها الفلسطيني إنسانيته، ويكوّن هويته وكيونته الفلسطينية من الواقع المعيش، وينتصر للصوت الفلسطيني بالسرد إصغاء واعترافاً، فالمقاربة التأويلية تفعل هذه الرؤية

كتجربة إنسانية، بالامتثال لشخصية "ياسين الأسمر" التي تحملت في ذاتها موقفا يتجه بالمقاومة نحو الاستمرار، ونحو نموذج اكتملت معه الصورة الدرامية للمقاومة الفلسطينية التي لم تقهر عبر تاريخ طويل من مواجهة الاستعمار، ليس بفعل قوة كسبتها الشخصية السردية فحسب، بل بفعل إرادة الحق حين تتخلق معها رؤية فكرية تتاهض الآخر في استراتيجياته الوحشية المبتذلة، وهي وجهة نظر تتحكم في نص "تحت ضحى الشمس" لتصل به إلى الانفتاح على العالم الخارجي.

ب\_ إن الكتابة السردية في "سيرة عين" مغامرة فكرية مقاومة للوجود الصهيوني على أرض فلسطين، فقد كان النص نموذجا لفهم دور الكتابة السردية في تجلي المقاومة، لاقتران السرد بالتوثيق التاريخي اقترانا مكنه من خوض تجربة الانتهاك الصهيوني للإنسان الفلسطيني بتأويل صهيوني يحرف التاريخ ويخضع لنزواته الاستعمارية المدمرة، وما كان على القراءة إلا معاينة الحكاية من منطلق التضاد، والتصادم في جدلية الغياب والحضور، أو جدلية حقيقة الوجود الفلسطيني المتجذر في أرضه، والخديعة الصهيونية التي عملت على إزاحته، فلم يكن أن يستوعب النص "سيرة عين" إشكالية الوجود الفلسطيني المغيب، والتأويل الصهيوني المنحرف إلا بتوثيق تاريخي، يثور الحكاية على نحو متخيل يكون القارئ طرفا فاعلا فيه.

ت\_ امتثل نص "أعراس آمنة" للمقاومة الفلسطينية، واصطنع لنفسه مسارا مختلفا لأفق المقاومة السردية المضادة للسردية الصهيونية، حيث انتشلت الأشياء من ألفتها وطوعتها وفق صمود الفلسطينيين أمام مأزقهم التاريخي، وعبثية الاستعمار الصهيوني، من أجل ذلك استوعب النص فاجعة الموت، استيعابا أدى به إلى الانتصار على الواقع المهزوز، بتطويع أحزانهم إلى أفراح، تحقيقا لعنوان نص "أعراس آمنة"، ومعاودة للوجود المهتد والمتعثر الذي شحن الفلسطيني ثباتا وسمودا، وبالتالي أعاد تأمين علاقته بذاته وبالعالم، باستيعاب وتطويع الفوضى التي ألحقها به الصهيوني، من أجل الوصول إلى هوية فلسطينية مقاومة، وقادرة على العيش ضمن واقع من إكراهات الآخر.

ث\_ إن مفهوم الحرية الذي سعى إلى بنائه نص "طيور الحذر" ليس مفهوما مطلقا لا وجود له إلا في الذهن، وإنما هو مفهوم سعى إلى بناءه وتركيبه، من تثوير تجربة حياة استوطنت الممكن والمحتمل من أجل الاعتراف بحق الفلسطينيين، وحقهم في الحياة، وحقهم في الاعتراف، وحقهم في الحرية، وحقهم على الإنسانية أن تتصت وبحذر للصوت الفلسطيني المقهور، وأن تصحح خطئها التاريخي، حين استبدلت دور الضحية/فلسطين بدور الجلاد/الصهيوني، وخذلت الفلسطينيين بقهر شديد. إن الحرية هي عقد هووي أبرمه نص "طيور الحذر" للأخذ بيد الفلسطينيين المشتتين إلى فضاء الحرية في المتخيل، وبالتالي فالحرية المقترحة من طرف نص "طيور الحذر" هي شكل من أشكال الوجود في السرد، والحياة الممكنة أيضا.

4\_ وبناء على هذه النتائج توجه البحث إلى الشتات الفلسطيني، ومسارات تأويل الهوية. باعتبار الشتات مركزا لتشويش الهوية الفلسطينية ضمن فضاء من السرد والمتخيل اللذان التحما بالواقع، ومن جملة ما توصل إليه البحث وهو يقترب من دلالات الشتات في السرد:

أ\_ إن المعرفة التي يتيحها سؤال الهوية في موقع الشتات، والمنفى القسري، والتهجير المبعثر للشعب الفلسطيني، لهو الإشكال الذي راهن عليه نص "طفولتي حتى الآن" سرديا في محاولة منه لتمثيل تفاصيل المأساة، مأساة المبعدون من أرضهم.. ، ومحاولة القبض على لحظات التفجع، والتقاط معاناة الشعب الفلسطيني في منفاه القسري، بتربق لحظات ترحالهم ومواجهة الموت، وهم في طريق حياة الإكراه، وكأن السرد هنا يواكب الحدث الحقيقي، ويؤرخ له من منظور المحكي الذاتي، الذي استوطن السرد بحثا عن هوية سردية تعيد الاعتبار للمهمش، ولتجذره التاريخي والجغرافي، فنص "طفولتي حتى الآن" استثنائي في تشكيلته السردية، إذ تمثلت في تشتت الذات ضمن زمن لا يمكن القبض عليها إلا وهي سائرة نحو انسداد تاريخي لفلسطين، في مقابل ذلك فتحت سردية

النص أفقا من التحدي والسمود في تمسك الفلسطيني بهويته في مكان أكثر ظلمة وقهرا إنه الشتات خارج فلسطين.

ب\_ إن نص "أرواح لكليمنجارو" فيما حمل من برهن سردية على أن وجود فلسطيني الداخل في أرضهم وجودا غير سويّ، وغير مستقر، إلا أنه وصل بمعية الشخصيات السردية، إلى قمة مقاومتهم في تحديهم للخطأ التاريخي، عبر سرد يوميات، وتفاصيل صراعهم مع الصهاينة، فكلها اشتد عليهم الصراع اشتدت مقاومة وسمود الفلسطينيين، لتتداخل في ذلك قصص الذاكرة في بناء متماسك، أفضي بنص "أرواح كليمنجارو" إلى خلق مساحات من فهم واقع من الإكراهات يمارس على الشعب الفلسطيني، من طرف الصهاينة.

ت\_ أكدت سردية نص "ظلال المفاتيح" على مواصلة المقاومة في حمل ذاكرة الشعب الفلسطيني، فالصهاينة استولوا على الأرض الفلسطينية باغتصابها، وتكثيف شعبها واختراق التاريخ بتزييف حقيقة وجودهم على أرض لم تكن لهم، لكن ذاكرة الفلسطيني قائمة بظلالها التاريخية، وظلالها الجغرافية المتجذرة في أرض لم تطمس هويتها العربية، ولن تمحى حقيقة أن المأساة على الأرض الفلسطينية هي نتاج وجود خطأ تاريخي ساهمت في ترسيخه قوى استعمارية.

# قائمة المصادر والمراجع

### قائمة المصادر والمراجع:

أولاً\_ المراجع باللغة العربية:

1/ قائمة المصادر:

أ\_ المدونة:

- .....، مجرد 2 فقط، الملهاة الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط2، 1999.
- .....، أعراس آمنة، الملهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، بيروت، ط1، 2009
- .....، **تحت شمس الضحى**، الملهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرو، بيروت، لبنان، ط2، 2009.
- إبراهيم نصر الله، زمن الخيول البيضاء، الملهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط6، 2012.
- .....، قناديل ملك الجليل، الملهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان بيروت، ط1، 2012.
- .....، طيور الحذر، الملهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط5، 2012
- .....، أرواح كليمنجارو، الملهاة الفلسطينية، دار بلومزبري، مؤسسة قطر للنشر، قطر، ط1، 2015.
- .....، سيرة عين، الملهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان بيروت، ط1، 2019.
- .....، طفولتي حتى الآن، الملهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرون، الشارقة، الإمارات، ط1، 2022.
- .....، ظلال المفاتيح، الملهاة الفلسطينية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2019.

- 2/ قائمة المراجع:
- ب \_ المراجع العربية:
- إدريس الخضراوي، سرديات الأمة، تخييل التاريخ وثقافة الذاكرة، في الرواية المغربية المعاصرة، أفريقيا الشرق، المغرب، 2017.
- .....، الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2012 .
- .....، الأدب موضوعا لدراسات الثقافية، جذور للنشر، الرباط، المغرب، ط1، 2007
- أسامة غانم، جدل التأويلية، الكتابة/النص، القراءة/الفهم، الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2022.
- خالد بالقاسم، مرح القراءة في البحث عن المعنى، الناشر: وزارة الثقافة والرياضة، قطر، مارس 2020.
- جريدة غانم، ضحيوية الفلسفة والوعي بالهولوكوست، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2019.
- رامي أبو شهاب، في الممر الأخير(سردية الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالي)، دار فارس للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2017.
- رامي أبو شهاب وآخرون، قضية فلسطين، ومستقبل المشروع الوطني، الجزء الأول: في الهوية والمقاومة والقانون الدولي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، ط1، 2015.
- عادل مصطفى، فهم الفهم، مدخل إلى الهيمنوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادير، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2008.
- عبد الحق بلعابد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.

- عز الدين المناصرة، الهويّات والتعدديّة اللغويّة (قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن)، الصايل للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2013.
- عبد الفتاح القلقيلي وأحمد أبو غوش، الهوية الوطنية الفلسطينية، خصوصية التشكل وإطار الناظم، بديل، المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، بيت لحم فلسطين، 2012.
- عهد كمال شلخين، الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع (دراسة في الفكر العربي المعاصر)، منشورات الهيئة العام السورية للكتاب، 2014.
- عبد الله لحميمة، الرواية المغاربية المعاصرة، (دراسة تأويلية)، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سورية، 1014.
- عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة، (نحو مشروع عقل تأويلي)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008.
- عبد السلام بنعبد العالي، الأدب وميتافيزيقا، دراسات في أعمال عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال للنشر، ط1، 2009، الدار البيضاء المغرب.
- عبد السلام بنعبد العالي، ضد الراهن، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ت ط: 2005.
- عبد العزيز بومسهولي، الشعر الوجود والزمان، رؤية فلسفية للشعر، أفريقيا الشرق، المغرب، (دط)، (دت)
- عبد الفتاح كيليطو: الأدب والغرابية، دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، ط3، 2006، دار البيضاء، المغرب.
- ..... الغائب، دراسة في مقامة للحريري، دار توبقال، المغرب الدار البيضاء، ط2، 1997،

- عبد الفتاح الحجمري، عتبات النص البنية والدلالة، منشورات الرابطة ، ط1، 1996، الدار البيضاء، المغرب.
- عبد الوهاب المسيري، اليد الخفية، دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 2001.
- عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، (دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007.
- عبد الغفار مكاي، مدرسة الحكمة، مؤسسة هنداي، سي أي سي، د ط، 2017.
- عادل العناز، التمثيل التأويلي للتاريخ في الرواية العربية، دائرة الثقافة، حكومة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2019.
- المصطفى عمراني، مناهج الدراسات السردية وإشكالية التلقي (روايات غسان كنفاني نموذجاً)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011.
- فتحي المسكيني، الهوية والحرية نحو أنوار جديد، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2011.
- ..... الكوجيطو المجروح، أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2013.
- ..... الهجرة إلى الإنسانية، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 2016.
- فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط1، 2009.
- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، بيروت / لبنان، ط1، 2002.
- محمد الشحات، سرديات المنفى، (الرواية العربية بعد عام 1967)، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006.

- محمد عابد الجابري، مسألة الهوية العروبة والإسلام... والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 1995.
- محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، (التشكيل ومسالك التأويل)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 2012.
- محمد برادة، الرواية العربية ورهان التجديد، الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، دبي، الإمارات العربية، ط1، 2011.
- محمد بوعزة، هرمينوطيقية المحكي (النسق والكاوس في الرواية العربية)، الانتشار العربي، لبنان، ط1، 2007. ص:71.
- مجموعة من الباحثين، فلسفة السرد المنطلقات والمشاريع، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014.
- مليكة دحامنية، هرمينوطيقا النص الأدبي، في الفكر الغربي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2008.
- مونييس بخضرة، فلسطين والفلسفة، مؤمنون بلا حدود، قسمة الفلسفة والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، 4 يناير 2018.
- نادر كاظم، الهوية والسرد (دراسات في النظرية والنقد الثقافي)، دار الفراشة لنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 2016.
- ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1997.
- نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة، وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط1، 2014، الدار البيضاء المغرب
- نجيب الحصادي، آفاق محتملة، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، دط، دت.

- نور الدين أفاية المتخيل والتواصل (مفارقات العرب والغرب) ، دار المنتخب العربي للدراسات والتوزيع والنشر، لبنان، بيروت، ط:1 1993
- سعيد بنكراد، استراتيجية التأويل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، ط1، 2011.
- .....، سيرورات التأويل (من الهرموسية إلى السيميائيات)، دار الأمان، الرباط/المغرب، ط1، 2012.
- .....، سيميائيات النص، مراتب المعنى، دار الأمان، الرباط المغرب، ط1، 2018.
- سعد محمد رحيم، سحر السرد، دراسات في الفنون السردية، الرواية- السيرة والسيرة الذاتية- أدب ما بعد الكولونيالية- أدب الاستشراق، دار نينوي للدراسات والنشر والتوزيع، سورية دمشق، دط، 2014.
- شريف كناعنة، الشتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير؟، مطبعة أبو غوش، البيرة، فلسطين، 2000.
- شفيق ناظم الغبرا، تحديات الهوية الفلسطينية في عالم متغير، ضمن كتاب: (التجمعات الفلسطينية وتمثلاتها ومستقبل القضية الفلسطينية)، المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الاستراتيجية، مسارات، رام الله فلسطين، ط1، 2013.
- شاهين محمد، ادوارد سعيد مقالات وحوار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2004.
- صدوق نور الدين، البداية في النص الروائي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية سورية، ط1، 1994.
- صالح خليل أبو أصبع، فلسطين بين تحدي الوجود وثقافة التحدي، (مطالعات في أدب المقاومة وثقافتها)، وزارة الثقافة، المملكة الأردنية، ط1، 2010.

- ياسين سليمان، سؤال الدراما، من أنطولوجيا الفعل إلى استيتيقا التلقي، دار شهرزاد للنشر والتوزيع، ط1، 2017، عمان الأردن ي
- يوسف تغزاوي، مفهوم القراءة وأثرها في إنتاج الخطاب الأدبي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأربد، الأردن، ط1، 2016.
- يمنى العيد، الراوي: الموقع والشكل، بحث في السرد الروائي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1986.

### ثانيا \_ المراجع المترجمة:

- ادوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، دار الآداب، لبنان، والمجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط1، 2007.
- أمبرطو إيكو، الأثر المفتوح، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع اللادقية/ سورية، ط2، 2001.
- .....: الثقافة والامبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 2014.
- بول ريكور، من النصّ إلى الفعل (أبحاث التأويل)، ترجمة: محمد برادة وحسن بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 2003.
- ..... الزمان والسرد، (الزمان المروي) الجزء: 3، ترجمة: سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت/ لبنان، ط:1، 2006.
- ..... بعد طول تأمل... السيرة الذاتية، تر: فؤاد مليت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006.
- ..... نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006.

- بول ريكو، الذاكرة والسرد، حوارات، — ترجمة: سمير مندي، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، 2016، عمان ، الأردن.
- بول ريكور، صراع التأويلات، دراسة هيرمينوطيقية، ترجمة: منذر عياشي، ومراجعة: جورج زينات، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2005، بيروت، لبنان.
- بول ريكور، الذات عينها كآخر، تر: جورج زينات، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2005، بيروت، لبنان.
- بول ريكور، الزمان والسرد، الحكمة والسرد التاريخي، تر: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، ج:1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت/ لبنان، ط1، ت ط: 2006.
- تموشى كلارك، المعتمد الأدبي في التفكير، (هيدجر بلانشو دريدا)، تر: حسان نايل، المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، 2011
- جاك دريدا، صيدلية أفلاطون، ترجمة: كاظم جهاد، دار الجنوب للنشر، تونس، (دط)،
- روبرت هولب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، ترجمة: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2000.
- فليب سارنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، تر: عبد الهادي عباس، دار دمشق، سورية، دمشق، ط1، 1992، ص: 499.
- فولفجانج إيسر، فعل القراءة نظرية في الاستجابة الجمالية، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة 2000.
- مجموعة بن الباحثين، الوجود والزمان والسرد فلسفة بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1999.
- ميرسيا إلياد، الأساطير والأحلام والأسرار، ترجمة: حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، سورية، دط، دت.

- ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يافوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2، 1987،
  - لويس بلانشو، كتابة الفاجعة، ترجمة: عز الدين الشنتوف، دار توبقال للنشر، دار البيضاء المغرب، ط1، 2018،
  - مارتن هيدغر: أصل العمل الفني، ترجمة: أبو العيد دودو، الجزائر: منشورات الاختلاف، ط1، 2001.
  - ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء/المغرب، ط 1، 1986.
  - هيو سلفرمان، نصيات بين الهرمنيوطيقا، ترجمة: حسن ناظم وعلى حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2002.
  - وليم راي، المعنى الأدبي من الظاهرانية إلى التفكيكية، تر: يوثيل يوسف عزيز، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، العراق، ط1، دت.
- ثالثا \_ قائمة المجالات:
- اليأس خوري، سؤال النكبة: الصراع بين الحاضر والتأويل، إدوارد سعيد و(مسألة فلسطين)، مجلة الكرمل، ع: 78، جانفي 4004.
  - أحمد سعدي، الذاكرة والهوية، مجلة الكرمل، العدد: 74،75، 1 يناير 2003،
  - الياس صنبر، عن الهوية الثقافية للفلسطينيين، العودة إلى الزمن، مجلة كرمل، العدد: 55، 56، ت ن: 1 أبريل، 1998.
  - إدريس الخضراوي، من التاريخ إلى الرواية الذاكرة الجمعية مصدرا للسرد، مجلة تبين، العدد 33، 2020.
  - بن الدين بخولة، نصية النص واستراتيجية القارئ، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، المجلد 4، العدد3، سبتمبر 2021.

- بختي بن عودة، قراءة غير بريئة في "التبيين" إلى تواضع التأسيس، مجلة التبيين، العدد: 9، 1995.
- بلعاليا دومة ميلود، جدل التاريخ والسرد عند بول ريكور، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، المجلد: 7، العدد: 3، 2019.
- بن يمينة كريم محمد، أخلاقيات "العيش المشترك" وجدل الثقافات، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية.
- حسام الخطيب، "عربسك" وبعض إضاءة لإشكالية الهوية الفلسطينية، مجلة الآداب الأجنبية، ع: 58، شتاء وربيع 1986، اتحاد الكتاب العرب.
- حورية الخليشي، الهوية والذاكرة ورهانات الكتابة، مجلة يتفكرون، ملف: الهوية والذاكرة ومسارات الاعتراف، العدد: 4، مؤسسة دراسات وأبحاث، مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب، 2015.
- رامي أبو شهاب، النكبة في الرواية "زمن الخيول البيضاء" لإبراهيم نصر الله: المتخيل والوعي التاريخي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد: 151، السنة: 38، جامعة الكويت.
- رامي أبو شهاب، سردية الشتات الفلسطيني في ضوء الخطاب ما بعد الكولونيالي، رواية "غريب النهر" لجمال ناجي، مجلة مشارف مقدسية، مجلة فصلية ثقافية عربية، شتاء 2016.
- فيصل دراج، في الهوية الثقافية الفلسطينية، مجلة الكارمل، العدد: 50، شتاء 1997، مؤسسة "الأيام"، رام الله، فلسطين.
- فخري صالح، النكبة والرواية، وتبلور الهوية الوطنية الفلسطينية، مجلة الجديد، العدد: 60، عنوان العدد: الرواية والتاريخ، استلهم التاريخ في كتابة الأدب، كانون الثاني، 2020.

- فاروق مردم بك، المتقفون الفرنسيون والمسألة الفلسطينية: الثوابت والتبدلات، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد: 87، صيف 2011.
- شعيب حليفي، النصّ الموازي للرواية (إستراتيجية العنوان)، مجلة الكرمل، ع46، نيقوسيا، 1992.
- مالك الريماوي، أبجدية الحكاية الفلسطينية: حدثي جدّي فقال...سياسات المقاومة في "أمكنة السرد" و"سرديات المكان" مجلة رؤى تربوية، ملف العدد: التاريخ من النكبة إلى المقاومة، العدد: 27.
- زهير سوکاج، الهوية بين الكتابة التاريخية والذاكرة الجمعية نحو نموذج ذاكراتي فلسطيني، مجلة رؤى تربوية، ملف العدد: التاريخ من النكبة إلى المقاومة، ع: 27.
- عزمي بشاره، دراسات، الأقلية الفلسطينية في إسرائيل مشروع رؤية جديدة، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 3، العدد 11، صيف 1992.
- فتحي تريكي، جمالية العيش المشترك، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، مجلد 41، عدد 478.

### رابعا \_ المواقع ومجلات الكترونية:

- ربوح البشير، عبد الغني بارة: المنظور التّأويلي ثورة على الأنساق المغلقة، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، <https://www.mominoun.com/articles>
- إبراهيم محمود، فضاء النص، موقع: انطولوجيا <https://alantologia.com/blogs/10020>، ت ن: 7، جوان، 2018.
- معتز أشرف، أيقونة مواجهة... لماذا يؤرّق مفتاح العودة الفلسطيني الصهاينة؟ <https://thelenspost.com>! ، الأربعاء - 16 مايو 2018 - 4:17 م العدة - مجلة الرأي الالكترونية.

- رامي أبو شهاب، حتمية الفوضى... لكن لا شيء سوى الخيام، موقع القدس العربي، <https://www.alquds.co.uk>، 26، فبراير، 2023.
- رامي أبو شهاب، "6000 ميل" للفلسطيني محمد مهيب جبر، ... ورحلة البحث عن الوطن، موقع القدس العربي، <https://www.alquds.co.uk>، تاريخ النشر: 19 يوليو، 2015.
- الطيب بوعزة، في مفهوم المفهوم ومحدّدات المقاربة المفاهيمية، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، قسم العلوم الإنسانية والفلسفة. <https://mominoun.com/pdf1/2014-12/549be678a14a0465520591.pdf>
- خيرى منصور، حروب السرديات، 17، مارس، 2017، موقع القدس العربي، <https://www.alquds.co.uk>.
- سعيد بن كراد، مات ريكور عاشت التأويلية، موقع الرأي: <https://alrai.com/article/106901>، ت ن: 10، 6، 2005.
- سعيد بنكراد، السرد ومعنى الحياة، <https://alamat.saidbengrad.net/?p=7246> مجلة علامات.
- م محمد خرماش، النص الأدبي وإشكالية القراءة والتأويل، <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/24361>
- عبد الله لبريمي، الزمن والسرد في فلسفة بول ريكور، مجلة الكلمة، ع: 81، يناير، 2014، موقع مجلة الكلمة: <http://www.alkalimah.net>.
- اليمنى العيد، مرفأ الذاكرة، مجلة العربي، الكويت، عدد: 507، صدرت: 1، 2، 2001، الموقع مجلة العربي: <https://alarabi.nccal.gov.kw/Home/Article/3684>.

- لونغ يالينغ، ذاكرة النكبة وتأثيراتها في تبلور الهوية الفلسطينية، مجلة المستقبل العربي، السنة: 44، ع:507. ماي 2021.

خامسا: الرسائل العلمية والمخطوطات:

\_ سامية داودي، صوت المرأة في روايات إبراهيم سعدي، مخطوط أطروحة دكتوراه، جامعة تيزي وزو، كلية الآداب واللغات، 2012.

# فهرس الموضوعات

## فهرس الموضوعات

إهداء: ..... 4

كلمة شكر: ..... 5

مقدمة: ..... أ

مدخل: قراءة في علائقية مفاهيم البحث ..... 16

1 / الهوية ..... 17

2 / الهوية الفلسطينية بين الحضور الفلسطيني، والتأويل الصهيوني: ..... 20

3 / الهوية السردية: ..... 28

4 / التأويل والسرد: ..... 32

الفصل الأول: ذاكرة النص: بين التأويل التاريخي، والتمايز السردية. .... 46

تمهيد: ..... 47

المبحث الأول: ..... 49

سؤال "الملهاة الفلسطينية"، من فاعلية العنوان إلى ذاكرة النص. .... 49

المبحث الثاني: ..... 68

فاجعة النكبة، من سردية الذاكرة إلى إعادة تشكيل الهوية الفلسطينية. .... 68

المبحث الثالث: ..... 85

السرد، والتاريخ نحو تشكيل هوية سردية فلسطينية. .... 85

المبحث الرابع: ..... 104

مسار الذات نحو الجماعة، وانتمائها لهوية فلسطينية. .... 104

الفصل الثاني: سؤال الهوية الفلسطينية، من أفق السرد، إلى أفق المقاومة.

..... 122

تمهيد: ..... 123

المبحث الأول: ..... 125

المقاومة السردية، وإشكالية البحث عن الهوية. .... 125

المبحث الثاني: ..... 145

الوجود الفلسطيني المغيب، والكتابة السردية المضادة. .... 145

المبحث الثالث: ..... 158

فاجعة الموت، وأفق المقاومة السردية. .... 158

المبحث الرابع: ..... 173

173	الحرية في مواجهة التأويل .....
189	الفصل الثالث: الشتات، ومسارات تأويل الهوية الفلسطينية.....
190	تمهيد:.....
192	المبحث الأول:.....
192	الهوية الفلسطينية، العابرة لأزمة الشتات .....
207	المبحث الثاني:.....
207	فلسطينيو الداخل، وجود غير سويّ.....
224	المبحث الثالث:.....
224	الآخر النقيض، والسلام المستحيل.....
235	المبحث الرابع:.....
235	حلم العودة إلى فلسطين.....
244	خاتمة:.....
255	قائمة المصادر والمراجع:.....

## الملخص:

ينطلق هذا البحث من الطبيعة السردية لإشكالية نص "الملهاة الفلسطينية"؛ إذ التحم التاريخ بالسرد، والماضي بالحاضر، والممكن، والمحتمل في تشكيل سردي فسيفسائي، مما أفضى بالتأويل أن يكون وساطة قرآنية بين النص، والقارئ، في تفعيله لفهم بنى نصية، تشي بذلك الواقع المأزوم للفلسطينيين، وتفيض حيوية إنسانية لفتح مجال مشاركة القارئ في بنائه لدلالات الهوية الفلسطينية المقاومة، بناء نمت فيه رؤية فكرية، التي أوحى بها استراتيجيات نصية حددت مسارات تأويل النص وفق هواجس الفلسطيني عن الهوية، والتاريخ، والإنسان، والأرض، فكانت رؤية نص "الملهاة الفلسطينية" في ثنايا هذه الدراسة أن تبلورت، وفق مراحل القراءة التأويلية، هوية سردية، أساسها تاريخي ملتحم بقضايا الراهن الفلسطيني، وهي: فاجعة النكبة، المقاومة السردية، والشتات الفلسطيني، وحلم العودة إلى الوطن.

الكلمات المفتاح: الهوية الفلسطينية، الهوية السردية، التأويل، تاريخ الفاجعة، المقاومة السردية، الشتات الفلسطيني.

## Résumé:

Cette recherche prend son élan de la nature narrative liée à la problématique du texte de la «Comédie palestinienne» ; là où l'histoire s'est mêlée à la narration, alors que le passé s'est amalgamé au présent dans une configuration narrative s'étalant en mosaïque. En effet, cela n'a conduit qu'interprétation en question ne soit qu'une médiation-lectrice entre le texte et le lecteur dans son activation pour la compréhension de ses structures textuelles, véhiculant ainsi la réalité critique des Palestiniens. Or ceci vient combler cet espace de dynamisme humain pour une ouverture de champ sémantique qui permettrait la participation du lecteur dans sa construction des significations identitaires de la résistance palestinienne dans laquelle se développe une vision intellectuelle, et ce en tirant son inspiration des stratégies textuelles qui viennent délimiter les parcours interprétatifs du texte selon les inquiétudes du Palestinien sur les questions de ; l'identité, l'histoire, l'homme et la terre. Par conséquent, la vision du texte de la « Comédie palestinienne » s'est clarifiée au cours de cette étude selon les étapes de la lecture interprétative, comme identité narrative, dont le fondement serait historique combiné au contexte actuel de l'affaire palestinienne, à savoir celle du désastre de la grande catastrophe (le *cataclysme de la Nakba*), la résistance narrative, la diaspora palestinienne ainsi que le rêve de retour des réfugiés palestiniens à leur patrie.

**Les Mots Clés:**L'identité palestinienne, L'identité narrative, L'interprétation, L'histoire de la grande catastrophe, La résistance narrative, La diaspora palestinienne.